

تفسير القرآن الكريم في تاريخ الإسلام
بمقتضى من الله عز وجل

معجم الملائكة في تفسير القرآن

الحمد لله رب العالمين

سورة البقرة (١٣٤-١٤٢)

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل صالح

أساذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب دستوراً لأهل الأرض إلى يوم القيامة فتضاعف أعداد سكان الأرض بركة ورحمة وفضلاً من الله، وتتعاقب السنين والأحقاب بما يصعب عده وأحصاؤه، والقرآن مصاحب لهم إماماً وضياءاً.

وكل جيل من المسلمين يدرك بالوقائع والوجدان أن القرآن ملائم لهم، وكأنه نزل في زمانهم وخاص بهم، وعندما يرجعون إلى أسباب النزول والأحداث والموضوعات التي صاحبت نزول الآية القرآنية يحسبون أنها قريبة منهم وجزء من عالمهم، وتلك آية في إعجاز القرآن، ليتلقى الناس الأوامر والنواهي القرآنية بالقبول والإمتثال وحسن الإنصات، قال تعالى ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(١).

فتفضل الله عز وجل وجعل الإستجابة لأمر ودعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالإستجابة لأمره سبحانه، وفيه غاية الإكرام والشهادة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لا يأمر أو ينهى إلا بأمر من الله عز وجل وتلك منزلة رفيعة لم ينلها أحد من الأنبياء تتجلى بكثرة عدد المرات التي نزل جبرئيل عليه.

وقد جاهد النبي محمد في تلقي وتبليغ آيات القرآن وتثبيتها في المصاحف وفي الصدور والمجتمعات، وعن الحكم بن عمير الثمالي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن هذا القرآن صعب مستصعب عسير على

(١) سورة الأنفال ٢٤.

من تركه، يسير لمن تبعه وطلبه. وحديثي صعب مستصعب وهو الحكم، فمن استمسك بحديثي وحفظه نجا مع القرآن. ومن تهاون بالقرآن وبحديثي خسر الدنيا والآخرة. وأمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتبوعوا سنتي، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن، ومن استهزأ بقولي فقد استهزأ بالقرآن. قال الله سبحانه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

وهذا هو الجزء الرابع والعشرون من (معالم الإيمان) ويتضمن تفسيراً وتأويلاً للآيات (١٣٤-١٤٢) من سورة البقرة مع الكشف عن نكات وبيانات تتجلى في ثنايا كل آية من آياته التي هي خزينة لا تنفذ دررها. إذ ابتدأ هذا الجزء بقوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾^(٢)، في خصوص إبراهيم عليه السلام وولديه وحفيده النبي يعقوب الذي حرص ألا يغادر الدنيا إلا ويترك أولاده على ملة إبراهيم من التوحيد والإنقياد لأمر الله وقوله ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالوصية لأجيال المسلمين المتعاقبة، ولم يغادر الدنيا إلا وقد اقيمت دولة الإسلام، وتغشت أحكامها المباركة المدينة المنورة ومكة المكرمة والقرى المحيطة بكل منهما واليمن والبحرين وتمتد باتجاه الشام والعراق بحيث أصبح دخول بلدان وأمصار أخرى مسألة وقت وتهيئة الأسباب وتجهيز السرايا من بين آلاف المسلمين الذين يعشقون الشهادة والنصر.

(١) الكشف والبيان ١٩٧/١٢.

(٢) سورة البقرة ١٣٤.

(٣) سورة البقرة ١٣١.

ليكون هذا التباين بين الوصية الشخصية ليعقوب، وحفظ المسلمين لوصية وعهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إتباعه ملة إبراهيم عليه السلام من مصاديق قوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ لبيان حاجة أهل الأرض إلى نبوته والمائز الذي يتصف به المسلمون وما يتضمن من صيغ جذب الناس للإسلام، وعدم الإنشغال بالماضي وحده بل لا بد من التدبر في الحاضر والمستقبل في وجوب العمل الصالح والإستعداد للآخرة، وليكون من مصاديق تفسير خاتمة الآية أعلاه ﴿وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إنما تسألون عن إيمانكم وأعمالكم، وعن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله^(١).

وأختم هذا الجزء بقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمْ﴾^(٢)، لبيان الارتقاء الذي صار عليه المسلمون، وتفقههم في الدين وإخلاصهم في إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما يأمره به الله عز وجل بالمبادرة إلى الإمتثال الحسن بتحويل القبلة إلى البيت الحرام هذا الإمتثال الذي يبعث الفزع والخوف في قلوب الكفار والظالمين لما تدل عليه سرعة الإستجابة في التحول في القبلة والتوجه إلى البيت الحرام في الصلاة من تقوى المسلمين، والإطلاق في وجوه الإستجابة وإستعدادهم للصبر والجهد في سبيل الله وهو من المصاديق الجليلة واليومية المتجددة لقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣).

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٨/٨.

(٢) سورة البقرة ١٤٢.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الآية ١٣٤.

الإعراب واللغة

تلك أمة: مبتدأ وخبر وتتألف (تلك) من ثلاث مفردات (تي) اسم إشارة مبني على السكون على الياء المحذوفة، (اللام) للبعد، و(الكاف) للخطاب. قد حرف تحقيق، خلت: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لإلتقاء الساكنين، والتاء : للتأنيث، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي.

لها ما : جار ومجرور خبر مقدم، ما: مبتدأ مؤخر، وهو اسم موصول بمعنى الذي.

ولكم ما كسبتم: عطف على الجملة السابقة، كسبتم: فعل وفاعل، والعائد محذوف أي كسبتموه.

ولا تسألون: الواو إستئنافية، تسألون: فعل مضارع مبني للمجهول، الواو: نائب فاعل، والجملة مستأنفة.

عما: جار ومجرور، كانوا: فعل ماض ناقص، الواو: اسم كان.

يعملون: فعل مضارع، الواو: فاعل، والجملة الفعلية خبر كان.

الأمّة: الجماعة وقد تكون للرجل الجامع للخير الذي يقتدى به.

والأمّة: الطريقة والشرعة والدين كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

عَلَىٰ أُمَّةٍ ۖ﴾^(١) ويقال فلان لا أمة له أي لا دين له ولا نحلة له، والأمّة: الحال

والشأن.

وقال ابن الإعرابي: الأمة غضارة العيش والنعمة ^(١)، وملت: مضت وإنقضت.

والكسب: ثمرة السعي والتحصيل، ومنهم من خصص الكسب بالخير والإكتساب بالشر لأمرين لأن الإكتساب فيه احتمال الشر وعبرة عن حاجة النفس الشهوانية فهي تجد في تحصيله ولقوله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ^(٢).

وهو تفصيل حسن لو تمت قواعده ومدركه إذ أن المعنى أعم، قال تعالى ﴿وَلَكِنْ يَأْخِذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ^(٣) أي اقترفته، وبدليل هذه الآية اذ جعلت الكسب بعرض واحد مع ان موضوعه متعدد ومتباين وجاء للإحتجاج.

في سياق الآيات

الآية حجة مركبة على من ينتسب الى يعقوب ويرجو دخول الجنة بهذا الإنتساب وبما فعله يعقوب عليه السلام وابناؤه فالأولى ان يتعاهدوا الوصية وان يوصوا أبناءهم بمضمونها وان يعملوا بها.

وبعد ان تضمنت الآيات السابقة بيان قبائح بني اسرائيل وتوكيد التزام الأنبياء من آبائهم بالإسلام واعلاء كلمة التوحيد جاءت هذه الآية لتكون فيصلاً ويلحاظ ما قيل في اسباب نزول الآية السابقة فاهل الكتاب جاءتهم آيات متكررة متوالية، أي أن الحجة أكبر والذنب أعظم، ومع هذا جاءت هذه الآية رحمة ولطفاً وتحمل الدعوة الى الاسلام.

(١) لسان العرب ٢٢/١٢ .

(٢) سورة البقرة ٢٨٦.

(٣) سورة البقرة ٢٢٥.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بين الآيات السابقة وهذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: الصلة بين آية (وإذ يرفع) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: بيان جهاد إسماعيل في سبيل الله.

الثانية: إكتساب إبراهيم وإسماعيل الحسنات ببناء البيت الحرام.

الثالثة: إنقطاع الأنبياء إلى الدعاء، وسؤال قبول الأعمال.

الرابعة: دعوة اليهود والنصارى إلى إكرام البيت الحرام، ومناسك حجة لأن إبراهيم عليه السلام هو الذي قام ببنائه.

الخامسة: من كسب إبراهيم وإسماعيل الثناء والمدح لله عز وجل وأنه يسمع الدعاء ويعلم الأفعال والنوايا.

السادسة: جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما اجتهد وجاهد فيه الأنبياء السابقون كحج البيت الحرام.

الثاني: الصلة بين آية (أمة مسلمة) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تضرع الأنبياء لله عز وجل بأن يجعلهم مسلمين ومنقادين لأوامره سبحانه.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين ترغيب أهل الكتاب بالإسلام، وطردهم النفرة من أحكامه وسنته.

الثالثة: جاءت هذه الآية دعوة لليهود والنصارى والناس جميعاً لمعرفة أحوال الأنبياء السابقين وسؤالهم تثبيت دعائم الإسلام، وتوارث سنته في ذريتهم.

الرابعة: جاءت خاتمة هذه الآية بنفي السؤال عن الأمم الخالية، وجاءت الآية أعلاه بالإخبار عن كون عملهم خيراً محضاً، ويتجلى فيه الصلاح

(١) الآية ١٢٧.

(٢) الآية ١٢٩.

والتقوى.

الثالث: الصلة بين آية (ربنا وإبعث فيهم) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: دعوة أهل الكتاب إلى إكرام الأنبياء السابقين.
الثانية: نفي ما يدعيه أهل الكتاب بأن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً.
الثالثة: دعوة الأنبياء السابقين لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه شاهد على صدق بعثته.

الرابعة: لقد إستجاب الله دعاء إبراهيم وإسماعيل وبعث النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء بالآية محل البحث من عند الله، وأن أهل الكتاب لا يسئلون عما كان تفعل الأمم الخالية، لتكون الآية حجة عليهم، ودعوة لهم للإمتثال للأوامر الإلهية، وأداء الوظائف التي خلقهم الله من أجلها، قال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ^(٢).

الرابع: الصلة بين آية (ومن يرغب) ^(٣)، وبين هذه الآية، وفيه مسائل:
الأولى: الثناء على إبراهيم لإنقطاعه إلى طاعة الله.
الثانية: لزوم إتباع ملة إبراهيم في التوحيد وعدم الشرك بالله.
الثالثة: قيام الحجة على أهل الكتاب لوراثتهم من إبراهيم سنن التوحيد.
الرابعة: تأكيد حقيقة وهي أن النبي محمداً على ملة إبراهيم عليه السلام.

الخامسة: من كسب الأنبياء الجهاد لبقاء سنن التوحيد تركة للأجيال اللاحقة، وتهيئة مقدمات بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتصديق الناس به عند بعثته.

(١) الآية ١٢٩.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

(٣) الآية ١٣٠.

السادسة: إنذار أهل الكتاب من الإعراض عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنها من ملة إبراهيم وتتمة ونوع تكميل لها، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(١).

السابعة: في خاتمة الآية أعلاه ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾، تذكير للمسلمين وأهل الكتاب والناس جميعاً بيوم الآخرة، وترغيب بنيل المنزلة والمقام الحسن فيه، وإجتنب العذاب الأليم يومئذ الذي يأتي جزاء على الكفر والجحود والظلم، والصدود عن النبوة.

الخامس: الصلة بين آية (أسلم)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل: الأولى: تتصف الأمم التي مضت من الآباء بالإقرار بالربوبية لله، والتسليم له، والإنقياد لأوامره ونواهيه.

الثانية: دعوة أهل الكتاب للتصديق بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه لم يأت إلا بما أمره الله.

الثالثة: نزل القرآن من عند الله وهو يتضمن الدعوة للتسليم لأمر الله، فقالت الآية السابقة في إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾، وكل آية من القرآن تخاطب الناس جميعاً بأن يسلموا لله عز وجل.

السادس: الصلة بين آية (ووصى بها)^(٣)، وبين هذه الآية وفيها مسائل: الأولى: كلمة التوحيد بركة من الأنبياء السابقين، لأنه التي وصفها هذه الآية بأنها خلت ومضت.

الثانية: دعوة اليهود والنصارى للإقتداء بإبراهيم في نهجه وإخلاصه

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) الآية ١٣١.

(٣) الآية ١٣٢.

العبودية لله، قال تعالى ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

الثالثة: بقاء وصية إبراهيم ويعقوب في بني إسرائيل، وتجديدها في الذراري.

الرابعة: إطلاق لفظ (أمة) على عدد قليل من الأنبياء آية في إكرام الأنبياء، ودعوة لتلقي العلوم والأحكام منهم، وفيه حجة على بني إسرائيل بأنهم ورثوا التوحيد.

الخامسة: لقد دعا إبراهيم عليه السلام لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويدل هذا الدعاء بالدلالة الإلزامية على البشارة به والحث على التصديق به عند بعثته.

السادس: الصلة بين الآية السابقة (أم كنتم شهداء)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تأكيد عدم حضور اليهود والنصارى لوصية يعقوب لبنيه.
الثانية: بيان فضل الله عز وجل على أهل الكتاب بالقرآن، وما فيه من علوم الغيب التي تكون تأديباً وإرشاداً لهم، ووفقاً للوهم والإتكال على النسب للأنبياء.

الثالثة: من إعجاز هذه الآيات بيان قصص وسنن الأنبياء السابقين، وإخبار أهل الكتاب بأن المدار على العمل الشخصي، والسعي في مرضاة الله.

الرابعة: إستحضار النسب للأنبياء، والإفتخار به أمر حسن، ولكنه لا يسقط التكليف، بل يؤكد ويحث عليه.

الخامسة: جاءت الآية السابقة بالأسوة والمثال الأمثل في ذكر الآباء، فقد ذكر أبناء يعقوب آباءهم بالإقتداء بهم في مسالك التوحيد وآداب الشريعة،

(١) سورة آل عمران ٣٤.

(٢) الآية ١٣٣.

وكذا يجب على بني إسرائيل فلا يصح التقصير والإهمال إتكالاً على النسب وأبوة الأنبياء، وقال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾^(١)، في إشارة إلى تخلف النسب عن الشفاعة والإجزاء يوم القيامة، وأن المدار على إتباع إبراهيم في ملته، والإمثال للأوامر الإلهية التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية، وبين الآية التالية (وقالوا كونوا)^(٢)، وفيها

مسائل:

الأولى: جاءت الآية أعلاه بياناً وتفسيراً لعلل اللوم الذي تدل عليه الآية السابقة بالمفهوم، إذ أن إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب لم يدعوا لليهودية والنصرانية، إنما ووصوا بالإسلام والإتيقار لأوامر الله.

الثانية: دعوة بني إسرائيل للإقتداء بإبراهيم في أمور ثلاثة:

الأول: طريقة وشرعية إبراهيم.

الثاني: الحنيفية والإستقامة التي كان عليها إبراهيم.

الثالث: إخلاص إبراهيم في التوحيد، وعصمته من الشرك الظاهر

والخفي.

الثالثة: كون الأنبياء أمة خلت لا يصح ترك المبادئ والسنن التي كانوا عليها، فجاءت الآية التالية لتبين موضوع الإحتجاج في هذه الآية وعدم سؤال الموجود من بني إسرائيل عن الأنبياء بما يفيد رضا الله عز وجل عن آباء بني إسرائيل من الأنبياء والأسباط.

الرابعة: جاءت هذه الآية خطاباً لأهل الكتاب، وجاءت الآية التالية بصيغة الإخبار عما يقولون بغير حق، وفيه تنبيه وتحذير لهم والكف عن

(١) سورة آل عمران ٦٨.

(٢) الآية ١٣٥.

الجدال والخصومة، وهو من أسرار القرآن وما فيه من أسباب الهداية، قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١).

الخامسة: يتعلق موضوع هذه الآية بأهل الكتاب على نحو العموم والإشراك، أما الآية التالية فجاءت بصيغة السبر والتقسيم، والتقدير ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (قولوا آمنا)^(٢)، وفيها مسائل:
الأولى: من إعجاز القرآن عدم ترك مادة الجدال من غير رد واحتجاج، فجاءت هذه الآية لهداية المسلمين إلى ما يجب أن يقولوا لإنقاذ الذين يرجون شفاعة الآباء، ويتركون الوظائف العبادية.

الثانية: دعوة أهل الكتاب لسبل الإيمان.
الثالثة: لما جاءت هذه الآية بوصف إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب بأنهم أمة قد خلت جاءت هذه الآية بذكر مقاماتهم السامية، وأنهم نالوا شرف الدنيا والآخرة، وفضلهم الله على العالمين بأن خصهم بتلقي الوحي والتنزيل.

الرابعة: بيان إكرام المسلمين للأنبياء السابقين، والإقرار بفضلهم، والتصديق بما أنزل عليهم.

الخامسة: جاءت خاتمة الآية أعلاه دعوة لأهل الكتاب للإنقياد لأوامر الله عز وجل.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (فأن آمنوا)^(٣)، وفيها مسائل:
الأولى: جاءت الآية محل البحث خطاباً لأهل الكتاب، أما هذه الآية

(١) سورة الحديد ٢٥.

(٢) الآية ١٣٦.

(٣) الآية ١٣٧.

فجاءت خطاباً بالمسلمين.

الثانية: بعد أن بينت هذه الآية أن المدار والحكم والحساب على العمل والكسب الشخصي، جاءت هذه الآية لتؤكد ماهية العمل وهو الإيمان بالله والكتب التي أنزلها الله والتصديق بالأنبياء على نحو العموم المجموعي.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين أن تعلق أهل الكتاب بالنسب والنبوة للأنبياء لن يضر المسلمين، وجهادهم في سبيل الله.

الرابعة: دعوة المسلمين لعدم الوقوف كثيراً عند الجدل والخصومة وأسباب الشك والريب، لما فيها من الصد عن السعي في مرضاة الله.

الخامسة: يدل الجمع بين الآيتين على أن المسلمين ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ﴾^(١).

السادسة: صدود وإعراض شطر من الناس عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لن يضر الإسلام والمسلمين.

إعجاز الآية

هذه الآية ضابطة كلية وقاطع للأمل بالإنشغال من عمل الآباء من غير إقتداء بهم، وهي تقسم الناس بلحاظ العمل والكسب بغض النظر عن الإنتساب وصلة القرابة، نعم هذه القاعدة لا تمنع من التشابه بين القريب مع قريبه، كما في تقوى الآباء وزعامتهم لأهل الملة والإسلام في زمانهم ولزوم عدم الجحود بالرسالة الإسلامية لذا جاءت الآية بلغة الجمع.

وهي تخفيف عن المسلمين لقيامها بالتقييح والفضح للذين يصدون عن الإسلام، ومن إعجاز الآية أنها تويخ وترغب في أن واحد، والمخاطب متعدد لتذكيرهم بالتباين الإختياري بينهم وبين آبائهم من الأنبياء، وحثهم على الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وبلحاحظ نظم الآيات فان المخاطبين في الآية هم المسلمون ، ولكن معاني الحجة فيها أعم إذ تتوجه أيضا إلى بني إسرائيل في مفهومها ودلالاتها وبلحاحظ موضوعها الذي يكون كالقرينة الصارفة، ولا يبقى لذات الحقيقة، كما في قولك تغذينا عند حاتم، فلا بد أن المقصود هو رجل كريم معاصر ومصاحب وليس حاتم الطائي الذي مات قبل الإسلام بقليل وإشتهر بكرمه.

أما في علوم القرآن فان الخطاب يأتي إلى جهة على نحو التعيين ولكنه يشمل بالقرائن جهات أخرى لوحدة الموضوع في تنقيح المناط، وهذا الشمول ليس بالمفهوم بل بالحقيقة لتصبح كل جهة مخاطبة بالذات ولا يكون التمييز بينها وبين المذكورة بالتعيين في الخطاب القرآني إلا بالدقة العقلية.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (تلك أمة) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في آيتين من سورة البقرة^(١) جاءتتا متماثلتين في الكلمات، إذ يرد ذات النص والكلمات بعد سبع آيات.

الآية سلاح

من اعجاز القرآن ان الآية تأتي في موضوع او لبيان حكم ليلفت إليه المسلمون أما على نحو الذكرى والموعظة، أو الأمر، أو التنبيه والإرشاد، أو النهي والمنع أو التأديب.

وفي الآية عون مركب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة فقد كان يحب إسلام أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا حول المدينة وكان يسأل الله تعالى ذلك سرا وعلانية، لساناً وقلباً، وهو المروي عن ابن عباس، فجاءت الآية للإخبار بأن عدم إيمانهم راجع إلى فعلهم ومبنى الإنتفاع من سيرة الأنبياء من آبائهم.

والآية تأديب للمسلمين وزيادة في المعرفة وإخبار عن موضوعية العمل وإبتناء الحساب على الأعمال والأفعال قال تعالى ﴿قُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

(١) أنظر سورة البقرة ١٤١.

وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقريش: لا يأتييني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم^(٢).

والآية زاجر عن الإتكال على فعل الغير، وتدعو بالدلالة التضمنية إلى الإتكال على الله ورجاء المدد منه بالعمل والجزاء الحسن والهداية إلى إتباع ملة إبراهيم ودعاؤه في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا كان أبناء يعقوب أمة قد إنقرضت ، وأن الثواب والجزاء على عمل المكلف نفسه فلماذا ذكر في الآيات السابقة وعلى نحو التفصيل وصية إبراهيم ويعقوب وتعاهد أبنائهما لها، الجواب هذا الذكر دعوة للتأسي والإقتداء بهم قال تعالى ﴿فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾^(٣)، فحالما أختتمت الآية السابقة بالثبات على

الإيمان وحسن الإنقياد لأوامر الله ﴿وَتَحِزْ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٤)، جاءت هذه الآية بتشوير الهمم والإلتهفات إلى الذات وماهية العمل الشخصي والجمعي، وهو من أسرار مجيئ الآية بلفظ الأمة ليتأزر المسلمون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتسابقوا في فعل الصالحات، وفي الآية وصيغة الجمع فيها ترغيب بالإسلام والمبادرة إلى فعل الخيرات ، قال تعالى ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٥).

(١) سورة التوبة ١٠٥.

(٢) الكشف ١٣٧/١.

(٣) سورة الأنعام ٩٠.

(٤) سورة البقرة ١٣٣.

(٥) سورة التوبة ١٠٥.

مفهوم الآية

الآية دعوة للإلتفات الطوعي لآيات التنزيل وما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تعالى، ومنع من الإنشغال التام بالأنساب وتأريخ الأنبياء واتخاذ التفاخر به حاجزاً دون رؤية الآيات ودخول الإسلام وتحصر الآية مدار الحسن والقبح، والإيمان والكفر على العمل وما يكسبه الإنسان في حياته من العمل الصالح وادائه للعبادات.

وخاتمة الآية في مفهومها انذار ووعيد ، نعم تحت الآية على دراسة قصص الأنبياء والتدبر فيها، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).

فقوله تعالى ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني أنكم لا تسألون إلا على أعمالكم، ولا ينفعكم عمل الآباء وإن كانوا أنبياء ولكن هذا لا يمنع من التذكير بحسن عاقبتهم وتعاهدهم لكلمة التوحيد في الأرض. إن بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مناسبة لإظهار الولاء والمحاكاة للآباء وتعاهد وصيتهم باخلاص العبادة لله تعالى والذي ينحصر بالإسلام لذلك ترى الآيات الثلاثة السابقة تؤكد في خواتيمها على الإسلام وهي على التوالي ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) (وانتم مسلمون)^(٣) ﴿وَوَحَنَ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٤).

أنه ترغيب بالإسلام وإخبار عن خسارة من يخرج عن وصية وعهد الآباء الأنبياء بعدم الدخول فيه وإتيان الفرائض والمناسك التي أمر الله بها.

(١) سورة يوسف ١١١.

(٢) الآية ١٣١.

(٣) الآية ١٣٢.

(٤) الآية ١٣٣.

لقد كانت بعثته صلى الله عليه وآله وسلم إمتحاناً لدعاة الإيمان فمن كان صادقاً بادر الى اتباعه لظهور الآيات الباهرات، وحصول المعجزات لوجود المقتضي وفقد المانع.
وفي الآية مسائل:

الأولى: وصف عدد من الأنبياء بأنهم أمة شاهد على أنهم أمة في الخير، وحسن الطريقة والشرعة فلا غرابة أن يأتي التوكيد على ملة إبراهيم، وذكر الآيات السابقة للأنبياء أبناء إبراهيم.

الثانية: ثناء الله عز وجل على الأنبياء، والإخبار عن عدم لحوق الضرر بهم من الدعاوى غير الصحيحة.

الثالثة: صدود الابن عن مسالك الإيمان لا يضر الأب الذي مضى زمانه وأدى ما عليه، وقد جاءت الآيات السابقة بقيام إبراهيم ويعقوب بالوصية بالإيمان وسنن التوحيد.

الرابعة: حث أهل الكتاب على العمل الصالح والذي يتجلى بالتصديق بإتيان الواجبات وإجتنب المحرمات.

الخامسة: إنحصار الجزاء بكسب وأفعال الإنسان نفسه وليس آباءه، قال تعالى ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١).

السادسة: تدل فاتحة الآية في مفهومها على أن الناس يسألون عن أعمالهم وليس عن أعمال الأمم التي إنقضت.

إنفاضات الآية

تبين الآية الارتباط بين عالم الغيب وعالم الحضور بخصوص الأعمال والجزاء عليها، فقوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ يدل على أن الأعمال محفوظة لأهلها وأن مضوا وإنقضت أيامهم، فالموت زهوق الروح وخروجها

من البدن، أما الأعمال فهي باقية لا يطرأ عليه التغيير والزيادة والنقص إلا بفضل الله كما في زيادة ثواب الحسنات ونمائها في حياة أصحابها وبعد وفاتهم بالذات والسبب، أي تلك الحسنات بذاتها ينميها الله عز وجل، والسبب كما لو كانت صدقة متجددة، أو أن الابن يعمل عملاً صالحاً يأتي لأبيه في قبره منه ثواب وأجر.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له^(١).

وقد جاء الأنبياء من بني إسرائيل بالعلم النافع، الذي تنتفع منه الأجيال المتعاقبة، وجاءت هذه الآيات لتكتب لهم الخلود في الدنيا وتخبر عن عظيم مقاماتهم في الآخرة، وتكون وسيلة لنيلهم الجبال من الحسنات وإقتداء واعتبار المسلمين والناس منهم، والعمل بسنتهم.

لقد أرادت هذه الآية للنفوس أن تكون سائحة في رياض ملة إبراهيم، وأدعيته وجهاده وأنبياء بني إسرائيل لتكون وسيلة لجذبهم للإسلام، للملازمة والتداخل والتشابه في البنية بينهم وبين رسالته التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الآية لطف

تبين الآية تفضيل الله لبني إسرائيل من وجوه:

الأول: ذكر أنبياء بني إسرائيل والأسباط.

الثاني: توكيد الآية لأبوة إبراهيم لبني إسرائيل ونسبتهم إليه وتسمية الأجيال اللاحقة، منهم بصفة أبناء إسرائيل وهو حفيد إبراهيم يدل على عدم الواسطة في القربى وإتصال نسبهم بإبراهيم وهو إكرام وتشريف لبني إسرائيل ومن الشواهد على تفضيلهم.

الثالث: تنبيه بني إسرائيل بأنه لا ينفعهم إلا عملهم، وهذا قانون عام

(١) تفسير القرطبي ٢٧/١.

يشمل الناس جميعاً، ولكن ذكر بني إسرائيل على نحو الخصوص (ولكم ما كسبتم) شاهد على إكرامهم بالتحذير بلغة الخطاب، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وفيه دليل بأن تفضيلهم هذا لا يدل على الإطلاق بل أنه جاء بواسطة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن والآيات، وفيه تبليغ إضافي لهم، وهذا التفضيل لا يستطيع معارضة تفضيل المسلمين لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، ولأن المسلمين يتلون هذه الآيات فتكون تبليغاً إضافياً لبني إسرائيل وحجة عليهم.

والآية لطف بأهل الكتاب والناس جميعاً لما فيها من الإنذار والإعتبار، والبيان لقصص الأنبياء ولزوم الإقتداء بهم.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية باسم الإشارة (تلك) للإشارة إلى عدد من الأنبياء، كأمة في الخير، وأسوة كريمة للناس جميعاً في التقوى والهداية والإيمان، ولم تأت هذه الآية إلا بعد بيان وظائف الأنبياء وبذلهم الوسع في تثبيت سنن التوحيد، وتلقي أبنائهم الإيمان وراثته منهم، وجهادهم في تنزيه الأرض من دون الشرك بالإبتداء بالأبناء والأهل، ليأتي القرآن فيدعو الناس جميعاً لملتهم وسنة التوحيد بذكرهم بالأسماء، وبيان إنقيادهم لله عز وجل وتسليمهم لأوامره.

وتبين الآية توثيق القرآن لسنن الأمم السالفة، وأن الذين تحفظ أعمالهم ليس الأنبياء وحدهم بل الناس جميعاً، بلحاظ ذكر الأنبياء كأمة وجماعة وفرقة.

(١) سورة البقرة ٤٧.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

وتبين الآية موضوعية الكسب والعمل، وأن عمل الأنبياء خير محض، وكانوا يسارعون في الخيرات ويجاهدون في سبيل الله، فإن قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ بعث لأهل الكتاب بفعل الصالحات وإتباع الأنبياء من الآباء بسنتهم، وأختتمت الآية الكريمة بحث أهل الكتاب بالإلتفات إلى أعمالهم، وأنهم مسؤولون عنها، وعليها يجري حسابهم يوم القيامة، وليس على عمل الآباء من الأنبياء والصالحين، قال تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾^(١)، أي لا يحمل أحد ذنب غيره، (و قيل إن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم اتبعنا وعلينا وزرك إن كان خطأ فأنزل الله هذا)^(٢).

وتكررت مادة (كسب) في الآية مرتين، بلغة الغائب والخطاب، لبيان أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الكسب والعمل في الدنيا هو الذي يكون عليه الحساب يوم القيامة، وهو من عمومات الإنذار في الحياة الدنيا، وطرده الجهالة والغفلة عن الناس مجتمعين ومتفرقين بالقرآن لذا جاءت آياته بالحث على التدبر في آياته وما فيها من البينات، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٣).

التفسير الذاتي

وردت كلمات هذه الآية نفسها بعد سبع آيات، ثم لم ترد في القرآن كله، ولا يعني هذا التشابه في اللفظ التشابه والإتحاد في المعنى على نحو التمام، للفظ الآية بلحاظ السياق والنظم، ولغة الخطاب ومضامين الآيات التي سبقتها والآيات التي جاءت بعدها، وجاءت الآيات بالتحذير من إرتكاب

(١) سورة الأنعام ١٦٤.

(٢) مجمع البيان ٣/٣٩٢.

(٣) سورة محمد ٢٤.

الذنوب، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾^(١)، وجاءت مادة (كسب) في آيات عديدة وبصيغة الاسم والفعل الماضي والمضارع وأغلبها في ذم الكفار والظالمين وتحذيرهم من سوء عاقبته، ولا ينحصر عقاب الفعل القبيح في الآخرة، بل يشمل الحياة الدنيا، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢)، وقد وردت لفظ (يكسبون) أربع عشرة مرة، كلها في ذم أهل الجحود والشك.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: في القرآن توثيق لأخبار الأمم السابقة.

الثانية: ما كان الناس يعلمون قصص الأنبياء على النحو الصحيح والخالٍ من التحريف لولا نزول القرآن.

الثالثة: تمنع هذه الآية من التأويل الخاطئ والتحريف بخصوص الحساب، إذ أنها تبين القانون الذي يتقوم به الحساب، وهو أن كل إنسان له سعيه وتحصيله.

الرابعة: دعوة الناس للإيمان والعمل الصالح.

الخامسة: الترغيب بدخول الإسلام.

السادسة: ليس من مفر من الحساب، فلا ينجو أو يعص منه أحد من الناس من الأولين والآخرين، لمنع أهل الكتاب من الإتكال على عمل الآباء ومنزلتهم، ورجاء شفاعتهم، قال تعالى ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾^(٣).

السابعة: الشهادة للأنبياء وأولادهم الصليبين بأنهم أمة، ويفيد الجمع

(١) سورة النساء ١١١.

(٢) سورة الأنعام ١٢٩.

(٣) سورة البقرة ٤٨.

بين هذه الآية والآيات السابقة أنهم أمة في الخير.

الثامنة : إبتدأت الآية باسم الإشارة للبعيد (تلك) للدلالة على إنقراض زمان إبراهيم وأبنائه وأحفاده من زمان بعيد وجاء التأكيد والبيان بقوله تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ لبيان حقيقة وهي أن الشريعة الحاضرة هي شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ففي كل زمان لا بد من أمة مؤمنة تعبد الله بالكيفية التي يريد لها سبحانه، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، بتقدير يعبدوني بما اشاء وما أمر به، لذا جاءت آية البحث بالإلتفات إلى العمل بالتكاليف الحاضرة، وتلقي الأوامر والنواهي من التنزيل الذي تجلّى بالقرآن كتاباً خالداً إلى يوم القيامة.

التاسعة : لما جاء قوله تعالى ﴿قُفُّهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(٢)، جاءت هذه الآية لتعين موضوع السؤال وهو عمل الإنسان نفسه ، وليس عمل غيره من الآباء والأجداد .

التفسير

قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾

تلك: اسم إشارة للبعيد وتأتي للمفرد كما في قوله تعالى ﴿تِلْكَ إِذْكَرَ خَاسِرَةً﴾^(٣) وتأتي للجمع واغلب ما تستعمل للكثرة، بعد أن بينت الآيات السابقة فضل الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، جاءت هذه الآية لتخبر عن انقضاء ايامهم.

وقال الرازي: الآية دالة على بطلان التقليد لأن قوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة الصافات ٢٤.

(٣) سورة النازعات ١٢.

يدل على ان كسب كل أحد يختص به ولا ينتفع به غيره، ولو كان التقليد جائزاً لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع.

ولا يصح التقليد في الضروريات كوجوب الصلاة والصوم والزكاة وما يكون اعتقادها جزءاً بسبب الإحساس والإدراك او بسبب تصور طرفي الموضوع والمحمول كما في البديهيات والضروريات كمبادئ يترشح عنها اليقين والتصديق عند المطابقة، والظاهر أن الآية لا تتعلق باتخاذ التقليد طريقاً أولاً للوصول إلى إدراك الضروري كما ورد في صحة محاكاة إبراهيم الذي يدل عليه قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(١).

والتقليد ومحاكاة الثقة العارف في المقام افضل لهم اذ انه يعني التسليم والإقرار بالنبوة وبشارات ابراهيم والأنبياء الآخرين، وان كانت النبوة لا تصل إليه لتوالي الآيات الحسية والعقلية في الإسلام، فهو خير من الجحود عن إستقلال ورأي خاص، عند دوران الأمر والاختيار بينهما.

وفي فتح مكة قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأحد كبراء قريش: (إنطق بالشهادتين، فجاء بشهادة التوحيد وقال اما الأخرى ففي نفسي منها شيء، أي الشهادة له بالرسالة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: قلها وان كان في نفسك منها شيء.

أي ان توالي الايام وتعاقب الآيات يجعلك تدرك ضرورتها ووجوب الاقرار بنبوته.

وكما ان الآية دعوة للإقتداء بالأنبياء وسيرتهم فانها ايضاً لا تجعل تلك السيرة كل شيء في العمل العقائدي، وظاهر الآية يدل بالدلالة التضمنية على الدعوة للإسلام وأنه الناسخ للديانات السابقة، فهي تخبر عن إشراقة فجر جديد وعالم تنبثق به معالم ديانة متكاملة ويدل على هذا المعنى الذي

ذكرناه للأمة وهو الحال والشأن.

أي أن حال هؤلاء الأنبياء وأيامهم قد إنتهت وأن دينهم قد إنقضت أيامه، وإن الله عز وجل تفضل بما هو أكمل وأتم، وقد أكدوا في وصاياهم أن الاسلام باق وأن ديانة التوحيد ثابتة في الأرض، والقرآن هو الشاهد والبرهان، وفيه إعجاز فلو لم يكن القرآن هو الأتم لما أخبر عن إنقضاء تلك الحال من غير برزخية أو توقف أو تردد.

والتعبير والوصف بالأمة لهؤلاء الأنبياء نوع إكرام وثناء لهم وأنهم كانوا على جادة الخير، وفي الآية حث على إتباع نهجهم ونيل أسباب إكرامهم، وعلى المعنى الآخر للأمة وهو غضارة العيش والنعمة فإن الآية تقرر السعة والدعة بالإيمان وتندر بفقدان النعم عند الإصرار على الكفر والجحود، وفيها حث وترغيب لهم في الإسلام.

وتشمل لغة الخطاب في الآيات السابقة والآيات المتقدمة بعرض واحد المعدوم مع الموجود من بني إسرائيل ولم تخبر عن إنقضاء حالهم، بينما أخبرت هذه الآية عن انقضاء حال وبداية حال جديد وهو الاسلام ونزول القرآن، مما يرجح معنى ودلالة خاصة وهي ان مفاهيم الإيمان باقية وإن إنقطعت النبوة، وإن الشر والكفر لا زال موجوداً فملة الكفر واحدة.

والظاهر أن الأنبياء ذكروا من باب المثال الأفضل والأتم وأن أتباعهم ملحقون بهم، ترى هل هم غير موجودين أيام البعثة النبوية، الجواب: انهم موجودون ولكن ليس على نحو الكثرة وقد بادروا إلى الإسلام كما في شواهد تاريخية عديدة وأسماء تضم كبراء من بني إسرائيل وقريش وغيرهم فخرجوا من موضوع الخطاب بالتخصص او اصبح يشملهم في مفهومه.

وعلى القول بان الأمة هي الدين وهذا الأنسب في المقام والتفسير والسياق، فإن الآية تتعلق بنسخ الشرائع، لقد حصر المفسرون موضوع الآية بدم الذين لم ينتفعوا من عمل الآباء ولكن الأهم هو ما في الآية من الدعوة الى الإسلام والحجة على بقاء الإسلام شريعة ومنهاجاً، وعلى القول بتفسير

القرآن للقرآن فمن تفسير هذه الآية قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١).

نعم الخطاب في هذه الآية خاص في منطوقه الا انه عام في دلالته ومفهومه ومن باب الأولوية إذ أن الديانات والمذاهب الأخرى الوثنية والسابقة لإبراهيم تدخل من باب أولى في مفهوم الآية، وعند استحضار قوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢) نعلم أن الأنبياء السابقين كانوا على الإسلام ولا تعارض بينهما فاما أن إسلامهم بمعنى الإتيان والإقبال لأوامره تعالى، أو أنهم كانوا على الإسلام والإيمان بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أو كلاهما معاً، وأن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتماً وسيداً للأنبياء والرسل أهم مصاديق الإيمان وهو الأرجح لذا قال تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾^(٣)، في جواب على قول القائل لم يكن القرآن نازلاً آنذاك وليس من دعوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد.

أي ان الآية تبين الفارق بين الإثنين، فبينهما عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء بين الآباء الأنبياء وبين عموم بني اسرائيل هو وجوب الإسلام، ومادة الإفتراق هي حيثيات الإسلام وخصوصية الدعوة المحمدية أيام النزول، وبلحاظ الإيمان تكون النسبة بين المؤمن والجاحد منهم هي التباين والتنافي.

الظاهر ان الآية تخبر عن عدم كفاية وقوفهم عند الإيمان بما جاء به أبائهم من الأنبياء، ولا ينحصر موضوعها بدم اتخاذ التفاخر بالأبوة مانعاً

(١) سورة آل عمران ٨٥.

(٢) سورة آل عمران ١٩.

(٣) سورة البقرة ١٣٤.

دون الهداية، بل تخبر عن عدم نجاة الأبناء اذ اكتفوا بالتباهي بايمان الآباء ونبوتهم من غير ان يأتوا بمضامين وافراد الوصية التي أوصى بها الأنبياء كما في قوله تعالى ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾^(١).

وقيدنا الآباء بالأنبياء لإخراج الذين عبدوا العجل من بني اسرائيل وهؤلاء كانوا أشد على موسى وأكثر عناداً ومعصية، الا ان الله عز وجل أنعم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمهاجرين والأنصار عوناً ومادة وسلاحاً، أي ان الإسلام كان غنياً عنهم فجاءهم على نحو الدعوة الغيرية وليس الذاتية، بما قامت الحجة عليهم وبما أظهروه من العقائد الخبيثة والشكوك والأوهام والإدعاء الباطل، وفيه فضل من الله تعالى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يحصر الله عز وجل الفضل بأهل الكتاب، وما جاء من بعضهم خلاف المرجو المتوقع وصيغ الشكر.

إن قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ دعوة للرجوع إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنع من الصدود عن القرآن والأحكام التي جاء بها، وقد بعثه الله عز وجل على فترة من الرسل، فبعد إنتقضاء أيام الأنبياء السابقين أطلت على الأرض شمس الإسلام، لتأتي هذه الآية بالإخبار ثم الإنذار والوعيد.

ويفيد الجمع بين مضامين الآية الدعوة للإسلام، فالمسلمون هم الأمة التي لم تنقض أيامها، وأحكام الإسلام تبقى حية إلى يوم القيامة وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، بثبات المسلمين على ملة إبراهيم، وفيه دعوة للناس لكسب الصالحات.

بعد أن أنعم الله على إبراهيم بمرتبة الإمامة، وسأله أن تكون في ذريته

(١) الآية ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

وجاء الجواب من عند الله عز وجل بالإستجابة على نحو الموجبة الجزئية بقوله تعالى ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١)، ولم تبين الآية أعلاه عدد الأئمة من ذرية إبراهيم ومدة الإمامة والإسلام وأجيالهم، فتوجه بالدعاء لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يستمر الإمامة في ذريته، فهناك ملازمة بين الآية أعلاه ورفع إبراهيم قواعد البيت الحرام ودعوته الناس للحج، ودعائه لبعثة محمد ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾^(٢).

جاءت آية البحث لتبين أموراً:

الأول : ذكر مصداق لإستجابة الله عز وجل في ذرية إبراهيم تتجلى في يعقوب وحرصه على وصية أبنائه بالإيمان، وإستجابة وعهد أبنائه له بعبادة الله والنبد التام للشرك وأسباب الضلالة.

الثاني : تجلي الإمامة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو الرسول والإمام وهو دعوة إبراهيم كما جاء في الآيات السابقة ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾^(٣)، وبلحاظ دعاء الإمامة يريد إبراهيم إستمرار الإمامة وبقاء ذريته على التوحيد والإنقياد لأمر الله عز وجل برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإتباع الناس له، خصوصاً وأن آية الإمامة وجواب الله عز وجل لم يبين عدد الأئمة من ولده ومدة بقاء الإمام وإحتمال إستمرارها أو إنقراضها، فتوجه بالدعاء للمسلمين عامة، وجاءت آية البحث والعمل الصالح وليس بالتفاخر بالإنسان وذكر فعل الآباء من المؤمنين، ويحتمل الخطاب في الآية ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ وجوهاً:

الأول : إرادة المسلمين.

(١) سورة البقرة ١٢٤.

(٢) سورة البقرة ١٢٩.

(٣) سورة البقرة ١٢٩.

الثاني : المراد ذرية يعقوب وأولاده.

الثالث : المعنى الأعم وإرادة المسلمين وأهل الكتاب والناس جميعاً، حتى على القول بأن نظم الآية الحادية والأربعين بعد المائة التي جاءت بذات ألفاظ هذه الآية هو خطاب لأهل الكتاب.

والصحيح هو الثالث، لأن الآية قانون كلي في التكاليف وماهية الحياة كدار إختبار وعمل بلا حساب ، وأن الحساب في الآخرة حيث إمتناع وتعذر العمل.

وجاءت الآية السابقة بصيغة الخطاب (ام كنتم شهداء) ومن الإعجاز أن الآيات التي قبلها جاءت متتابعة بصيغة الجملة الخبرية والموضوع المستقل التي بدأت قبل عشر آيات ﴿وَإِذْ أَبْلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾^(١).

وهل يحتمل إرادة المتعدد والمتباين في لغة الخطاب في الآية كما لو قيل (ولكم ما كسبتم) يراد منه ذراري يعقوب (ولا تسئلون) يراد منه المسلمون .

الجواب لا، ولو دار الأمر بين إرادة الأعم والأخص في الخطاب القرآني ، فالصحيح هو الأول لعموم الفائدة، ولأن الآية في مقام الموعظة والإصلاح والزجر عما هو محرم.

قوله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾

جاء هذا الشطر من الآية قانوناً من الإرادة التكوينية، وبيان موضوعية الأعمال في الجزاء والثواب والعقاب، وتقطع الآية الأمل بالفوز بالشفاعة والمقام المحمود بعمل وكسب الآباء من الأنبياء والصالحين فأنهم يفوزون بالثواب العظيم لحسن عملهم، ولما تركوه من الوصايا وما أخذوه من العهود على أبنائهم بتعاهد التوحيد وسنن الإيمان، والآية إنحلالية لأن المراد أن كل

مكلف له ما كسب، قال تعالى ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

وفي الآية ترغيب بالإيمان والعمل الصالح، والسعي في دروب الخير إقتداء بالأنبياء، وتفتح الآية باب التوبة والإنابة للحاق بالصالحين، لأن الكسب موضوع متجدد، فالآية وأن جاءت بصيغة الفعل الماضي إلا أنها تدل على عموم وإستمرار الفعل، والإشارة إلى اليوم الآخر وأنه يتعلق بالكسب الدنيا.

لقد جحدوا بنزول القرآن وهو لم يأت إلا لإنذارهم ووعظهم وهدايتهم بأبهى معاني اللطف وأسباب الرحمة، وهو من الشواهد على صدق نزوله من عند الله إذ أنه يذكرهم بآبائهم من الأنبياء، ويدعوهم لواجباتهم ووظائفهم، مع بعث الخوف في نفوسهم من أهوال الحساب التي هي أمر حتم، وتصاحبهم هذه الآية في منتدياتهم وبيوتهم، وتكون حاضرة في الوجود الذهني عند الفعل والكسب، مع إدراك أنه لهم أن كان خيراً، وعليهم إن كان شراً.

وفيه تحذير لأهل الكتاب من إعانة المشركين والكفار ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وكان كفار قريش يسعون لجذب يهود المدينة إلى جانبهم، ويحرضون النجاشي وملك الروم ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفداً أبطل الله مكرهم وكيدهم، وتدل الآية على أن الله عز وجل عدل، ومنزه عن الظلم والجور، فلا يؤخذ إنساناً بفعل غيره، ولا يأتي له غير ما عمله وكسبه في الحياة الدنيا من خير وشر.

قوله تعالى ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

من إعجاز القرآن وكنوزه خواتم الآيات، وأن تلك الخاتمة غالباً ما تصلح أن تكون قاعدة أو ضابطة كلية وموعظة وإنذاراً عاماً يستوعب الأفراد ونحن إلى الآن لم نستظهر ما فيها من الذخائر والدروس والمواعظ.

ولا بأس بتأسيس علم جديد يسمى "خواتيم الآيات" وتتفرع عنه عدة مدارس وابحاث متعددة.

وظاهر الآية أعلاه الفصل والتمييز بين الفريقين المخاطب والمقصود الغائب، وأن المخاطب لا يؤاخذ بجريرة غيره، ولا يوجه بعضهم لوماً إلى آبائهم، أم أن الآية تتصدى للقياس مع الفارق عندهم باتخاذ بعضهم ذريعة لعدم دخول الإسلام واستحضار ما يبرر فعلهم من الأقوال والظنون غير المعتمدة عن الأنبياء.

الأقوى هو الثاني فالقرآن يجعلهم مجردين الا من العمل وهو الحق، ومفهوم الآية معتبر هنا، أي ان السؤال والحساب والجزاء يكون على عملكم انتم لا على عملهم، فالإنسان لا يؤاخذ بفعل غيره ولا يتنفع منه، والخطاب لم يوجه لخصوص اهل الكتاب الموجودين أيام التنزيل فهو للأعم ويشمل كل من يلوذ بغيره من الآباء ونحوهم سواء كانوا في زمن التنزيل او فيما بعد. وقيل في الآية: ولا يقال لكم لم عملوا كذا وكذا على جهة المطالبة لكم بما يلزمهم من اجل اعمالهم^(١).

وهو أول الكلام ولكن لوجود قاعدة كلية وهي أن الأنبياء معصومون، والآيات تذكرهم على نحو المدح والإطراء بل بالقرينة المقالية المنصرمة قبل آيتين، اذن لابد من حمل الكلام على خلاف هذا الظاهر، وليس مطلقاً.

فقد يكون الظاهر متعدداً ينقسم الى ظاهر وواظهر، والأخير مقدم على الظاهر، ولعلها تعني انكم تستلون عن الآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما كان يفعله في دعوته للإسلام وجحودكم لتلك الدعوة أي أن السؤال هنا ليس للحساب فقط فهو أعم لإتمام الحجة بفعل الغير وما بذله من أجل صلاحكم ونجاتكم وبالربط بين الإثنين فانكم لم تكونوا شهداء عندهم والقرآن يخبركم بحالهم فأنتم شهداء نزول القرآن

وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١).

وتعطي الآية الأولوية للأهم، كما في باب المزاحمة، وتقديم الأهم على المهم ففيها منع لتهربهم من مواجهة هذه الحقيقة السماوية وهي بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وتشير الى حقيقة عقائدية وهي أن الإيمان برسائله واجب، مما يدل بالدلالة الإلزامية على أن الآية تكشف عن إبتاعهم الهوى والإمتناع عن الإستجابة لدخول الإسلام تستراً بالنسبة والإلتواء للأنبياء من الآباء، وتخبر بأن تلك النسبة والإجهار بها لن يكونا سبباً للإمتناع عن دخول الإسلام.

وتدل الآية في مفهومها على أن الأنبياء والصالحين من الآباء لا يسئلون عن فعل الأبناء لأنهم أدوا واجبهم بعبادة الله وبالوصية بالتوحيد ووجوب الإنقياد لأوامره تعالى كما تدل عليه الآية السابقة، فكما يجب على المكلف ألا يقف عند التفاخر بالآباء وعظيم منزلتهم عند الله، بل لابد من الإيمان وعمل الصالحات والتزود إلى يوم الحساب، فكذا يجب أن لا يلقي المكلف اللوم على آبائه في تقصيره وإرتكابه للمعاصي، قال تعالى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٢).

بحث إعجازي

يقسم اللفظ بملاحظة حاله إلى أقسام:

الأول: يكون قبل الوضع مهملاً.

الثاني: هو بعد الوضع موضوع إلى الذي وضع له أصلاً حقيقة في

الإسناد.

(١) سورة النمل ٧٦.

(٢) سورة النجم ٣٩.

الثالث: جعله إلى غير ما وضع له مجازاً في الإسناد.

الرابع: إذا كان له معنى جزئي متشخص فهو علم شخص.

الخامس: بلحاظ انه طبيعي كلي فهو اسم جنس وهو الذي لا يختص بفرد دون آخر من جنسه مثل: امرأة، يوم، ولوضعه لعدة معاني واوضاع مشترك لفظي، ولإنطباقه على كثيرين مشترك معنوي.

السادس: إذا اشترك عدد من الألفاظ لإفادة معنى واحد فهو مترادف.

السابع: عند نقله من معناه الحقيقي الى معنى آخر فهو منقول.

الثامن: عند التعدد في احتمال حال اللفظ او جهل أمره او التردد بين عدة وجوه من الشك في اصل الوضع وكيفيته وانصرافه فهو مجمل، او يرجع الى الأصل كما لو شك بين الحقيقة والمجاز.

ووضع الأصوليون قواعد عقلية للترجيح لا تصلح لتكون كلية في كثير من علوم الآيات القرآنية لعجزها عن الإحاطة بأسرار الآيات، ومن إعجاز القرآن إمكان حمل اللفظ القرآني على عدة وجوه وإحتمالات وقد يكون الحمل حاجة وضرورة وهذا الأمر يفتح أبواباً جديدة من العلم، تتعب العلماء و الباحثين من غير أن تفسى او تنفذ او تنقطع خزائن القرآن، فلا تصل النوبة في القرآن للترجيح وقواعده او للإستحسانات العقلية الصحيحة أو الباطلة، أو الصحيحة على نحو الموجبة الجزئية لتعدد وجوه اللفظ وإستعماله في القرآن، أي أن التعدد وارد في إرادة اللفظ ولكن كل مصداق منه يحتاج إلى دليل وحجة من اللغة أو القرآن أو السنة في تأويله وتفسيره والإنتفاع الأمثل منه.

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية ١٣٥.

الإعراب واللغة

الواو في وقالوا: استئنافية عاطفة، كونوا هودا: كان وإسمها وخبرها، والجملة في محل نصب مقول القول.

أو: حرف عطف.

نصارى: عطف على هودا.

تهتدوا: فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للطلب، قل: فعل أمر، بل: حرف إضراب وعطف.

ملة: مفعول به لفعل محذوف أي تتبع.

إبراهيم: مضاف إليه، حنيفاً: حال من إبراهيم، (وما) الواو: عاطفة، ما: نافية.

كان: فعل ماضٍ ناقص، وإسمها ضمير مستتر تقديره هو.

من المشركين: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها.

والمراد من (هوداً) كونوا يهوداً، فحذفت الياء الزائدة، وقيل ان اليهود تنسب الى يهود بن يعقوب على قسمين يهود، وهود أي بالإنساب له، واليهود قوم موسى، وهو اسم لا ينصرف للعلمية والتأنيث الذي يراد منه معنى القبيلة، واليهود في العرف التوبة يقال هاد يهود هوداً اذا تاب ورجع الى الحق.

وعن الصادق عليه السلام: سمي قوم موسى اليهود لقوله

تعالى ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾^(١) ^(٢).

قال ابن دريد : الحنيف العادل عن دين إلى دين ، وبه سميت الحنيفية لأنها مالت عن اليهودية و النصرانية^(٣)، ولكن إبراهيم كان حنيفاً قبل أن تكون اليهودية والنصرانية، وهو لم يحل من دين إلى دين، بل حارب الكفر والشرك ابتداء وقد أختتمت هذه الآية بقوله تعالى بخصوص إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤)، في دلالة على تغشي العصمة من الكفر لأيام حياته كلها.

في سياق الآيات

جاءت هذه الآية لتخبر وتوثق دعوتهم للمسلمين بالإلتحاق بهم في التهود أو التنصر، وبما ان الآية في معرض الذم لهذه الدعوة فان قولهم هذا وتوثيقه هنا وتفقّه المسلمين جاء للإعتبار وهو مادة للإحتجاج، ويدل على ذلك ايضاً الواو في ﴿وَقَالُوا﴾ لبيان وحدة الموضوع واتحاد النظم.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بينها وبين الآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (وقالت اليهود)^(٥)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأول: إنكار أهل الملل فيما بينهم ، كما جاء في الآية أعلاه يدل على أن

المراد بقوله تعالى في هذه الآية ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي أن اليهود لن يرضوا إلا أن تكون يهودياً، وكذا النصارى لا يرضون إلا بأن يكون النبي محمد صلى

(١) سورة الاعراف ١٥٦.

(٢) بحار الأنوار ٥٣/٥ .

(٣) مجمع البيان ١ / ٢١٥.

(٤) سورة النحل ١٢٣.

(٥) الآية ١١٣.

الله عليه وآله وسلم نصرانياً.

الثانية: الأصل أن تكون تلاوة أهل الكتاب للكتاب مقدمة ووسيلة للعمل بملة إبراهيم، وإتباع نهجه.

الثالثة: الأصل أن تكون تلاوة الكتاب برزخاً ومانعاً من إتباع الهوى، ودعوة النبي لليهودية والنصرانية من إتباع الهوى، والإعراض عن البشارات التي جاءت في الكتب السماوية السابقة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولزوم التصديق به وإتباعه ونصرته.

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين بعث اليأس في نفوس أهل الكتاب من إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم، لأنه جاء بالحنيفية السمحاء، والشريعة الناسخة.

الخامسة: تظهر الآية أعلاه الخلاف بين أهل الكتاب، ولكن هذه الآية تبين إتفاقهم الإجمالي على إرادة الصدود عن الدعوة للإسلام، إذ أنهم لا يرضون إلا بإتباع ملتهم التي تعني في مفهومها، ترك دعوتهم للإسلام، والعمل بالفرائض والواجبات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله وهي من مصاديق العلم اللدني والتنزيل الذي ورد في قوله تعالى ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾^(١).

السادسة: يجب أن تكون تلاوة التوراة والإنجيل نوع طريقية للتصديق ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما فيها من الإخبار عن بعثته.

السابعة: التحذير من المشركين الذين ذكرتهم الآية أعلاه ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا

يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، وفضح أهوائهم وضلالتهم وصدودهم عن التنزيل.

الثاني: الصلى بين آية (وإذ يرفع)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

(١) سورة البقرة ١٢٠.

(٢) الآية ١٢٧.

الأولى: تذكير أهل الكتاب بأن من ملة إبراهيم حج البيت الحرام ، ومن الإعجاز في المقام ورود التكليف بالحج على نحو العموم وأنه زلفة وقربة إلى الله ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾^(١).

الثانية: بيان جهاد إبراهيم والأنبياء السابقين لتثبيت أركان الدين.

الثالثة: أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ، ويفيد الجمع بينها وبين هذه الآية التحذير من القول الذي يتعارض مع ملة إبراهيم وسنن التوحيد.

الرابعة: تؤكد خاتمتا الآيتين على لزوم نبذ الشرك والضلالة.

الثالث: الصلة بين آية (أمة مسلمة)^(٢) ، وبين هذه الآية ، وفيها مسائل:

الأولى: حث أهل الكتاب على التوجه إلى الله بالدعاء ، وسؤال الهداية إلى الوظائف العبادية.

الثانية: لقد جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالمناسك التي أداها إبراهيم وإسماعيل فيجب إتياعه وليس دعوته إلى اليهودية والنصرانية.

الثالثة: دعوة أهل الكتاب إلى التوبة والإنابة.

الرابع: الصلة بين آية (ربنا وإبعث)^(٣) ، وبين هذه الآية ، وفيها مسائل:

الأولى: ان النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول من عند الله ، والرسول هو الذي يأتي بشريعة مبتدأة ، فلا يصح أن يتبع الأنبياء السابقين.

الثانية: جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالحكمة والآيات من عند الله ، وفيه دعوة للناس جميعاً للنهل منها والتدبر في معانيها ، أما القول بإتياعه لملتهم فهو نوع إعراض عن هذه الآيات ، وتضييع للإنتفاع الشخصي

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) الآية ١٢٨ .

(٣) الآية ١٢٩ .

منها.

الثالثة: في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تطهير للنفوس والأحكام التي جاء بها لإصلاح للمجتمعات لقوله تعالى (ويزكيهم)، وفيه ترغيب لأهل الكتاب والناس بالإيمان بنبوته والكف عن محاربته وصد الناس عنه.

الرابعة: لقد دخل المسلمون الإسلام، بعد رؤية المعجزات، وإمتلأت نفوسهم بالإيمان، وجاءت الدعوة لهم ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ في غير محلها.

الخامس: الصلة بين آية (ومن يرغب) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل: الأولى: من إعجاز القرآن لغة الإحتجاج فيه، وجعلت الآيتان ملة إبراهيم هي الفيصل والشاهد على الإيمان.

الثانية: ذم الذين يهجرون ملة إبراهيم، ويعرضون عن أحكام الخيفية والإستقامة في الدين.

الثالثة: التحذير من السفه وخفة العقل ومقدمات ترك شريعة التوحيد وسنة إبراهيم.

الرابعة: ترغيب الناس بالتصديق ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما فيها من العز والرفعة في الدنيا، فلم تمر الأيام والسنين على بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى حقق المسلمون الإنتصارات وهزموا جيوش الكفر، وفي السنة الثامنة للهجرة تم فتح مكة.

الخامسة: من ملة اليهود والنصارى الإقرار باليوم الآخر وعالم الحساب، وجاءت هذه الآية للتذكير بأن إتباع ملة إبراهيم والتصديق بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم طريق النجاة يوم القيامة.

السادس: الصلة بين آية (أسلم) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

(١) الآية ١٣١.

(٢) الآية ١٣١.

الأولى: كان إبراهيم عليه السلام مسلماً.

الثانية: جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإسلام والإنقياد لأوامر الله عز وجل.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين الثناء على المسلمين لإعراضهم عن أسباب الصدود عن ملة إبراهيم ودعوتهم لهم يترك الإسلام، والصبر في جنب الله، ورفض الإغراءات والوعود في هذا الباب.

الرابعة: من حنيفة إبراهيم إسلامه وإنقياده لأوامر الله عز وجل.

السابع: الصلة بين آية (ووصى بها) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين الحجة بأن الأنبياء السابقين دعوا إلى الحنيفة، وهي ذاتها التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: الدعوة للرجوع إلى الحنيفة والإستقامة التي تتجلى ببعثة النبي محمد وتصديقه، ومن الآيات أن الإسلام أقر وإعترف بنبو موسى وعيسى عليهما السلام، وجاءت آيات القرآن بالإخبار عن صدق نبوتهما، واجتهد المسلمون بثبوت الدعوة للتصديق بهما، كما يتجلى في الآية التالية.

الثالثة: لزوم الموت على الإسلام وعدم مغادرة منازل الإنقياد إلى أوامر الله عز وجل.

الثامن: الصلة بين آية (أم كنتم شهداء) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: الإخبار بأن القرآن جاء بعلوم الغيب، وقصص الأنبياء، وفيه دعوة للجوء إليه، والصدور عنه.

الثانية: لقد وصى يعقوب بنيه بالتوحيد، وأن الهداية والرشاد فيه، وبه جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) الآية ١٣٢.

(٢) الآية ١٣٣.

الثالثة: ليس في الإسلام إلا عبادة الله، وهو النص والمضمون لوصية يعقوب، وعهد أبنائه من الأسباط.

الرابعة: الإسلام هو دين الأنبياء السابقين، وهو الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

التاسع: الصلة بين الآية السابقة (تلك أمة)^(١)، وبين هذه الآية:

الأولى: جاءت الآية السابقة بقوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، وجاءت هذه الآية بالأمر بإتباع ملة إبراهيم، مما يدل على أن الإنقضاء يتعلق بإنصراف الزمان، ومغادرة الأنبياء إلى الرفيق الأعلى، أما الأحكام التي جاءوا بها فهي باقية، ويتجلى هذا البقاء ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهي التي تبين للناس الناسخ والمنسوخ في الشرائع، وهو من مصاديق تفضيله.

الثانية: ما جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله هو الشريعة الباقية إلى يوم القيامة.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين إصلاح المسلمين للإحتجاج، والعصمة من الدعوة للإرتداد وترك الإسلام، خصوصاً وأن الإسلام كان في أيامه الأولى، وتأتي أسباب الشك والريب من هنا وهناك، ويزحف المشركون على نواة الدولة الإسلامية.

الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه :

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (قولوا آمنا)^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت هذه الآية بقولين:

الأول: قول لفريق من أهل الكتاب.

الثاني: قول للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من عند الله عز

(١) الآية ١٣٤.

(٢) الآية ١٣٦.

وجل (قل).

وجاءت الآية التالية بالأمر للمسلمين (قولوا)، مع إتحاد الموضوع في الآيتين.

الثانية: إرشاد المسلمين للرد على القول الأول.

الثالثة: تأكيد ثبات المسلمين في منازل الإيمان.

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين أموراً:

الأول: الأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلن أنه على ملة إبراهيم، ويدل على أن المسلمين أتباع إبراهيم عليه السلام في طريقته وشريعته، وهي وفق القياس الإقتراني:
الكبرى: ما كان عليه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويتوارثه ويكون عليه المسلمون.

الصغرى: النبي على ملة إبراهيم.

النتيجة: المسلمون على ملة إبراهيم.

الثاني: جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمبادئ التوحيد، وهو حجة في لزوم تصديقه، قال تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١).

الثالث: إعلان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه على ملة إبراهيم دعوة للمسلمين لقبولها وتعاهدها والتصديق بالأنبياء السابقين.

الرابع: الأمر الإلهي للمسلمين بإعلان الإيمان بالله.

الخامس: تسليم وتصديق المسلمين بالكتب السماوية المنزلة.

السادس: تأكيد إنقياد المسلمين لله عز وجل، وأختتمت هذه الآية بقول للمسلمين هو ذات القول الذي جاء قبل آيتين حكاية على الأسباط(ونحن له مسلمون)^(٢).

(١) سورة الأنعام ١٤٩.

(٢) الآية ١٣٣.

الخامسة: جاءت الآية التالية رداً وإبطالاً لدعوى حصر الهداية باليهود والتتصر.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (فإن آمنوا)^(١)، وفيها مسائل:
الأولى: بيان التباين بين دعوى فريق من أهل الكتاب وبين الإيمان.
الثانية: تأكيد صدق إختيار المسلمين، وفوز الذين إلتبعوا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: دعوة المسلمين للثبات في منزل الهداية والإيمان.
الرابعة: حث أهل الكتاب للإيمان بنزول القرآن من عند الله والتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإتباع نهج المسلمين في الإيمان بالله والتنزيل والتصديق بالأنبياء على نحو العموم الإستغراقي.
الخامسة: دعوة المسلمين للصبر على صدور أهل الكتاب عن نبوة محمد، وفيه أمن وسلامة للمسلمين من الكيد، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾^(٢).

الخامسة: الجمع بين الآيتين من إعجاز القرآن ونظم الآيات، فذكرت هذه الآية قول فريق من أهل الكتاب بملازمة الهداية للثبات، وجاءت آية (فإن آمنوا)، ببيان الهداية وطريقها وإنحصار إحرازها بالإيمان بما آمن به المسلمون، بقوله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾، وإبتدأت الآية بالجملة الشرطية لتكون على وجوه:

الأولى: الحجة والبرهان في لزوم الإيمان .
الثانية: الترغيب بالإسلام.
الثالثة: حث الناس ودعوتهم للكف عن الشك والريب في نبوة محمد

(١) الآية ١٣٧.

(٢) سورة آل عمران ١٢١.

صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة: بعث اليأس في نفس من يريد إرتداد جماعة من المسلمين.
فإن قلت هناك من هو حديث العهد بالإسلام وهناك المنافقون، وقد يتأثرون بترغيب وإغراء أهل الكتاب خصوصاً وأن رأس النفاق عبد الله بن أبي سلول رجع بثلاثمائة منهم في الطريق إلى معركة أحد وهو يقول (ما ندري علام نقاتل أنفسنا ها هنا أيها الناس)^(١).

والجواب من وجوه:

الأول: جاءت هذه الآية لتقوية إيمان المسلمين مطلقاً، فمن كانت قدمه راسخة في الإيمان فإن هذه الآية تزيد إيماناً، ومن كان حديث أو ضعيف الإيمان فهذه الآية تساعد في تفقهه في الدين، وتعصمه من الإنصات لأسباب الشك والريب وتزيده إيماناً، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

الثاني: هذه الآية حرب على النفاق، وتزويه لنفوس المسلمين منه، فتجد أحدهم يتخلص من النفاق ببركة هذه الآيات على نحو دفعي أو تدريجي سواء علم بهذه النعمة والسلامة أو لم يعلم، أو علم بها ولكنه لم يلتفت إلى تعيين السبب الخاص للتخلص من النفاق ، لأن كل آية من القرآن حرب على النفاق ودعوة لنبذه.

الثالث: الإيمان بالله هو أصل أصول الدين وهو الجامع المشترك بين ملل التوحيد، وجاءت الآية بالإخبار عن حمل المسلمين للوائه، ودعوتهم أهل الكتاب للتسليم بصحة نهجهم في إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) السيرة النبوية ٦٤/٢.

(٢) سورة البقرة ٢.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (صبغة الله) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: إن المسلمين على دين الله، فهم مهتدون.

الثانية: المصداق العملي للهداية هو عبادة الله، والمسلمون منقطعون إلى الله عز وجل بأدائهم الفرائض.

الثالثة: إتباع ملة إبراهيم من صبغة الله، لذا تلقاها المسلمون بالقبول والرضا.

الرابع: الصلة بين هذه الآية وآية (قل أتحاجوننا) ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: إلتقاء الآيتين في الخطاب الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل)، وتوجه القول إلى أهل الكتاب بالأصالة، وإلى غيرهم من أهل الملل والنحل التبعية.

الثانية: بيان ثبات المسلمين على دينهم.

الثالثة: الأصل هو عدم الجدل والخلاف في علم التوحيد لوجوب عبادة الله عز وجل.

الرابعة: كما جاءت الآية السابقة بالإخبار عن الجزاء على العمل الشخصي، وليس عمل الآباء السابقين، جاءت هذه الآية لذكر التباين وتبعية الجزاء لعمل الأفراد وكل ملة على حدة.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين منع إرتقاء الجدل مع أهل الكتاب إلى الخصومة والإقتال، مع إقتران هذا المنع بإعلان المسلمين أنهم على الحق والهدى وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ^(٣).

(١) الآية ١٣٨.

(٢) الآية ١٣٩.

(٣) سورة النحل ١٢٥.

إعجاز الآية

من إعجاز هذه الآية ابطال ما ادعوه من الملازمة بين ملتهم وبين الهداية والدعوة الى الرد عليهم واجابتهم بالحجة والبينة، ومنه انها حرز عقائدي. وتبين الآية وخصوصية لمقام إبراهيم وإمامته للناس، وهو أن الله عز وجل يرد على دعاء إبراهيم بالإستجابة بلغة الإطلاق والتقييد، إذ جاء تقييد الرزق من الثمرات بالإيمان بالله واليوم الآخر، مع الإنذار والوعيد للكفار، وعدم وجود برزخ بين الجنة والنار، فيفوز أهل الإيمان بالخلود في النعيم، ويلقى الكفار العذاب الأليم في النار.

ومن وجوه إعجاز الآية أنها تدل بالدلالة الإلتزامية على مدح المسلمين والثناء عليهم لإعراضهم عن دعوة اليهود والنصارى لملتهم، وفيه شاهد على أعراض المسلمين عن دعوة الكفار والمشركين بالإرتداد عن الإسلام من باب الأولوية القطعية، فإذا كان المسلمون متمسكين بمبادئ وفرائض الإسلام بفخر وعز، وينفرون من دعوة أهل الكتاب فإنهم ينفرون ويعرضون عن دعوة المشركين بالأولوية ومفهوم الموافقة.

ومن إعجاز الآية أنها واقية متقدمة زماناً للذين يريدون دخول الإسلام أو أنهم سيدخلونه وكذا أبناء الصحابة إذ تتضمن قول أهل الكتاب وإبطاله بلغة البرهان والدليل، وليس من دمين أو شريعة تتضمن الواقية السماوية والعصمة من تركه للذين يريدون دخوله كما في الإسلام وآيات القرآن، وكأن الآية تقول للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إن وظائف النبوة لا تنحصر بالتبليغ وحفظ إسلام الصحابة بل تتضمن حفظ إسلام الذين سيدخلون الإسلام، وفيها ثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قام بالتبليغ وجاهد بنفسه لتثبيت أركان الإسلام، ومن مصاديق التوقي والإحتراز العقائدي في الآية الكريمة تلاوة المسلمين لها في الصلاة اليومية والتدبر في دلالاتها، وسماع أهل الكتاب وغيرهم لها.

ومع مجيء الآية في رد الجدال وإبطال دعوتهم إلى ملتهم فأنها تضمنت نفي الشرك ولزوم التبرء منه لأنه أم الكبائر وفيه توبيخ للكفار والمشركين ودعوة لهم إلى التوحيد ونبد عبادة الأصنام والطواغيت فمن إعجاز الآية القرآنية أنها تأتي في ذم قوم وتشمل غيرهم ممن يلتقي معهم في العناد والجحود والإستكبار قال تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾^(١).

ليكون في الآية أعلاه تحذير لكفار قريش من الشرك والضلالة ودعوتهم للرجوع إلى ملة إبراهيم التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ضمن الشريعة المتكاملة التي جعلها الله خاتمة الرسالات قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (وقالوا كونوا) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة.

الآية سلاح

في الآية تثبيت لقلوب المسلمين وتحصين لها من شبهات أهل الكتاب وهم الأكثر تأثيراً وخطورة من غيرهم لما عندهم من ميراث النبوة وإدعاء إتباعهم للأنبياء فقد يستطيع المسلمون ان يردوا على شبهات الكافرين دون عناء، ولكن أهل الكتاب يتصفون بالانتماء إلى الأنبياء في الجملة وإعتاد الناس هذه النسبة وان كانت مبتورة بالتحريف، فهم من أهل الخبرة وظاهرهم الدراية مما جعل جحودهم وعنادهم وعداوتهم اشد وطأة، وفي الآية نقض وإبرام، فكما ان الآية تعين المسلمين في الإحتجاج فانها تحدد

(١) سورة الحج ٢٥.

(٢) سورة المائدة ٣.

معالم الإيمان حصراً بملة ابراهيم وقد تقدم الكلام انها الإسلام.
والآية سلاح وقائي ورد لهجوم عقائدي على المسلمين يتمثل بالدعوة
الى ملة سماوية اخرى سابقة مع الترغيب بها وإدعاء الملازمة بينها وبين
الهداية.

والهداية هي الغاية في دخول الإسلام فاذا جردناها من غايته أصبحت
لا فائدة منها، فينتفي عنوان الهداية عنها لأن الحكم والوصف يتبع الموضوع
فاذا تغير الموضوع تبدل الحكم، فأثر الآية وموضوعها يستبين قدره بخطورة
تلك الدعوة وما فيها من محاولة الالتفاف على الإسلام.

بحث أصولي

الظاهر هو عدم خلو واقعة من الوقائع وحادثة من الحوادث عن حكم
شرعي يتعلق بالوظيفة الشرعية للعباد ويبين نوع عمل المكلف من الأحكام
التكليفية الخمسة بخصوص الواقعة على نحو الإنشاء والجعل وهو المستقرأ
من قوله تعالى ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، أي ان كل عمل وفعل
من أفعال المكلف يرجع إلى أحد الأحكام التكليفية الخمسة بمرتبة ما سواء
إرتقى إلى مرتبة الفعلية والتنجز أم لم يصل اليها.

وقيل بتواتر الأخبار على ان لله في كل واقعة حكماً، وهذا الحكم لا
ينحصر بالعالم بل يشمل العالم والجاهل، اما الأحكام الوضعية فقد يكون
الفعل خالياً منها او يعرض له واحد منها او اكثر، وقد يأتي الحكم الوضعي
بعارض خارجي او بعنوان ثانوي ومن ذلك الأكل والشرب والقيام والقعود
واقْتِباس الحكم ونوع التكليف من الكتاب والسنة من عمومات قوله
تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(٢)، بلحاظ أن معرفة المكلف
بوظيفة رحمة ونعمة وضياء وأن المراد من الدين يشمل النهج والطريقة في

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة المائدة ٣.

المسائل الإبتلائية وأمور الدين والدنيا، إلى جانب القواعد الإمتتانية في الشريعة منها قاعدة نفي الحرج وهي مستقراة من قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١).

مفهوم الآية

الآية وثيقة سماوية وشهادة ملكوتية خالدة على العناء الذي كان يلاقيه المسلمون من فريق من أهل الكتاب، فمن أشد الأشياء وطأة على الإنسان ان يتوجه له اللوم وهو على يقين من أمره وأنه لم يجانب الحق والصدق، لقد إختار المسلمون الإتياد لما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله عندما رأوا الآيات تترى والمعجزات تتتابع والملائكة تنزل بنصرتهم وخذلان عدوهم.

والقرآن يخاطب العقول كل يوم بلسان ملكوتي ويحثهم على الهداية والإيمان والنجاة في النشاطين بأداء الفرائض فيأتي فريق ليطلبوا منهم ترك دينهم بدل الإلتحاق بهم وإعانتهم على المشركين.

فجاءت هذه الآية لتكشف أثر هذا العناء وتخفف عن المسلمين وتخبرهم بان الله عز وجل يعلم إفتراء أهل الريب وزيف إدعائهم، وتعلم المسلمين الى يوم القيامة كيفية الرد وإقامة الحجة بأية من جوامع الكلم تتضمن التصريح والكناية والتعريض.

التصريح بإظهار إتماء المسلمين وإرتباطهم العقائدي بإبراهيم. والكناية بأن مدار الصلة مع إبراهيم عليه السلام لا تتحصل الا بالحنيفية التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد جاءت الآية السابقة بالتوكيد على العمل والكسب في الصلة معه ومع الأنبياء السابقين وانه لا

إعتبار للنسب المجرد بل لابد ان يكون عوناً على الإلتواء للإسلام ومعرفة الحق.

والتعريض في الآية هو ذم الشرك والإتصاف به والنهي عن انتقال من يتفاخر بالآباء الأنبياء والموحدين إلى إيذاء المؤمنين.

والآية حرز ومنعة للمسلمين وسبب سماوي لإعراضهم عن أقوال أهل الريب، فما ذكره القرآن من قولهم من باب المثال الأهم وإلا فان الأقوال والإفتراءات وحملات التشويه كانت مستمرة على الإسلام، فجاءت هذه الآية حصانة وواقية لإستيعابها وتبديد مضامينها ومنع تأثيرها وكشف زيفها وما فيها من البطلان، ومن الإعجاز ان الآية لم تذكر قولهم فقط بل ذكرت كيفية الرد عليه والإحتراز منه واتخاذة مناسبة لهدايتهم وانذارهم وتحذيرهم. ويلاحظ في الآية امر الله تعالى (قل) وهو موجه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطته الى الأمة ويدل في مفهومه على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستعين بالوحي والتنزيل للرد على أقوال أهل الكتاب ودرء ما يرد من الشبهات والأباطيل، ومن كان التنزيل سلاحه والملائكة ظهيره فلا بد أن يكون النصر حليفه والجنة عاقبته.

وفي الآية مسائل:

الأولى: الإخبار عن بزوغ وعلو صرح الإسلام، بثبات المسلمين في منازل الإيمان.

الثانية: عدم ترك الناس للمسلمين وشأنهم.

الثالثة: إجتماع أذى الكفار وغيرهم على المسلمين، ولكن أذى الكفار أشد ضرراً، إذ زحفوا بالجيوش العظيمة من مكة يريدون قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإستئصال أصحابه، فهم لم يكتفوا بالقول والترغيب بترك الإسلام، بل رفعوا السيوف بوجه المسلمين، فرفع الله

ضررهم وأذاهم مجتمعين ومتفرقين قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمُ الْإِذْيُ﴾^(١).

الرابعة: تعدد الأذى الذي يأتي للمسلمين، إذ أن الآية جاءت على صيغة الكف والنشر والتقدير: قال اليهود كونوا هوداً، وقالت النصارى كونوا نصارى، وقدمت الآية قول اليهود وفيه وجوه:

الأول: اليهود أكثر إلحاحاً على المسلمين في ترك الإسلام.

الثاني: قرب مساكن اليهود من المسلمين، إذ أنهم يجاورونهم في المدينة، وما حولها.

الثالث: الجدل مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسؤال المعجزات والقول (كونوا هوداً).

الرابع: لا موضوعية لتقديم قول اليهود على النصارى في المقام.

الخامس: دين اليهودية أقدم زماناً من دين النصرانية لأن موسى مسابق لأيام عيسى عليهما السلام.

السادس: النصارى أقل أذى للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين قال تعالى ﴿وَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، وبإستثناء الوجه الرابع، فإنه لا تعارض بين الوجوه أعلاه، وهل كل اليهود والنصارى قالوا (كونوا هوداً أو نصارى) الجواب لا، بل جاء القول من طائفة من كل من الملتين لذا فمن إعجاز الآية أنها لم تذكر الفاعل على نحو النص .

ولم تقل (قال اليهود والنصارى)، بل جاءت بواو الجماعة في (قالوا) وما تدل عليه من الإجمال والإبهام ولغة الإشارة مع القرينة، في الآيات السابقة لإرادة القائلين وتعيينهم.

الخامسة: تدل الآية في مفهومها على كثرة عدد المسلمين وأنهم أصبحوا

أمة تتوجه لهم الدعوات ويخشى جانبهم، ويتصفون بالصبر والتحدي للآخرين، وعجز الملل الأخرى عن إكراههم على ترك دينهم.

السادسة : إثارة أسباب الشك والريب بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والحرب على الإسلام بالترغيب بتركه والإرتداد عن ملة إبراهيم.

السابعة: القرآن عضد ومدد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في الثبات على الإيمان، فجاءت هذه الآية سلاحاً وعوناً للمسلمين، وطرداً للشبهات.

الثامنة: بينما جاء الرد من عند الله بالأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل)، مما يدل على المدد من الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١)، وأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يذب عنهم، ويجاهد بلسانه ونفسه للحفاظ على كل فرد من المسلمين في دينه وملته، وفيه دعوة لأئمة المسلمين بحفظ المسلمين كأفراد في ملتهم ودفع أسباب الشك والريب عنهم، وفضح المقالات الباطلة التي تريد إبعادهم عن وظائفهم العبادية.

التاسعة : تنزيه مقامات الأنبياء السابقين، وترغيب أهل الكتاب والناس جميعاً باتباعهم بالحجة والبرهان.

الآية لطف

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على فترة من الرسل، وليس بينه وبين عيسى عليه السلام نبي أو رسول، وإنحرف أهل مكة عن ملة إبراهيم وعبدوا الأصنام وعلقوها في البيت الحرام، وصار لأغلب قبائل العرب أصنام خاصة بهم، فنزل القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتوالت معجزاته التي تخاطب العقول فأمن به عدد من

أهل مكة، وواجهوا أشد صنوف العذاب من كبرائها لحملهم على ترك الإسلام، فهاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه إلى المدينة ليفاجئ بدعوة للمسلمين لترك الإسلام، فجاءت هذه الآية لطفاً بالجميع، من وجوه:

الأول: الآية لطف بأهل الكتاب من جهات:

الأولى: الإخبار عما يقوله أهل الكتاب.

الثانية: التوثيق السماوي لقول أهل الكتاب.

الثالثة: الرد الإلهي على قول أهل الكتاب، وعدم تركه سدى.

الرابعة: الإشعار بأن الله عز وجل ناصر المسلمين.

الثاني: الآية لطف بالمسلمين من جهات:

الأولى: هذه الآية من نصر الله عز وجل.

الثانية: في الآية دعوة للمسلمين للإحتراز من دعوات أهل الكتاب.

الثالثة: الآية بعث للإنصاة لآيات القرآن، وما فيها من الأخبار

والأحكام.

الرابعة: الآية من مصاديق قوله تعالى ﴿وَرَزَّأْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ثِيَّانًا لِكُلِّ

شَيْءٍ﴾^(١)، إذ أنها تبين قول أهل الكتاب والرد عليهم.

الخامسة: تدعو الآية النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم للإجابة

والإحتجاج على أهل الكتاب.

الثالث: الآية لطف بالناس جميعاً من جهات:

الأولى: تمنع الآية من الجهالة والغرر.

الثانية: الآية وثيقة تبين جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

والمسلمين في الثبات على الإسلام.

الثالثة: الآية بذاتها وسيلة مباركة لنشر الإسلام، وفضح أعدائه.

لقد إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وطلبوا منه أن يتبع ملتهم ﴿وَكَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى حَتَّى تَبْعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(١)، ولما بأسوا منه توجهوا إلى المسلمين وطلبوا منهم ولم يسألوهم أن يتبعوا ملتهم بل أن يكونوا مثلهم يهوداً أو نصارى ترغيباً لهم.

فجاءت هذه الآية بفضح هذا القول وبالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يتولى بنفسه رد هذا القول، وكفاية المسلمين والتخفيف عنهم، لذا فلم تقل الآية (قولوا بل ملة) بلحاظ أن الطلب متوجه للمسلمين، بل جاء الأمر إلى النبي محمد (قل) وينحل هذا الخطاب بعدد المسلمين، فهو خطاب بالأصالة، ولهم بالتبعية، وورد عن الإصحاح التاسع من مرقس، والتاسع من لوقا: من ليس علينا فهو معنا).

فجاءت هذه الآية لبعث السكينة في قلوب أهل الكتاب في الإسلام، وأنه لم يأت للحرب عليهم، بل جاء بملة التوحيد التي عليها إبراهيم عليه السلام، وهي جامع بينهم وبين المسلمين.

وتبين آيات القرآن أن إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ملة إبراهيم ليس اجتهداً بل هو بأمر من الله عز وجل جاء بخصوصها كصراط على نحو التعيين، قال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ تَبْعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٢).

إفادات الآية

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين الإرتقاء في سلم الكمالات، فجاءت هذه الآية لإزاحة أسباب الشك والريب، وهي جذبة من الله إلى مقامات التقريب من التقوى واليقين، وإرتباط بين عالم الغيب والشهادة بأن

(١) سورة البقرة ١٢٠.

(٢) سورة النحل ١٢٣.

تستحضر الآية ملة إبراهيم ليكون هذا الإستحضار من أسرار دعاء إبراهيم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾^(١).

فجاءت بعثته ونزول القرآن لتجديد سنة وطريقة إبراهيم، وشكر الله عز وجل له لإخلاصه في الجهاد في سبيل الله، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾^(٢)، ومن إفاضات الآية أن الإحتجاج فيها جاء كاملاً من وجوه:

الأول: الأمر الإلهي بالرد على قول فريق من أهل الكتاب.

الثاني: تولي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه الرد، وفيه تنبيه للمسلمين بلزوم عدم ترك المقالات الباطلة وأسباب الشك والريب والتعدي على المسلمين في دينهم وعقيدتهم، فجاء ذكر ذكر هذا القول والدعوة من باب المثال الأمثل والإفادة.

الثالث: الآية دعوة للرد على المقالات والتي تريد بعث الشر والريب في نفوس المسلمين.

الرابع: الآية مدرسة فقهية تهدي إلى الحق والصلاح، وتمنع الفرقة والشقاق بين الموحدين.

الخامس: في الآية تذكير بنبوة وأبوة إبراهيم ووجوه الإلتقاء بين المسلمين واليهود والنصارى بالنسبة إليه، وتأكيد بتقوم هذه النسبة باتباع ملته التي لا بد أن تكون معروفة عند الجميع وهو المستقرأ من الإحتجاج بها.

(١) سورة البقرة ١٢٩.

(٢) سورة البقرة ١٣٠.

التفسير الذاتي

قد تقدم قول اليهود والنصارى بمحصر دخول الجنة بهم ومحاولة إغراء المسلمين ﴿إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾^(١)، وجاءت هذه الآية بذات المعنى والمضمون بلحاظ أن الهداية طريق الجنة، ومن الآيات مجيء الآيتين في أول القرآن، ولعل نزولهما مبكراً بعد هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة واختلاط المسلمين بأهل الكتاب، فصحيح أن الإقامة في المدينة أمن وسلامة للصحابة من عذاب رؤساء قريش إلا أنها كانت للجدال والاحتجاج.

فلم يكن عند المشركين من حجة في عبادتهم الأصنام فلجأوا إلى البطش، أما أهل الكتاب فعندهم ذخيرة ويسلم المسلمون بنزول التوراة والإنجيل، وصدق نبوة موسى وعيسى، وأخفي ما بشرا به من نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فجاء القرآن لفضح التحريف، والتذكير بملة إبراهيم.

تري ماذا لو عكس الأمر، وهاجر الأنصار إلى مكة وبقي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في مكة خصوصاً وأنها فازت بدعاء إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾^(٢)، والجواب هو إجهاز قريش على الأنصار والبطش بهم والإنتقام منهم، وواد الإسلام في مهده، فقد هجمت عليهم قريش في عقر دارهم، فمن باب الأولوية القطعية قهرهم والتعدي عليهم في مكة.

فكان خروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة آية إعجازية في سنته الفعلية، وأنها من الوحي وعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ

(١) سورة البقرة ١١١.

(٢) سورة البقرة ١٢٦.

عَنْ الْهُوِيِّ ♦ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَخِي يُوحَى** ﴿١﴾، بلحاظ أن الهجرة قول وفعل تدبير، وكانت قريشاً سبباً في الهجرة من مكة قال تعالى ﴿وَكَأَنِّي مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتُكَ أَهْلَكُنَاهُمْ﴾ ﴿٢﴾، لتكون النبي من مكة ثم عودته إليها من مصاديق الأمن فيها.

إن الهجرة إلى المدينة إرتقاء للمسلمين لما فيها من عالم الجدل والاحتجاج، وما يترشح عنه من التفقه في الدين ومعرفة درء الشبهات، ودفع المغالطات.

ومن الآيات أن المسلمين لم يخوضوا حرب الاحتجاج بجهودهم وكان أكثرهم أمياً، بل خاضوها بأسلحة ومدد سماوي، ومنه هذه الآية التي هي مقدمة للمدد الملكوتي في ميدان القتال يوم بدر وأحد والخندق وحنين، ليتغشى المدد المسلمين في حال السلم والحرب.

وورد ذكر ملة إبراهيم ثمان مرات في القرآن تتضمن ترغيب الناس بالإسلام، وتوكيد أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يأت بيدع وأمر مخالف لما جاء به الرسل، قال تعالى في خطاب للمسلمين ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿٣﴾.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان ما يلاقه المسلمون من الملل الأخرى.

الثانية: يحارب المشركون المسلمين، ويأتون بالجيوش العظيمة من أجل قتلهم وأسرهم ويقوم بعضهم بقتلهم على ترك الإسلام، وهم يحرصون على

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) سورة محمد ١٣.

(٣) سورة الحج ٧٨.

إظهار إيمانهم.

الثالثة: جعلت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الهداية هي الهدف والغاية بين الناس.

الرابعة: بيان جهاد النبي في باب الإحتجاج.

الخامسة: عدم إستحواذ الغضب على المسلمين من أهل الكتاب بسبب قولهم، وفيه إرتقاء في الرد بالمثل والإحتجاج، ودلالة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه يأتي بالحجة والبرهان.

السادسة: تأكيد ملة التوحيد التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنفي الشرك عن إبراهيم الذي يتبعه المسلمون في ملته، والإشارة إلى التفضيل في الشرائع الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السابعة: في الآية تنبيه للمسلمين بعدم حصول الإختلاف والجدال والخصومة بينهم، لتجلي موضوع وجهة الإحتجاج وأنه مع غير المسلمين، وبما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم موضوعاً وحكماً، ويكون المنع عن الخصومة والقتال بينهم من باب الأولوية القطعية، ولزوم ترتيب آثار الإسلام على من ينطق بالشهادتين، وعندما دخلت الفلسفة اليونانية وغيرها بلاد المسلمين، وأكثر أشخاص من الجدال والتوكيد على مسائل مخصوصة صارت فرق كلامية عند المسلمين وأخذ بعضهم يكفر بعضاً، كما في فتنة خلق القرآن، ويقول فريق بقدوم القرآن ونسب إلى الأشاعرة، وقسموا الكلام إلى قسمين:

الأول: لفظي.

الثاني: نفسي، وأن كلام الله النفسي قائم بذاته فهو قديم ، وقال المعتزلة بحدوثه وإجتهد كل فريق بالإتيان بالأدلة.

فجاءت هذه الآية الكريمة ببيان وجوب إتحاد المسلمين في الإحتجاج ضد غيرهم، وليس في الخصومة بينهم، والأصل عدم وجود موضوع ومسألة

للخصومة والخلاف بينهم ، قال تعالى ﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١).

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بذكر قول فريق من أهل الكتاب مما يدل على أهمية هذا القول وما له من الأثر والضرر لو ترك من غير رد وإحتجاج وإبطال، ويتقوم قولهم بالملازمة بين إتباعهم والهداية، وكان الناس في الجزيرة، وهم على عبادة الأصنام معرضين ملة أهل الكتاب، وتلقي المسلمين معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتصديق.

وجاءت هذه الآية لبيان الصلة مع أهل الكتاب، برد قولهم بالإحتجاج والبرهان والدعوة إلى الإسلام والتقيد بسنن ملة إبراهيم الذي يتفق اليهود والنصارى والمسلمون على نبوته، وفيه شاهد على تغير حال الناس بنزول القرآن، إذ جعل موضوع الإحتجاج العام هو الرسل الذين بعثهم الله، والشرائع التي جاءوا بها، ليسمع المشركون ويروا الإرتقاء الذي يصاحب دخول الإسلام، ويترشح عن تلاوة آيات القرآن وأداء الفرائض، وليس من مهلة بين قولهم ومحاولة بعث الشك في نفوس المسلمين وبين الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإحتجاج عليهم، ولم يبطئ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الإمتثال لأمر الله طرفة عين، لأن تلاوة هذه الآية من الرد عليهم.

وكان يتلو ما ينزل عليه من القرآن حالما ينفصل عنه الملك ليتناقل المسلمون الآية ويحفظوها ويدونوها، ويتلوها في الصلاة فتكون هذه التلاوة واقية وسلاحاً وجاءت الآية بوصفين كريمين لإبراهيم عليه السلام:

الأول: أنه حنيف وفيه شاهد على إستقامته وتفانيه في طاعة الله.

الثاني: عصمة إبراهيم من الشرك الظاهر والخفي، ترى لماذا لم تقل الآية: ولم يكن مشركاً).

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

والجواب كان إبراهيم بين قوم مشركين، وإنفراد من بينهم بالإيمان والدعوة إلى الله عز وجل وتحمل الأذى في جنبه، فواجه الطاغوت وقواده والملا بكسر الأصنام التي يعبدون والإحتجاج عليهم، وسجنه ثمروذ، وقيل جرت المحاجة بينهما عندما أخرجه من السجن ليحرقه، وقال له من ربك الذي تدعو إليه، فقال الذي يحبي ويميت فأجاب ثمروذ بما يفيد اللبس على الناس ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾^(١)، أي يعفو عمن حكم عليه بالإعدام، ويقتل من يريد قتله، فلم يقف عندها إبراهيم ولم يرضخ للمشركين ومفاهيم الضلالة مع أن الناس من حوله كفار، فانتقل إلى موضوع آخر كما ورد في التنزيل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾^(٢).

وفي الصلة بين أول وآخر الآية تحذير من الشرك ودعوة أهل الكتاب لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإجتنب إعانة المشركين الذين يجهزون الجيوش لقتاله وأصحابه، وقد تجلى النفع العظيم من هذه الآيات بعجز المشركين عن إحراز النصر وأخذ واستعارة السلاح والأموال لقتال المسلمين، وكما إستمع جماعة من كبرائهم لقريش خصوصاً في معركة الخندق التي ذكر في سبب جمع الجيوش العظيمة ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه أن نفراً من يهود المدينة وبني وائل هم الذين حزبوا الأحزاب منهم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحبي بن أخطب، وهوذة بن قيس الوائلي .

ومع هذا فلم يحشد اليهود والنصارى صفوفهم وينفقوا الأموال الكثيرة للإجهاز على الإسلام، لأن هذه الآيات جاءت تأديباً وزجراً وحجة عليهم، ودعوة لهم للتدبر في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكيف أنها تلتقي مع حنيفة إبراهيم.

(١) سورة البقرة ٢٥٨.

(٢) سورة البقرة ٢٥٨.

وتبين الآية تأديب الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في صيغ الإحتجاج والجدال وهو من عمومات قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، وفيه طرد للكدورة والنفرة من الدعوة الإسلامية، وهو وسيلة لجذب الناس للإسلام والتدبر في المعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خصوصاً أهل الكتاب الذين يذكرون ويستحضرون معجزات موسى عيسى عليهما السلام لتكون المقارنة ووجوه الشبه بينها وبين معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حجة عليهم.

التفسير

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾

تبين الآية الجهاد العقائدي للمسلمين وكيف أنهم عانوا من أسباب الترغيب والترهيب والحرب الإعلامية العدائية المنظمة، فشطر من أهل الكتاب لم يكتفوا بالصدود عن الإسلام بل توجهوا الى المسلمين ايضاً، فحاولوا دفع بعضهم إلى هاوية الإرتداد، وهذا الفعل لا يخلو من دهاء فيما يتنافى مع الهداية، فقد حاولوا تضليل بعض المسلمين ممن أثبت أهليته لتلقي دعوة الإيمان واتباع النبي الذي جاء بالكتاب، فحاولوا إقناعهم بالإعراض عن الدين الجديد، وظنوا وجود فرصة لتوجيه الخطاب لهم واستغلال حداثة عهدهم بالاسلام.

ولكنه قياس مع الفارق فالذي آمن برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رأى الآيات وأسباب الصدق والإقتناع والبرهان وليسلم في نفسه من نزعة التغيير والإنتقال إلى ملة أخرى، وما هو موجود في الإسلام من كمال الشريعة غير موجود في غيره، لقد سعوا في محاربة الإسلام ليتخلى بعض

المسلمين عن مبادئه وهو من اخطر ما يواجه الإسلام لأنها حرب موجهة الى كيانه ومادته، حاولوا النفاذ إلى داخله للإنهك ومحاولة الحصار والتضييق.

وفي الآية مسائل:

الأولى: ان القرآن يذكر الحال على نحو الإيجاز فقولهم ﴿كُونُوا﴾ لا بد وانه محاط بادعاء زائف واتهام باطل وكلام زائد بقرينة ما ذكر في الآيات السابقة الأمر الذي يدل على تجربهم على الله وعلى رسوله.

الثانية: ورود القول بلغة الجمع ﴿وَقَالُوا﴾ يدل على أنه أمر مدبر لم يكن على نحو القضية الشخصية بل هو أمر ظاهر.

الثالثة: الآية حجة عليهم فهي تحكي واقعاً حادثاً، وحقيقة يومية حاصلة في أيام التنزيل فلو لم تكن عامة ومعروفة لما إستحقت الرد ولأنكروها، ولم يذكر أن نفياً أو إنكاراً صدر منهم أزاء ما فيها من القول، وكانت وفودهم تصل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والى الخلفاء بعده.

الرابعة: الظاهر ان خطابهم موجه الى المسلمين ممن لم يكن على دين أهل الكتاب فلم يقولوا لهم إرجعوا إلى ديننا، وهبوطاً بعد إرتقاء، أو لم تركتموه بل ﴿كُونُوا﴾، أي انهم طلبوا فعلاً مستحدثاً وهو يؤكد عظيم الخطر والضرر الذي يتضمنه هذا القول.

وهل يتعلق موضوع الطلب في الآية بالذين إنسلخوا من ديانتهم وغادروهم للإسلام، الجواب: إن دعوتهم تلك تشملهم بالدلالة التضمنية ولكنها موجهة بالأصل إلى القبائل والأفواج والجماعات من العرب الذين بادروا الى دخول الاسلام عند رؤية الآيات، خصوصاً وان خطابهم جاء بصيغة الجمع للمخاطب ﴿كُونُوا﴾.

الخامسة: لم يقصدوا بهذه الدعوة نصرة دينهم بل إضعاف الإسلام

وتفكيك أوصاله، وإلا فاليهود كانوا موجودين قبل الإسلام في المدينة ولم تتسع ديانتهم فيها ولم يسعوا بجد إلى توسعتها ولكنهم تناسلوا وتكاثروا وثمرت أموالهم واتسعت املاكهم.

السادسة: صدق الدعوة الإسلامية وما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تعالى وهو ان الناس إنقادوا إلى الإسلام ولم يكونوا قد تأثروا باليهودية أو النصرانية من قبل، وإنحصرت أقوال أهل الكتاب بمحاولة إخراجهم من الإسلام.

السابعة: إحداث النشاط الديني عند الملل الأخرى بالإسلام، فهو ثورة فكرية وعقائدية، نعم دعوته حق ولكن ليس من ملازمة بينها وبين أقوال الآخرين، فمع دعوة الحق تصدر دعاوى أخرى.

فجاءت هذه الآية لفضحها ثم ان تلك النشاطات كانت مباينة له في موضوعها ومقاصدها جملة وتفصيلاً.

الثامنة: تدل الآية في مفهومها على عجز أهل الكتاب عن منع الناس من دخول الاسلام ابتداءً، وفي ذلك إعجاز ومدد إلهي، ينزع القدرة والسلطان عنهم أيام التنزيل وبدايات الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية، والمعروف ان اليهود سكنوا المدينة كي يكون نبي آخر الزمان منهم وليؤمنوا به قال تعالى ﴿وَكَاُنَا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحِشُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١)، فكانوا يقولون للأوس والخزرج، وهم على الشرك، سيخرج نبي آخر الزمان ونقتص منكم، وهل كان بعضهم يعرف ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيبعث من ذرية إسماعيل فسكنها مقدمة وإستعداداً للإجهاز على الاسلام في بداياته كما أفادت بعض الاخبار حصول محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صغره الجواب لا، لإقتران هذه المعرفة بالعلم بنبوته وهو سبب للتنزه من الإجهاز عليه.

التاسعة: إشراكهم في الموضوع والتويخ يدل على التقائهم معاً إختياراً أو إتفاقاً وصدفة على محاربة الإسلام والتصدي لإغواء بعض المسلمين للميل إلى.

العاشرة: هل كانت تلك الدعوة منهم مقصودة لنفسها ام انها مقدمة لغيرها وطريق لما هو أكبر، لابد أن الآيات الأخرى تبينه وتظهره، ثم انها طوعاً او قهراً، عن قصد او بدون قصد، لابد ان تؤدي الى نتائج تتعلق بالتركيبة العقائدية على الأرض وبالإضرار بالإسلام، وذكرها في القرآن يدل على وجود القصد والعزم والتكرار وإحتمال الإضرار.

الحادية عشرة: تصدي القرآن لفضح هذه الدعوة يؤكد على اهميتها وخطورتها وعلى نصرة القرآن للمسلمين، وحاجتهم لنصرة السماء والرد القرآني والإعتبار والإحتراز الدائم.

الثانية عشرة: جاء خطابهم بلغة الجمع ﴿كُونُوا﴾ مما يدل على الكثرة والتعدد وقصد المسلمين والنوع وليس أفراداً معينين، وجاء الأمر الإلهي بلغة المفرد المخاطب ﴿قُلْ﴾ وهو موجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه امر لتولي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه مسؤولية التصدي والدفاع عن الإسلام وعن المسلمين، فوظيفته الرسالية لا تنحصر بدعوة الناس الى الإسلام فتشمل منع أسباب الخروج منه وردع الذين يحاولون ايداء المسلمين في عقيدتهم وعباداتهم وهي مسؤوليات مستحدثة ومركبة، لذا ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ما اودى نبي مثل ما اوديت^(١).

وفيه نكتة وهي ان القول الواحد من النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعادل ويكفي لرد الأقوال المتعددة منهم إلى جانب موضوعية تلاوة المسلمين في القرآن.

(١) مفاتيح الغيب ٤/ ١٧٥ .

الثالثة عشرة: من القواعد الكلية في علوم القرآن ان الخطاب الموجه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقصد به الأمة أما على نحو الإشتراك او الإلحاق أو الترشح او العرض أو الإصالة إلا مع القرائن التي تدل على التخصيص وانفراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخطاب فله خصوصيات خصه الله تعالى بها مبينة في كتب الحديث نذكرها في مباحث الفقه في باب النكاح تشرفاً وافتخاراً مثل صوم الوصال أي يصوم اليومين والليلة التي بينهما، وقيام الليل، وزيادة النساء على الأربع.

وليس من دليل على ان المقصود بهذا الخطاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة فالمراد منه المسلمون جميعاً، نعم قد تتضمن بعض الخطابات في القرآن انفراد الإمام والحاكم والسلطان والوالي والفقيه بحصة زائدة عن غيره بلحاظ ومقدار المسؤولية السياسية والأخلاقية والدينية والعشائرية، ولكنها لا تصلح للتخصيص فيبقى الخطاب على إطلاقه وإنخلاله بعدد المكلفين بالتبعية.

الرابعة عشرة: الآية تقوية لإيمان حديثي العهد وضعيفي الإيمان فان كان السيف مؤازراً للدعوة للغير لدخول الإسلام، فان هذه الآية جاءت لنهي الغير عن التعدي على الإسلام ولتحصين المسلمين.

الخامسة عشرة: تصدي القرآن لهذا القول يدل على المسؤولية العقائدية، والدعوة الى الإسلام بمحاربة المقالات الباطلة على وجوه:

الأول: وتوبيخ وتحذير أصحاب مثل القالات.

الثاني: تأثيره في المسلمين وعقيدتهم فنزل القرآن بدفع الضرر ورد الكيد ومنه استماع بعض المسلمين لمثل هذا القول.

الثالث: الوجهان معاً، وهو الأقرب ففي الآية وعيد لهم، ودرء للمفسدة.

السادسة عشرة: يدل الأمر المولوي ﴿قُلْ﴾ في مفهومه على عدم الإعراض

او الإستخفاف بكلامهم ودعوتهم هذه وان تركها يعرض الإسلام للأذى ويترك الكيد ينخر في جسده خصوصاً وان مشركي قريش كانوا يجهزون الجيوش ويزحفون على المدينة لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه.

السابعة عشرة: بقاء هذه الدعوة منهم في الأزمان اللاحقة متجسدة بصيغ مستحدثة بما يلائم العصر والعرف السياسي والاجتماعي كالفرق التبشيرية وبعض مقالات وأبحاث المستشرقين، وهو شاهد حاضر على إعجاز القرآن والحاجة إلى علومه.

ومن اعجاز القرآن ان اللف والنشر لا ينحصر بوجهه البلاغي بل يدل على تضامهم وتعاونهم في الجدال، وعليه شواهد تاريخية كثيرة تؤكد ما يستنبط من الآية الكريمة في باب البلاغة ومقدمة للتفسير والتأويل وليس هي تفسيراً بذاتها.

بحث بلاغي اللف والنشر

وهو من وجوه البلاغة، والقرآن كله بلاغة، ومما يلفت النظر أن أغلب الأمثلة في هذا الباب عند أهل البلاغة ان لم يكن كلها من القرآن، وكأن هذا الباب عن علوم البلاغة متولد ومستنبط من القرآن.

واللف والنشر موضوع مركب فاللف يتعلق بصدر الكلام والنشر يتعلق بذيل الكلام اذ ان الكلام فيه ينقسم الى قسمين الى:

الأول: إجمال.

الثاني: متعدد.

فتارة يكون الإجمال في اللف وتارة يكون في النشر.

ففي الآية الكريمة جاء الإجمال في اللف ومنهم من يسميه الطي، وجاءت باللفظ الذي يدل على المتعدد ولكنه مجمل وهو (قالوا) ثم يذكر في النشر على عدد ذلك اللف أو القول ، وكل واحد يرجع إلى واحد من

اللفظ المجمل الذي يتضمن المتعدد، وقد يكون النشر سبيلاً لمعرفة مضمون اللف، فحينما سمعنا كلمة (قالوا) لم نعرف من هم الذين قالوا وان كان سياق الآيات ظاهر في المعنى.

وفي اللف والنشر يترك السامع وعقله، ورد كل واحد من أفراد النشر إلى ما يتضمنه إجمال اللف من الأفراد، فان قلت: لم أجمل مع احتمال التأويل المتعارض وظهور الاختلاف في التفسير، قلت: لا سبيل إلى حصول التعارض والتعدد في التفسير لقاعدة كلية وهي ثبوت الخصومة والخلاف بينهم.

وقد يرد المتعدد والبيان في اللف وصدر الكلام ولكن الإجمال يتأخر ويأتي في النشر كقوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالتَّهَارَ تَسْكُونًا فِيهِ وَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)

وان كانت الآية أعم وهي ناظرة إلى العمل في الليل في هذا الزمان. ويمكن تفسير هذا الإصطلاح البلاغي بمعنى آخر، وهو ان موضوع اللف او النشر يدور حسب الكلام ولا ينحصر بصدر الكلام او ذيله بحيث ما كان التعدد والتفصيل يكون النشر وحيث ما كان الإجمال يكون اللف والطبي وهو الأظهر والأنسب.

قوله تعالى ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

اختلفت كلمات أهل اللغة في (الحنيف) حتى وكأنه من الأضداد وليس كذلك، فمنهم من قال ان (الحنيف) هو المستقيم، لذا اطلق على من اسلم لأنه لم ينحرف عن الحق، ومنهم من قال انه المائل، ومنه الأحنف الذي يميل كل واحد من قدميه الى الأخرى باصابعها، وان ابراهيم حنيف لأنه مال الى دين الله.

والقائلون بالمعنى الأول ذهبوا الى ان الأعرج سمي احنفاً تفاؤلاً بالإستقامة كما قيل للملدوغ سليماً، والمهلكة تسمى مفازة، والظاهر ان (الحنيف) غير الأحنف يقال: يحنف الرجل حنفاً أي اعوجت رجله الى

داخل فهو احنف، وللحنيف معنى اصطلاحى، ولعل من المباحث التي لم تنقح تماماً هو مسألة الحنيفية، وفيها اقوال:

الأول : ان الحنيفية هي حج البيت، عن ابن عباس والحسن ومجاهد^(١).

الثاني : انها اتباع الحق، عن مجاهد.

الثالث : اتباع ابراهيم في شرائعه التي هي شرائع الإسلام.

الرابع : اخلاص العمل.

الخامس : لقب لمن دان بالإسلام.

السادس : الإستعداد لقبول الحق ومنه الحديث القدسي: خلقت عبادي

حنفاء أي ان المولود يولد على الفطرة.

السابع : انها السنن ومنه الحديث "السواك من السنن وانها خمسة في

الرأس وخمسة في البدن" وهذه الوجوه من مصاديق الحنيفية فلا تعارض بينها.

ومع الدعوة لتوحيد الإصطلاح واللفظ في كافة العلوم، فمن الموضوعات والأحكام ما يكون متعدداً ومنه الحنيفية، الا ان الجمع ليس متعذراً والآية لا تعني التقليد كما قال الرازي: "إن كان طريق الدين التقليد فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم"^(٢).

وعلى مذهب القرآن يفسر بعضه بعضاً يمكن ان تكون هذه الآية تفسيراً

لقوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾^(٣).

والآية دعوة لاجتثاث الشرك من الأرض فهي لم تكتف بالرد عليهم بل هاجمتهم في المبنى العقائدي، وفيها حث للناس جميعاً على التقيد بأحكام

(١) مجمع البيان ١/٣٦٧.

(٢) مفاتيح الغيب ٢/٣٧٠.

(٣) سورة آل عمران ٦٣.

بحث منطقي

من ضروب الجدل إعتقاد المسلمات والإنتفاع من المشهورات وإلتخاذها سلاحاً ومقدمة وشاهداً، وهو لا يأتي إبتداء بل لابد من معرفة تلك المسلمات والمشهورات، وأنها ليست خافية على الخصم أو غيره، فجاءت هذه الآية لتنمية ملكة المسلمين في الجدل بتوكيد موضوعية ملة إبراهيم عند المليون جميعاً، وإخبارهم بأنها حجة وبرهان على سلامة سبيل المسلمين، فاذ يختلف أهل الكتاب في نبوة عيسى وفيما بينهم مطلقاً فانهم يسلمون بنبوة إبراهيم فجاء ذكره من باب النصرة بشهادة القول وما يفيد الإمتناع للإتفاق على الإقتداء به، ليكون إتباعه من الأعوان وصيغ الإقناع بصدق نهج المسلمين وليكون الإسلام عندهم مقبولاً فينصتوا للقرآن وما فيه من الحكمة ومفاتيح خزائن العلم.

ومن خصائص الجدل التصديق بها أو التدبر في مضامينها، فجاء الإحتجاج على لسان النبي بملة إبراهيم لتقريب مفاهيم الإسلام إلى أذهان عامة أهل الكتاب وهو من أسرار مجيئ الآية بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعمومات قوله تعالى في خطاب بني إسرائيل ﴿أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ليتوجه إليهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه في الإحتجاج ولغة البرهان، ومن شرائط البرهان أن تكون مقدماته يقينية، وجاء البرهان في الآية:

الكبرى: ملة إبراهيم حق.

الصغرى: المسلمون على ملة إبراهيم.

النتيجة: المسلمون على حق.

بحث بلاغي

من باب الحذف المنصوب الذي يدل عليه فعل محذوف لفظاً او معنى او تقديرأ، ومن اسباب حذفه ان يكون جواباً لسؤال حاصل، والتقدير في الآية: (بل تتبع ملة ابراهيم)، ولكن دلالة الآية لا تنحصر بهذا المعنى فتشمل وجوهاً أخرى فهي تصلح أن تقرأ من غير حذف وأن الجواب هو الظاهر، وفيه مسائل

الأولى : إنه جاء على نحو القاعدة الكلية الثابتة.

الثانية : ان ملة ابراهيم سابقة فلا يترك الأصل، بينما الإسلام ناسخ للديانات السابقة.

الثالثة : التذكير بان الإسلام جامع للشرائع وانه على الأصل الذي جاء به ابراهيم.

الرابعة : حمل الآية على عدم الحذف يفيد دعوتهم الى ملة ابراهيم وان الهداية في ملة ابراهيم.

الخامسة : نفي الملازمة بين الهداية وبين ما يخرج ويخالف ملة إبراهيم.

بحث منطقي

قد يكون موضوع القضية شخصياً فلا يشمل الا فرداً واحداً وتسمى بالقضية الشخصية، ويكون طبيعياً كما لو تعلق بجنس الإنسان، وقد تعلق القضية بافراد الطبيعة وهي على اقسام فاما ان يبين عدد الأفراد او الكم او المقدار ويشملها الحكم فتكون كلية نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(١)، او على شطر من الأفراد والأجزاء نحو ﴿ إِنِّ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّهُمِ ﴾^(٢)، وهي القضية الجزئية، أو تكون مهملة، وكل من هذه القضايا تنقسم

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة الحجرات ١٢.

تنقسم إلى قسمين، فاما موجبة أو سالبة، وتكون عشرة أقسام.
 وإيمان إبراهيم قضية شخصية موجبة، المحمول فيها ثابت للموضوع بعد
 إتفاق الملل والكتب المنزلة على نبوته لإطلاق قاعدة ثبوت شيء لشيء فرع
 ثبوت المثبت له، اما القضية السالبة فهي لا تقف عند عدم ثبوت شيء لشيء
 بل قد تتضمن نفياً له، فحرف الإضراب وإثبات الإيمان على نحو القضية
 الشخصية يؤكدان نفي ادعائهم.

وواضعوا المنطق بنوه على بضعة أصول، وبعضهم يحصرها في أصلين
 أحدهما أصالة التبعية أي الترابط بين جميع الأشياء في العالم بحيث يتعذر
 معرفة الشيء إلا بعد الإطلاع على روابطه مع غيره من الموجودات، ومع ان
 مثل هذه المقولة تأتي من سبر الواقع وإحداث التاريخ فان القرآن التفت إليها
 باعجاز وأظهر القسمة بين الأديان على نحو السلب والإيجاب والنسب
 الأربعة.

ومن بين وجوه العموم المطلق النسبة بين كل قضية وعكسها، اذ ان
 عكس القضية أعم في أفرادها المغايرة لها، وكذا المفهوم بالنسبة للمنطوق ما
 دام في القضية أو المنطوق تحديد وتقييد، وحصر وصف الحنفية بإبراهيم
 ﷺ يعني نفيها عن من لم يتبعه من الملل وبالأولوية بالنسبة لأهل الكتاب إذ
 أنهم اقرب إلى إبراهيم من غيرهم من الملل، وغالب الوثنيين لا يعرف
 للهداية مضموناً او قواعد.

وهذه الآية تظهر التباين بين الأديان نعم بين التباين والتناقض عموم
 وخصوص مطلق، فالتباين أعم وليس لأحد المتباينين رفع الآخر فلا غرابة
 ان ترد الجزية على أهل الكتاب، ولكن بين ملة إبراهيم وبين الشرك تناقض
 لذا لم تقبل من المشركين الجزية.

وهل في ذلك ثار لإبراهيم ﷺ وما عرضوه له من الأذى وانه ﷺ كان
 يدعو لبعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كي ينتقم له من المشركين
 وايدائهم له، وسعيهم الجماعي لتطويق الإيمان ومحاولاتهم منع انتشار لواء

التوحيد، وقيام ابراهيم عليه السلام بحمل إسماعيل وهاجر إلى الحرم. الجواب: لا، ان دعاء ابراهيم، للرحمة ونجاة الناس وهدايتهم وهو يعلم بان بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تكون في زمان غير زمان الذين آذوه، والآية تدل على الثبات ووضوح الرؤية وأسباب الهداية وإنعدام التردد وغياب الجهل والإرتباك وقطع آمال أهل الكتاب في تبعية الإسلام وفيها تحديد لمعالم العبودية واجتناب لمهابط الخزي والذل والخسران، وبيان لفساد وأضرار الجهل وذم للكفر ووجوه الشرك بالله.

وهذه الآية تعلن وتنبأ عن اليأس من إرتداد المسلمين، كما في قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾^(١).

وحرف الإضراب (بل) يحتمل بلحاظ متعلقه عدة وجوه:

الأول : يتعلق بدعوتهم المسلمين لإتباعهم وللرد عليها.

الثاني : ادعائهم الهداية بما جعلوه من الملازمة بين الهداية وبين إتباعهم فجاءت الآية لتتفي اللازم مما يعني بطلان الملزوم.

الثالث : إتباع ملة ابراهيم مع السكوت عن دعوتهم وإدعائهم أي أنه يتعلق بما يلزم على المسلمين فعله.

الرابع : الآية ليست من الضد العام لدعوتهم، والذي يتضمن الترك مطلقاً.

وتجاهل تلك الدعوة إنما هو من الضد الخاص الذي يتضمن البديل والمنافي لدعوتهم أي الأمر الوجودي المنافي من ذات الجنس اذ لا يصدق اجتماع الضدين على موضوع واحد في زمان واحد كالعلم والجهل، والبياض والسواد، والهداية والضلالة، فلما كانت الهداية لا تصلح الا بملة إبراهيم فهي تدل بالدلالة الإلتزامية على إنعدامها في الملة المخالفة لها.

وخاتمة الآية هذه دعوة بالمفهوم الى الإسلام فهي رد وتكذيب لدعوتهم

ولكن بلطف وبما هو مشترك بيننا وبينهم.

والآية تدعو إلى الحد الأدنى من صيغ الإيمان ومصاديق الهدى بعيداً عن التحريف، وهل متعلق الآية المسلمون أم مطلقاً، أم انه دعوة لليهود والنصارى باتباعه ايضاً.

الجواب: هو العموم، إذ تتضمن الآية النقض والإبرام والدعوة إلى الإسلام بالواسطة، فاتباعهم لملة ابراهيم يعني بالقياس الاقتراني الاسلام، والدعوة له.

فالكبرى: كل من يتبع ملة ابراهيم يدعو للإسلام.

والصغرى: أنا أتبع ملة إبراهيم.

النتيجة: أنا أدعو للإسلام.



قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفِرُّ مِنْ رَبِّهِمْ لَوْ كُنَّا مُسْلِمُونَ﴾ الآية ١٣٦.

الإعراب واللغة

قولوا: فعل امر مبني على حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعل.

آمنا: فعل ماض وفاعل والجملة في محل نصب مقول القول، وفي اتيان الفعل بصيغة الماضي نكتة عقائدية وان جاءت برداء بلاغي اذ تدل على الثبوت والدوام والإستدامة، لذا يشترط المشهور في الفقه صيغة الماضية في إجراء العقود.

بالله: جار ومجرور متعلقان بآمنا.

وما أنزل إلينا: عطف على اسم الجلالة، ما: اسم موصول مبني في محل جر لعطفه على اسم الجلالة، أنزل: فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو، وما أنزل: مثل إعراب الأول أعلاه .

إلى إبراهيم: جار ومجرور متعلق ب(انزل) إسماعيل: معطوف على إبراهيم، وكذا إسحق ويعقوب والأسباط، وجملة أنزل إلينا صلة ما الموصولة وهي بمعنى الذي.

وما اوتي موسى: الواو عاطفة، ما: اسم موصول، اوتي: فعل مبني للمجهول، موسى: نائب فاعل عيسى: عطف موسى.

وما أوتي : تقدم إعرابه أعلاه.

النيون عطف على موسى، مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم، من ربه: جار ومجرور، ورب مضاف، والضمير(هم) مضاف إليه.
لا: لنفي الحال والمستقبل، نفرق فعل مضارع والفاعل ضمير تقديره نحن.
منهم: جار ومجرور صفة لأحد.

ونحن: الواو حالية، نحن: مبتدأ، له: جار ومجرور متعلقان بمسلمون، مسلمون: خبر نحن مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم، والجملة في محل نصب على الحال.

في سياق الآيات

بعد ان تضمنت الآية السابقة نفياً لإتباع بعض المسلمين للملأ أخرى وخيبة الجاحدين برسائله صلى الله عليه وآله وسلم جاءت هذه الآية لتؤكد المعنى الأعم للإيمان وانه لا يقف عند ملة ابراهيم ومحاربه للشرك بل يشمل الإقرار بمطلق النبوات ومنها التي جاءت بعد ابراهيم عليه السلام وان الإيمان بالأنبياء لا يصح الا على نحو العموم الإستغراقي الذي يدل عليه لفظ (كل) ونحوه كما في قولك اكرم كل عالم والعموم المجموعي، والعموم البدلي ويدل عليه لفظ أي ونحوه كما في قولك اكرم أي عالم.
الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة لها شعبتين:

الأولى: الصلة بين الآيات السابقة وبين هذه الآية، وفيها وجوه:

الأول: بين آية (وإذ يرفع) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: ذكرت الآية أعلاه جهاد إبراهيم في بناء البيت الحرام، وجاءت هذه الآية للإخبار عن تصديق المسلمين بنبوته.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين أن إبراهيم لم يرفع قواعد البيت إلا بوحي من عند الله، لذا أختتمت الآية أعلاه بدعاء إبراهيم وإسماعيل بقبول

عملهما.

الثالثة: جاء ذكر إسماعيل في الآية أعلاه بمشاركته في رفع قواعد البيت، وجاءت هذه الآية بذكره نبياً أنزل الله عز وجل عليه الوحي، وفيه دعوة للنبي محمد للعناية بمناسك الحج، وأنها جزء من وظائف النبوة.

الرابعة: موضوعية الإيمان بالله، وهو الذي بعث الله من أجله الأنبياء وأنزل الكتب.

الثاني: الصلة بين آية (أمة مسلمة)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: بيان أدب العبودية الذي عليه الأنبياء، ولزوم تعاهد الإيمان ويفيد الجمع بين الآيتين الدلالة على لزوم الإقتداء بالأنبياء قال تعالى ﴿فَبِهْدَاهُمْ أَقْدَهُ﴾^(٢).

الثانية: تحقق دعاء إبراهيم وإسماعيل ببعث أمة مسلمة وهم المسلمون، قال تعالى ﴿مَلَأْنَاكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوسًا كُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣).

الثالثة: لقد سأل الأنبياء الله يريهم مناسكهم، وجاءت هذه الآية دعوة للمسلمين للتقيد بتلك المناسك لأنها من مصاديق الإيمان بالله والتنزيل.

الرابعة: ذكر إبراهيم وإسماعيل في الآيتين.

الثالث: الصلة بين آية (ربنا وإبعث)^(٤)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: قد تفضل الله عز وجل وإستجاب لدعوة إبراهيم وإسماعيل ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: هذه الآية من الآيات التي سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الله عز وجل أن يتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأمة

(١) الآية ١٢٨.

(٢) سورة الأنعام ٩٠.

(٣) سورة الحج ٧٨.

(٤) الآية ١٢٩.

المسلمة، وفيه بيان الإستجابة لدعائهما والنافلة من فضله بأن يتلو عليهم ما يفيد الإقرار بنبوّة إبراهيم وإسماعيل.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين بيان حال الإرتقاء عند المسلمين، ومجيء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالآيات وكنوز الحكمة ووجوب تصديق المسلمين بالكتب المنزلة كلها وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الرابعة: إرشاد المسلمين إلى لغة الدعاء إذ كان الأنبياء يجتهدون بالدعاء والتوسل.

الرابع: الصلة بين آية (ومن يرغب)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: من ملة إبراهيم الإيمان بالله وأنبيائه ورسله.

الثانية: جاءت هذه الآيات بدعاء إبراهيم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمن ملته التصديق ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: الذي يتخلف عن الإيمان ويمتنع عن التصديق بالأنبياء سفيه ويتصف بخفة العقل.

الرابعة: من إصطفاء إبراهيم في الدنيا ذكره بالقرآن وهو الكتاب السماوي الخالد والسالم من التحريف والتغيير إلى يوم القيامة.

الخامسة: من إصطفاء إحتجاج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإقتداء بملته وستته وإيمان المسلمين برسالته.

السادسة: جاءت الآية أعلاه بالثناء على إبراهيم، وبيان عظيم منزلته عند الله بقوله تعالى ﴿وَإِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾، وجاءت هذه الآية بالإخبار عن إستحقاقه لهذه المنزلة لإكرام الله عز وجل له بما أنزل عليه

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) الآية ١٣٠.

من الكتاب، وتوكيد القرآن لهذا التنزيل، والأمر الإلهي للمسلمين بالجهار بالتصديق به.

الخامس: الصلة بين آية (أسلم) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: لقد أسلم إبراهيم أمره إلى الله عز وجل، وإمثاله للأوامر الإلهية، وكذا المسلمون في صدق إيمانهم .
الثانية: من ملة إبراهيم الإنقياد لأوامر الله عز وجل، وجاءت هذه الآية أمراً للمسلمين للإنقياد لله عز وجل.
الثالثة: يقتدي المسلمون بإبراهيم عليه السلام بإخلاصه العبادة لله عز وجل.

الرابعة: بيان آثار ومنافع إسلام إبراهيم ودعوته لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بوجود أمة مسلمة ترث الأرض بعبادة الله وتعظيم شعائره.

السادس: الصلة بين آية (ووصى بها) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: لقد وصى إبراهيم ويعقوب أبناءها بالإيمان بالله عز وجل، فجاء المسلمون لتعاهد وصيتهما.

الثانية: القرآن إمام لعموم المسلمين كإبراهيم ويعقوب بالنسبة لأبنائهما، فجاءت هذه الآية وصية لغير المتناهي من أعداد المسلمين في الأحقاب المتعاقبة، وكل فرد وجماعة منهم يتعاهدون وصية إبراهيم ويعقوب، وهو من إعجاز القرآن، وأسرار خلوده وبقائه إلى يوم القيامة، فيه تحفظ وتصان وصايا الأنبياء بالقول والعمل وهو من مصاديق قوله تعالى في خطاب المؤمنين ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ^(٣).

(١) الآية ١٣١.

(٢) الآية ١٣٢.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

الثالثة: ليس من إرتداد عند المسلمين، سواء في التشريع أو المصداق الخارجي، فقد قال الأنبياء لأبنائهم ﴿فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، وجاءت الآية محل البحث شاهداً على وراثة المسلمين لهذه الوصية والعمل بها إلى يوم القيامة.

الرابعة: هذه الآية وصية من عند الله للمسلمين، وهم يحفظونها ويتلونها في صلاتهم ومساجدهم ومنتدياتهم، وتظهر مضامينها على ألسنتهم وفي أعمالهم، وهي واقية من الكفر والضلالة.

السابع: الصلة بين آية (أم كنتم شهداء) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يأتي الإستفهام الإنكاري لبني إسرائيل، ويأتي الأمر بالإيمان بالله والأنبياء إلى المسلمين، وفيه ترغيب في الإسلام.

الثانية: بيان إكرام الله عز وجل للمسلمين بإطلاعهم على الغيب، وقصص الأمم السابقة.

الثالثة: دعوة كل مسلم أن يأخذ من أبنائه العهد في عبادة الله، والتقيد بالفرائض والسنن.

الرابعة: ذكر أبناء يعقوب ثلاثة من الأنبياء من آبائهم وهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وجاءت هذه الآية بذكر الإيمان بالأنبياء على نحو العموم الإستغراقي .

الأول: الإيمان بما أنزل الله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: الإيمان بما أنزل الله على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

الثالث: الإيمان بما أنزل الله على الأسباط.

الرابع: التصديق والإيمان بما أنزل الله على موسى وعيسى.

الخامس: التصديق بالأنبياء جميعاً من تقدم في زمانه على إبراهيم كآدم

ونوح وصالح، ومن تأخر عنه.

الخامسة: لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليكون المسلمون قرة عين للأنبياء، وحفظة لشرائعهم.

السادسة: من إعجاز سياق الآيات إختتام الآيتين بقوله تعالى ﴿وَيَخُذْ لَهُ

مُسْلِمُونَ﴾، مع التباين في جهة الصدور، فجاء في الآية أعلاه على لسان أولاد يعقوب وهم الأسباط، وفي الآية محل البحث وردت على لسان جميع المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة مما يدل على أن المسلمين ورثة الأسباط، وعدم التعارض بين الورثة والإيمان بما أنزل عليهم الذي ذكرته هذه الآية.

السابعة: وصية الأنبياء بالتوحيد وتعاهد أبنائهم للنبوة من مقدمات بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثامن: الصلة بين آية (تلك أمة) وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: المدار على إيمان الشخص.

الثانية: بيان التكليف ووجوب عبادة الله عز وجل.

الثالثة: دعوة أهل الكتاب لمحاكاة المسلمين إذ يعلنون الإيمان بالله والتصديق بأنبيائه.

الرابعة: تنزيه الأنبياء السابقين وأن قوله تعالى (لها ما كسبت) مدح وثناء عليهم بدليل الأمر للمسلمين بالإيمان بنبوتهم وما أنزل الله عليهم.

التاسع: الصلة بين الآية السابقة (وقالوا كونوا) وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إبتدأت الآية السابقة بقوله تعالى (وقالوا) للدلالة على ما يقوله أهل الكتاب، وجاءت هذه الآية بالأمر من الله للمسلمين (وقالوا).

الثانية: التباين بين القولين أعلاه، فأهل الكتاب يدعون لملتهم، والله عز وجل يقول للمسلمين بالإيمان بما أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء السابقين، مما يدل على إبطال ودحض دعوة بعضهم بهجران

الإسلام.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين تعدد الرد والذب عن الإسلام من وجوه:
الأول: الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقول أنه والمسلمون على ملة إبراهيم.

الثاني: الأمر الإلهي للمسلمين بأن يعلنوا إيمانهم بالله، وتمسكهم بالإسلام بالتصديق بما أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: إمتثال المسلمين لما أمرهم الله عز وجل به، وهو إبطال عملي لدعوة الارتداد، وسبب لبعث اليأس والقنوط في نفس صاحبها.

الرابعة: أختتمت الآية أعلاه بنفي الشرك والضلالة عن إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وجاءت خاتمة هذه الآية لتوكيد تعاهد المسلمين لملة إبراهيم بقوله تعالى ﴿وَحَسْبُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية وآية (فإن آمنوا) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: إتصال ذات اللغة في الخطاب في الآيتين، وتوجهها للمسلمين.

الثانية: تتعلق هذه الآية بإيمان المسلمين وأفراده أما الآية التالية فتخص أهل الكتاب ، فبين الآيتين عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء على وجوه:

الأول: لغة الخطاب، وإرادة المسلمين بها، وأختتمت الآية السابقة بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ ليلحق به المسلمون في بشارة الكفاية.

الثاني: موضوع الخطاب وهو الإيمان.

الثالث: بيان مصداق الهداية، وأما مادة الإفتراق فهي:

الأول: إحراز المسلمين لمرتبة الإيمان، وإمثالهم لأمر الله عز وجل في التصديق بالأنبياء والكتب السماوية المنزلة.

الثاني: حصول الهداية بمضامين الإيمان التي عليها المسلمون.

الثالث: كفاية الله للمسلمين.

الرابع: مجيء خاتمة هذه الآية بتسليم المسلمين أمورهم لله، وإتقيادهم لأوامره، واختتام الآية التالية بالثناء على الله عز وجل وأنه هو (السميع العليم).

الثالثة: جاءت هذه الآية بالأمر للمسلمين (قولوا) وما يدل على لزوم إعلان إسلامهم مما يدل على أنهم في حال من القوة والمنعة، وأن أهل الكتاب يختلفون عن مشركي قريش، فهم لا يعذبون المسلمين ويكروهونهم على ترك دينهم.

ومن الآيات في الشريعة الإسلامية إمضاء البقاء على اليهودية والنصرانية، ولا يرضى بالبقاء على الشرك والكفر.

الرابعة: من إعجاز نظم الآيات الصلة بين هذه الآية والآية التي قبلها والتي بعدها، فلما جاء قبل آيتين ذكر فريق من أهل الكتاب للملازمة بين إتباعهم في ملتهم وبين الهداية، جاءت هذه الآية في بيان مصداق الهداية وأن الإيمان بالله والرسول والكتب السماوية وما فيها من الأوامر والنواهي.

وجاءت الآية التالية في ذكر موضوع الهداية بالذات وأنه مبين وجلي بما في هذه الآية الكريمة من الأحكام.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين كفاية الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لإيمانهم، وهو من الجزاء العاجل في الدنيا على الإيمان، وفيه ترغيب للناس جميعاً بدخول الإسلام، لأن كفاية الله للأمة نعمة عظيمة قال تعالى ﴿لَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١).

السادسة: مع الإيمان والتقوى لا يخشى العبد أحداً من الناس لأن الله عز وجل هو السميع العليم.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (صبغة الله) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: وجوب الإيمان بالله وأنبيائه وكتبه.

الثانية: فوز المسلمين بصدق الإيمان.

الثالثة: بيان الإيمان على نحو التعيين والحصر.

الرابعة: دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل على نعمة الإيمان، وحثهم على التقيد به.

الخامسة: سنخية الإيمان واحدة وإن تباينت وتعاقت الأزمنة.

السادسة: الإنقياد لأوامر الله من الإيمان.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (قل أتحاجوننا) ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: بعد توكيد الإيمان عند المسلمين جاء الأمر بالاحتجاج للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: من وظائف النبوة الاحتجاج، وهي ظاهرة في قصص الأنبياء الواردة في القرآن، واحتجاجهم على قومهم ودعوتهم إلى الله.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين إرتقاء المسلمين في مراتب الكمال الإنساني، فمع الإيمان يأتي الاحتجاج والجدال بالحجة والبرهان.

الرابعة: ندب المسلمين لإخلاص العبادة لله عز وجل وهي المصدق العملي للاحتجاج.

الخامسة: في الآية نكتة عقائدية وهي أن احتجاج المسلمين على غيرهم لم يشغلهم عن الإيمان ووظائفه.

(١) الآية ١٣٨.

(٢) الآية ١٣٩.

إعجاز الآية

تفكك الآية بين عداوة بعضهم ما هم عليه وبين الرسالات السماوية التي يتسبون إليها وتفتح الأبواب لدراسات كلامية وعقائدية تكون حجة عليهم وتجعلهم ينشغلون بنقصهم سواء على نحو الالتفات له، أو محاولة الذب عنه أو الإقرار بالنقص والتخلف عن مسيرة وغايات الرسالات السماوية.

وتبين الآية الهداية التكوينية والسعة في أسباب الهداية التشريعية الأمر الذي يلزمهم بعدم الإصرار على إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويهدي المسلمين إلى الصيغ السليمة في مسالك الإيمان، ويحث الجميع على القيام بوظائفهم الشرعية ويبين وجوه الإتحاد في الشرائع السماوية.

وهذه الآية هي آية التصديق بالتنزيل إذ أنها لم تذكر بعد الإيمان بالله الملائكة واليوم الآخر والأنبياء بالذات، بل ذكرتها بالواسطة والمفهوم، لأن التنزيل جاء بتوكيدها، وجمعت الآية بين أمرين يتعلقان بالأنبياء هما ما أنزل إليهم، وما أوتوه، وفيه نكتة عقائدية، وفيه مسائل:

الأولى: بين التنزيل وما أوتي الأنبياء عموم وخصوص مطلق، فما أنزل على الأنبياء مما آتاهم الله الذي هو أعم، ويشمل المعجزة الحسية، مثل عصا موسى وإبراء عيسى الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى، وفي التنزيل ﴿جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (١).

الثانية: إتباع اليهود لموسى، والنصارى لعيسى.

الثالثة: الإخبار عن تصديق المسلمين بالمعجزات التي جاء بها أنبياء بني إسرائيل، وفيه دعوة لهم للتصديق بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم والتي تحمل معاني التصديق بذاتها، لما فيها من معاني التحدي والخرق للعادة.

الرابعة: جاءت الآية بالعموم بخصوص ما آتى الله الأنبياء كلهم، وفيه إشارة إلى معجزات الأنبياء الذين ذكرتهم الآية بخصوص تلقيهم التنزيل. ومن إعجاز الآية أنها ابتدأت بالإيمان بالله وأختتمت بالتسليم والإنقياد لأمره.

ومن إعجاز الآية مجئ التصديق بنزول القرآن متعباً للإيمان بالله، مما يدل على موضوعيته في مراتب الإيمان والتقوى، ويدل بالدلالة التضمنية على أمور:

الأول: بيان عظيم منزلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي نزل عليه القرآن.

الثاني: دعوة المسلمين لتعاهد القرآن وإستمرار التمسك به.

الثالث: الآية شاهد على سلامة القرآن من التحريف، فان قلت يرد هذا المعنى بإيمان المسلمين بما أنزل على الأنبياء السابقين مع طرو التحريف على بعضها، قلت إنه قياس مع الفارق، لأن المسلمين ينسبون نزول القرآن إليهم وأنه بلغهم من فوق سبع سماوات، وفي كل زمان وجيل يقول المسلمون بأنهم يؤمنون بالقرآن بلحاظ أنه أنزل على صدر نبيهم الكريم.

ويدل قوله تعالى ﴿أَنْزَلَ إِلَيْنَا﴾ على الحصر على المسلمين دون غيرهم بلحاظ كبرى كلية وهي أَنَّ القرآن يدعو الناس جميعاً للإيمان، قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١).

وجاء نعت النزول بحر الجر إلى لإرادة إنتهاء الغاية (انزل إلينا) (أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل) ولم يرد بلفظ علينا لإفادة (على) الإستعلاء وتعدد

مصاديق النزول وشموله لنزول البلاء.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إِذَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بَعُثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ^(١).

فان قلت قد ورد لفظ ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾^(٢)، والجواب إنه حكاية عن فريق من أهل الكتاب وجاءت القرائن بأن المراد هو الإيمان بالتنزيل في ذات الآية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾^(٣)، وتتجلى القرائن أيضاً بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(٤).

ويمكن تسمية هذه الآية بآية ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾، ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا مرتين، إذ جاء بذات الموضوع من الإحتجاج مع إضافة حرف العطف (الواو) بقوله تعالى ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾^(٥)، وهذه الآية هي آية التصديق بالتنزيل إذ أنها ذكرت بعد الإيمان بالله.

الآية سلاح

لقد خاطب القرآن المسلمين بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تسعة وثمانين موضعاً وهنا وردت (قُولُوا) بصيغة الأمر، فبعد اختيار الإيمان إنتقلت الوظيفة إلى دعوة الآخرين للإيمان وفيها بشارة وإخبار عن الثبات عليه وعدم إمكان الإضرار بهم، فالآية سلاح مركب في تثبيت الإيمان في النفوس والحصانة من تحديهم وخصومتهم وفيها إنتقال الى حثهم على الإيمان كطريق هداية وحق.

(١) مسند أحمد ١٦١/١٢.

(٢) سورة البقرة ٩١.

(٣) سورة البقرة ٩١.

(٤) سورة البقرة ٢٣١.

(٥) سورة العنكبوت ٤٦.

وهذه الآية وسيلة سماوية لإرتقاء المسلمين في مراتب المعرفة الإلهية، وآلة مباركة للتفقه في الدين، إذ أنها تلزم المسلمين بالتصديق بكل الكتب السماوية، فهي وإن جاءت بصيغة الإحتجاج إلا أنها تأديب وإرشاد للمسلمين، وفيه إشارة إلى الوظائف العقائدية للمسلمين ورسالتهم إلى الناس جميعاً بجذبهم إلى منازل الإيمان التام الذي لا يفقل عن الأنبياء السابقين وما أنزل الله عليهم.

وفي ذكر عيسى ذم للذين آذوه في حياته، ولم يتدبروا في معجزاته، وفي قوله تعالى ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾^(١)، (ورد عن ابن عباس مرّ عيسى برهط فقال بعضهم لبعض قد جاءكم الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فخذفوه بأمه فسمع ذلك عيسى فقال اللهم أنت ربي خلقتني ولم آتهم من تلقاء نفسي اللهم العن من سبني و سب والدتي فاستجاب الله دعوته فمسخهم خنازير)^(٢).

مفهوم الآية

في الآية تأديب للمسلمين وإرشاد لأرقى صيغ الإيمان بالإقرار بما أنزل الله من الكتب على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي والتسليم بنبوة أنبياء بني إسرائيل، وتوكيد لما إنفرد به المسلمون من خصال التقوى وانهم لم يندفعوا ويقابلوا بالمثل إنكار الآخرين لنبوة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بل اكدوا التسليم بصدق نبوة الأنبياء من بني اسرائيل وغيرهم لأنها حق وصدق، فالظلم والتعدي من الآخرين لا يرد بظلم وتعد وباطل مثله.

(١) سورة النساء ١٥٦.

(٢) مجمع البيان ٣/ ٣٥.

وحسن رد المسلمين واقرارهم بالأنبياء لم يأت إلا عن تأديب قرآني وتوكيد سماوي وسعي مبارك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تجلّى بالسنة القولية والفعلية والتقريرية. فمن السنة القولية اخباره باحاديث كثيرة عن نبوة الأنبياء من بني إسرائيل وغيرهم.

ومن السنة الفعلية إتيان ما يؤكد نبوتهم وقبول الجزية من أهل الكتاب. ومن السنة التقريرية إمضاء أهل الكتاب على دياتهم ومجادلتهم وفق التوراة والإنجيل.

وقدمت الآية ما أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو القرآن لأنه جامع للكتب المنزلة قال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(١)، والقرآن هو الكتاب الباقي الى يوم القيامة والخالي والخالي من التحريف بمعنى ان الإيمان بالقرآن يقطع الطريق على من يحتج بما وضعته يد التحريف في الكتب الأخرى كما ان الإيمان بالكتب السماوية الأخرى يجب ان لا يؤدي الى التفريط بتقديم القرآن في الرتبة.

وهل يشمل قوله تعالى ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ السنة النبوية الشريفة ام انه خاص بالقرآن الجواب ان الآية مطلقة فتشمل الحديث القدسي والسنة النبوية الشريفة وبقرينة ما أنزل الى الأسباط مما يعني ان المراد بالتنزيل أعم من القرآن ويشمل الوحي والسنة النبوية بالإضافة الى عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

وتظهر خاتمة الآية التطابق والتوافق في العهد بين قول المسلمين وقول اولاد يعقوب عندما حضره الموت فقد قالوا أيضاً (ونحن له مسلمون) لتثبت

(١) سورة النساء ١٦٣.

(٢) سورة الحشر ٧.

الآية بصدرها وخاتمتها أهلية المسلمين لورثة الأرض وخلافة الأنبياء في إظهار العبودية لله عز وجل وإقامة الشعائر وأداء الفرائض والجهاد لدوام كلمة التوحيد في الأرض.

وفي الآية مسائل:

الأولى: إكرام المسلمين بتوجه الخطاب لهم، وبما يعينهم على الإحتجاج.

الثانية: دعوة المسلمين للثبات في منازل الإيمان.

الثالثة: دفع الشك والوهم عن نفوس المسلمين.

الرابعة: الآية مقدمة للجهاد والدفاع عن الإسلام بالنفوس والمال والسلاح، لأنها تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامسة: بيان موضوعية التنزيل.

السادسة: دعوة المسلمين لتعاهد القرآن وحفظه آياته عن التحريف

والتغيير.

السابعة: الإخبار السماوي عن قانون ثابت، وهو أن التنزيل مصداق

النبوة.

الثامنة: بيان فضل القرآن على الكتب السماوية السابقة بأن جاء بحفظها.

التاسعة: مجيء الأمر الإلهي للمسلمين على نحو العموم الإستغراقي

الشامل لهم ولأجيالهم المتعاقبة، فالآية إنحلالية، وكل مسلم ومسلمة يجب

أن يقولوا ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ (١).

وهل يشمل الأمر في الآية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ،

الجواب نعم فهو داخل في الخطاب (قولوا) وهو من أسرار التنزيل

بالحرف (إل) في قوله تعالى (أنزل إلينا).

العاشرة: حث المسلمين على معرفة قصص الأنبياء وفوزهم بمعرفة عدد

من أسماء الأنبياء وذكرهم في صلواتهم ومساجدهم ومنتدياتهم ومناجاتهم

وفيه إصلاح للألسنة وهو مقدمة لتهذيب عالم الأفعال والمجتمعات.
الحادية عشرة: الإيمان بالتنزيل فرع الإسلام والإنقياد لأوامر الله عز وجل.

الثانية عشرة: الإقرار بشرف النبوة وأن الأنبياء سادة البشر لأن الله عز وجل اختارهم لتلقي الوحي والتنزيل.

الآية لطف

جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتثبيت معالم الإيمان في الأرض، وإحياء مقامات الأنبياء بتبليغ الناس الآيات التي تدل على إكرامهم ونزول الملائكة عليهم بالوحي من عند الله، إن ذكر أخبار الأنبياء والوحي في القرآن وهو كلام الله الخالد في الأرض دعوة للناس لمعرفة أسرار التنزيل واستخراج الكنوز والمعارف منه.

حينما هاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الأوائل من قريش إلى المدينة وجد فيها إلى جانب الأوس والخزرج اليهود وهم أهل كتاب سماوي وهو التوراة، فجاءت الآيات لتأكيد مضامين ما فيها من البشارات ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأخبار التي تقول أن يثرب هي دار هجرة .

وفي الآية تأديب وهداية للمسلمين، ومدد لهم بمعرفة سنن التوحيد وتأكيد لموضوعية التنزيل في مراتب الإيمان، وفيها واقية من الغلو.

إنفاضات الآية

تتضمن الآية الربط بين عالم الغيب والحضور فيما يخص التنزيل، وتؤكد أن القرآن جاء بعد كتب كثيرة ووحي نزل على الأنبياء السابقين قال تعالى ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَاةٍ مِنَ الرَّسْلِ﴾^(١)، ليلوذ المسلمون بمقام الربوبية بتلاوة

الآيات والتصديق بالتنزيل مطلقاً، وتدل الآية على بديع صنع الله، ولطفه بالأمم السابقة بأن أكرمهم بالتنزيل وفتح لهم باب إكتساب العلوم لتحسين النفوس من الشرور والكلدورات الظلمانية، وجاء القرآن ليكون مدرسة الكمال في المعارف يتضمنه لأسرار التنزيل وعلوم الأولين والآخرين، وفيه دلالة بأنه القرآن واسطة الفيض الإلهي على الناس جميعاً، وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الأنبياء إذ حفظ طرية بين الناس، تدعوهم للتصديق بنبوته، وتلك آية في التنزيل إذ ينزل القرآن بأخبار الأولين ليكون دعوة للآخرين للإلتحاق بهم.

الصلة بين أول وآخر الآية

بعد أن تضمنت الآية السابقة قول وجدل أهل الكتاب لجعل المسلمين يتركون دينهم، وأمر الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بزجرهم بالاحتجاج النافع الذي يكون باب هداية لهم وللناس جميعاً، ووسيلة لتثبيت أقدام المسلمين.

ومن خصائص هذا الاحتجاج أنه مصداق للحكمة في قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١)، وهو خير محض وفيض متصل، وجاءت الآية بالأمر للمسلمين والذي يحمل على الوجوب بأن يعلنوا إيمانهم بالله الذي هو أصل عقيدة التوحيد، والواقية من الشرك والضلالة والجدال بالباطل، وهو السبيل إلى تصديق الأنبياء وما أنزل الله عليهم، وقد جاء في عيسى عليه السلام قوله تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٢)، فلما بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم جاء بالأمر بالتصديق ليس بالتوراة

(١) سورة الجمعة ٢.

(٢) سورة الصف ٦.

وحدها بل بكل ما أنزل على الأنبياء السابقين وفيه نوع إكرام له وإصلاح وبيان لموضوعية نبوته في إصلاح النفوس، وهو حجة على الغير ومع أن التنزيل مصاحب لوجود الإنسان في الأرض، وأن الوحي أول ما نزل على آدم أبي البشر ونزل على نوح وغيره من الأنبياء من سبق زمانهم إبراهيم عليه السلام إلا أن الآية ابتدأت بذكر ما أنزل على إبراهيم لوجوه:

الأول: إنتساب بني إسرائيل لإبراهيم عليه السلام.

الثاني: موضوع الاحتجاج وهو المعنى الأعم للتنزيل وعدم حصره ببني واحد.

الثالث: مجيء الآية السابقة بالإخبار عن إتباع المسلمين لملة إبراهيم.

الرابع: تأكيد حقيقة وهي أن إتباع إبراهيم بسبب ما أنزل الله عليه.

وجاءت الآية بخصوص الأنبياء بأمرين:

الأول: الإيمان بما أنزل إلى فريق منهم.

الثاني: الإيمان بما أوتي موسى وعيسى عليه السلام، لبيان السعة في فضل

الله عز وجل على الأنبياء، وفي الآية تجديد للدعوة للتصديق بما آتى الله عز

وجل موسى وعيسى من البينات الباهرات، قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ

مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾^(١).

وتبين الآية تأديب الله عز وجل ورسوله للمسلمين، وتعليمهم إكرام

الأنبياء جميعاً وعدم التفرقة بينهم، فمما يمتاز به المسلمون أنهم لا يكفرون

ببعض الأنبياء، أو يحقدون بعض ما أنزل الله على أحدهم، بل يكون

التصديق والإيمان بالأنبياء على نحو الموجبة الكلية وفي الآية تعريض بالذين

يحقدون ببعض الأنبياء، وشاهد على حاجة الناس لبعثة النبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم وأن فيها كمال الدين.

وجاءت الآية بثلاثة أمور تتعلق بإيمان المسلمين وعلى نحو الحتم

والوجوب وهي:

الأول: الإيمان بالله.

الثاني: التصديق بالتنزيل مطلقاً.

الثالث: إنقياد المسلمين لأمر الله .

والصلة بينها من وجوه:

الأول: الإيمان بالله قول وفعل.

الثاني: الكتب السماوية نازلة من عند الله عز وجل على أنبيائه.

الثالث: من الإيمان بالله الإمثال لأوامره ونواهيه التي جاءت في الكتب

السماوية المنزلة، وجاءت خاتمة الآية بالضمير الهاء في قوله تعالى ﴿وَحُضِرَ لَهُ

مُسْلِمُونَ﴾، ويعود الضمير لله عز وجل فمع ورود معنى التنزيل في الآية

بالاسم الوصول (ما) .

وذكرت أسماء ستة من الأنبياء في الآية إلا أن الضمير يعود لله وأول

الآية في قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، لأن المسلمين يلتقون مع الأنبياء في

الإسلام والإنقياد لله، فلا يكون الإسلام إلا له سبحانه وهو الذي بيده

مقاليد الأمور، لذا ورد على لسان الأسباط قبل ثلاث آيات في الإجابة على

سؤال يعقوب في وصيته إنقيادهم لله^(١).

التفسير الذاتي

يمكن أن نسمي المسلمين أنهم الأمة المؤمنة لأن الآية تتضمن إيمانهم بالله

وبما أنزل، وإنقيادهم لأوامره، وتفويضهم لأمرهم، وتسليمهم باليوم الآخر

الذي جاءت الكتب السماوية كلها به، لقد أمر الله عز وجل المسلمين بمجدال

أهل الكتاب بالحكمة، والموعظة قال تعالى ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي

(١) أنظر الآية ١٣٣.

هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴿١﴾.

والآية محل البحث من الجدال بالأحسن، وفيه أمور:

الأول: بعث السكينة في نفوس أهل الكتاب من نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودخول الناس فيه.

الثاني: إرشاد المسلمين إلى التمييز في المعاملة بين الكفار وأهل الكتاب ولم تجد أحداً من المسلمين وفي كل زمان يشكل على الجزية مثلاً ويقول بتوسعته أو تضيقه، لأنه حكم بسيط يتقوم بالإيمان بالله والكتاب.

الثالث: إحتراز المسلمين من المقولات الباطلة، وأسباب الشك والريب.

الرابع: الإيمان بالقرآن واقية مما طرأ من التحريف على الكتب السماوية السابقة، (وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً لم تصدقوهم، وإن كان حقاً لم تكذبوهم) (٢).

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان المنزلة الرفيعة للمسلمين إذ يتلقون الأوامر من عند الله بواسطة سيد الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: توجه الأمر الإلهي الوارد في هذه الآية (قولوا) إلى كل مسلم ومسلمة إلى يوم القيامة، فما أن يبلغ المسلم سن التكليف حتى تطل عليه هذه الآية بالأمر التفصيلي في مصاديق الإيمان.

الثالثة: تقديم الإيمان بالله في الإحتجاج، وفيه دعوة لأهل الكتاب والناس للشهادة على صدق إيمان المسلمين.

الرابعة: بعث اليأس في نفوس الكفار من إرتداد المسلمين، قال

(١) سورة العنكبوت ٤٦.

(٢) الكشاف ٣ / ٢٠٨.

تعالى ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (١).

الخامسة: دعوة الناس للتصديق بالكتب السماوية كلها.

السادسة: بيان الملازمة بين دخول الإسلام وبين التصديق بنبوة الأنبياء جميعاً وما أنزل عليهم من الكتب فليس لليهودي مثلاً أن يدخل الإسلام ويبقى على جحوده بنبوة عيسى عليه السلام.

السابعة: إرتقاء المسلمين في منازل المعرفة الإلهية، وترديد أسماء الأنبياء، وتلاوة هذه الآية والآيات الأخرى التي تتضمن أسماءهم، وهي مناسبة للإقتداء بهم.

الثامنة: بعث الهبة للمسلمين في نفوس الناس جميعاً لحسن إسلامهم، وصدق إيمانهم.

التاسعة: جاء في وصف المسلمين بأن (صدور أناجيلهم)، وتدعوهم هذه الآية لمعرفة قصص الأنبياء سواء الذين ورد ذكرهم في هذه الآية أو آيات القرآن الأخرى أو لم يذكروا بالإسم.

العاشرة: خاتمة الآية شهادة سماوية بأن المسلمين مخلصون في عبادتهم لله عز وجل، وفيه دفع للوهم بأنهم يتخلون عن الإسلام وأحكامه وما فيها من الأوامر والنواهي.

التفسير

قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾

الآية بداية مرحلة من الجهاد العقائدي في التأريخ الإسلامي باللجوء الى سلاح الحجة والبرهان وقيادة الأمم الى سبل الهداية بالذي عندهم من غير تحريف او تغيير او تبديل، ولكن بتفحيح وتصحيح وتبيينه الى وجوهه المتعددة بعد ان قالوا باتحادها وحصرها باليهودية والمسيحية وهذا الجهاد

جاء عن ضرورة اذ انهم توجهوا الى المسلمين بدعوتهم الى ديانتهم بغير حق مع ما في تلك الدعوة من الخلل المركب من النقص الذاتي والغيري، فالذاتي ظهور التحريف في ديانتهم بل ان النصارى قالوا بالتثليث، واليهود قالوا بالتشبيه، واما الغيري فهو النسخ الذي تعقبها بالدعوة الإسلامية ونزول القرآن ليكون الإسلام ناسخاً لها.

فشطر من النصارى يقولون بان الخالق واحد ولكنه في وحدته مؤلف من ثلاثة أقانيم وهي جمع إقنيم أي أصل، والثلاثة هي:

الأول : الأب.

الثاني : الابن.

الثالث : روح القدس.

والابن هو المسيح، تجسد ونمى في بطن مريم العذراء حتى ولد، ولما شب دعى الناس الى الإيمان بالابن وايه، ويعتبر التثليث اهم قواعد الديانة المسيحية ويقولون باستقلال كل من الأقانيم الثلاثة مع اعطاء أفضلية وقرار بالأب من حيث وجوده بذاته اذ ان الابن وروح القدس مترشحان عنه، الابن متولد من الأب اما روح القدس فهو مترشح منهما معاً، وهم ازليون وسنختهم واحدة قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ خَيْرَ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾^(١).

وخالف الأرثوذكس في ترشح وانبثاق الروح منهما، والظاهر ان المقصود بروح القدس ملك او ملكة قدسية يجعلها فيمن يشاء، ومما يجب ذكره هنا ان الأناجيل ذكرت الأب والابن وروح القدس وليس فيها إشارة إلى التثليث، والأناجيل المشهورة أربعة كل واحد منها كتبه أحد أتباع عيسى عليه السلام من تلامذته او تلامذتهم وهم: يوحنا، لوقا، متي، مرقس، وقد كانت نحو سبعين إنجيلاً وبينها إختلاف كثير ولكن الأمباطور قوسطنطين أمر بتوحيدها فاتفق رؤساؤهم على هذه الأربعة التي تتحدث عن حياة المسيح

(١) سورة النساء ١٧١.

في الغالب.

وفي الآية تحديد لمعنى الإيمان بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام فهو الإقرار والتسليم من غير إتباع أو وقوف عندها، وهذه الآية تبين عدم التعارض بين الإسلام بالإيمان والنبوة مطلقاً.

والآية تبدأ بإعلان الإيمان بالله عز وجل وتنتهي بالتسليم له اذ ان الغاية هي التوحيد وبذلك تنحصر مقدمة البرهان ليكون يقيناً واجب القبول ويتفرع عنه بالضرورة يقيناً بالمعنى الأخص، فالإيمان بالله عز وجل والتسليم لأمره يقتضي قهراً أو إنطباعاً الإقرار بالقرآن ككتاب منزل من عند الله عز وجل لذا ترى تقديم موضوع الإنزال إلى المسلمين في الآية.

وفي الآية السابقة جاء الأمر الإلهي بصيغة المفرد خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل) في مواجهة قولهم ودعوتهم لليهودية والنصرانية نيابة عن الأمة وتحمل لأعباء المسؤولية بشخصه الكريم ووظيفة النبوة وان كان يعني في مفهومه الأمر للأمة بالواسطة، اما هذه الآية فلم تكن للرد عليهم فقط، بل انها ميثاق الإيمان وتحديد معالمة بالمعنى الأعم، والنظر في مصاديق الإيمان في هذه الآية يظهر بجلاء ووضوح ان الإسلام هو الشريعة الدائمة في الأرض والخاتمة الجامعة المانعة للشرائع السابقة، الجامعة للأحكام والمانعة من ضياعها او نقصها.

ويمكن إجراء مقارنة بين قول أهل الكتاب وما عليه المسلمون في هذه الآية، فبينما ورد ذكر اليهودية والنصرانية في دعوتهم دون ذكر الأنبياء مع ان دياناتهم تسرب لها التحريف والتغيير، ترى الإيمان في هذه الآية جاء صريحاً وباسماء الأنبياء مع التعدد والتساوي بعرض واحد بين الأنبياء والتوكيد فيه على التوحيد والإيمان بالله عز وجل لأنه أساس الإيمان بالنبوات على تعددها، والتعدد ذاته دليل وشاهد على صدقها لما يترشح منه كضابطة كلية متعارفة ومتوارثة لمعرفة النبوة وقوامها الايتان بالآيات والمعجزة.

يلاحظ ان قولهم جاء خالياً من التوحيد وذكر الإيمان بالله عز وجل لإقبالهم على ما في دياتهم من الخصوصيات المستحدثة التي حجت عنهم النظر الى ما هو الأهم في مراتب الإيمان، وجعلت الاسلام حاجة وضرورة لتعاهد لواء التوحيد في الأرض.

إن ذكرهم ودعوتهم تعلق بالاسم بينما المسلمون يؤمنون بالتنزيل أي الخالي من التحريف والتغيير.

وصحيح أن قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ هل ينحصر بالمسلمين إلا أنه يشمل جميع المكلفين حتى اليهود والنصارى لإتحاد التكليف وعالمية الرسالة الإسلامية فيكون بالنسبة لغير المسلمين نصحاً وارشاداً ودعوة للتدارك وهو جهاد للمسلمين ويتضمن عناوين الثبات على الإيمان، أي انه خطاب للمسلمين في الرد على دعوتهم الباطلة بدليل قوله تعالى ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، وغير المسلم منع عن نفسه باختياره تلقي هذا التكليف الذي يتضمن الإكرام والتزكية فجاءت هذه الآية لطفاً من الله عز وجل لجذبه لمنازل الإيمان وطرده النفرة منه.

وفي الآية تشريف خاص بالمسلمين ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، فالقرآن نازل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاعتبر في مقام الإفتخار بانه نازل على المسلمين وهو فعلاً نازل اليهم ولكن بالواسطة، واسطة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن خلاله للأمة كما في قوله تعالى ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾^(١) والآية الأخرى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَكَرْسُوهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، فان عزتهم مشتقة من عزته تعالى، نعم (الى) حرف جر له سبعة معان منها:

(١) سورة يونس ٦٥.

(٢) سورة المنافقون ٨.

الأولى : انتهاء الغاية الزمانية كقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾^(١).

الثانية : انتهاء الغاية المكانية كقوله تعالى ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾^(٢).

الثالثة : المعية والإشتراك كقولك قرأت الجزء الخامس الى الخامس عشر.

الرابعة : التبيان وهي التي تدخل على ما هو فاعل بالمعنى كما في قوله تعالى ﴿السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾^(٣).

الخامسة : مرادفة اللام كقوله تعالى ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَأْمُرُ﴾^(٤).

السادسة : مرادفة في.

السابعة : مرادفة عند.

وفي الآية عدة مسائل:

الأول : هل (الى) في قوله تعالى ﴿أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ يحمل معنى آخر غير المقصود من الإرسال الى الأنبياء الآخرين، الجواب: لا ولكن بالقرينة يستبين المعنى والفارق، وقد بينا في مباحث علم الأصول أن الحرف يستلزم موضوعاً يتقوم به معناه، وعن الإمام علي عليه السلام: الاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، وفي رواية الحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.

ولا نقول بأن الحرف ليس له معنى مطلقاً، بل له معنى ولكنه أدنى

(١) سورة البقرة ١٨٧.

(٢) سورة الاسراء ١.

(٣) سورة يوسف ٣٣.

(٤) سورة النمل ٣٣.

مرتبة من معنى الاسم والفعل، نعم ليس له معنى قائم بنفسه ولا يتم إلا بالإضافة لغيره ويكون تابعاً له، كما أن المعنى المركب منه ومن غيره من الأسماء والأفعال لا يتم إلا به أي بالحرف مما يدل على حاجتها له أيضاً وهو من أسرار اللغة العربية وتعدد معاني اللفظ القرآني، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١)، ومعنى الحرف إيجادي فهو أداة للربط بين مفردات الكلام، فلا يكون له معنى سابق عن مرحلة التلطف والاستعمال، فلما جاء قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَّا تَبَيَّنَ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّاسِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْعَمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالتَّنْزِيلِ وَأَنَّهُمْ يَشْكُرُونَ لِلَّهِ هَذِهِ النِّعْمَةَ وَيَقْرُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ كِتَابٌ نَازِلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

فالتنزيل الى ابراهيم والأنبياء الآخرين كان بلا واسطة احد من البشر، والمسلمون تلقوا القرآن والوحي بواسطة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وهو مدح وثناء للمسلمين، والضمير في المقام ينصرف الى عموم المسلمين وليس الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحده بقرينة لغة الخطاب (قولوا).

الثاني : في الآية مصداق لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: علماء أمتي كأنبيا بني اسرائيل^(٢)، بتقريب ان الذي يرد بالحجة والبرهان ويدفع الأباطيل وينفي التحريف يستحق عنوان (العالم)، وبدليل ان الذي تلقى التنزيل ولو بالواسطة عالم.

الثالث : في دراسة مقارنة بين ذكر المسلمين وغيرهم في الآية يظهر اختصاص المسلمين بالتنزيل اليهم وان كان المقصود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بينما ذكر انبيائهم فقط ووردت صفة أهل الكتاب للإتيان والعطاء وأنهم ملحقون بأنبيائهم في التنزيل.

(١) سورة يوسف ٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٣٠٢/٨.

الرابع : هذه الآية تؤكد لأهلية المسلمين لمنازل العلم والاحتجاج، وتلقي التنزيل بالفهم والعلم والعمل وحفظه كأمانة في الأرض.

الخامس : هي دعوة للمسلمين ان يكونوا علماء وان يجعلوا التنزيل منهجهم وملاك العمل عندهم.

السادس : في الآية حث على الإتفاق والإلتقاء على فرد إيماني جامع بين أهل الملل السماوية، قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾^(١).

السابع : الإشتراك في سنخية الجهاد بين المسلمين من جهة، والأنبياء من جهة أخرى.

الثامن : دعوة الناس للإسلام وما جاء به القرآن، وتثبيت القرآن للنبوات السابقة مطلقاً، فقد أرادوا عن قصد أو من دون قصد درس ما سبق من التنزيل كما أعرضوا عن التنزيل الذي جاء بعد موسى وعيسى عليهما السلام.

ومن إعجاز الآية أنها لم تقل (ما أنزل علينا) بل ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ لأن بين الأمرين عموماً وخصوصاً مطلقاً، فما أنزل إلينا أعم لإرادة منتهى الغاية، أي من أجلنا وإصلاحنا، وهو هبة لنا.

ولم تأت (على) في الآية لمنع اللبس والترديد لأن القرآن نزل على صدر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فان قلت إن الآية ذكرت ما أنزل الله على إبراهيم والأنبياء الآخرين بذات حرف الجر (إلى) لقوله تعالى ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ إِلَّا بِإِذْنِ إِبْرَاهِيمَ﴾، والجواب من وجوه:

(١) سورة آل عمران ٦٤.

الأول: إنتفاء اللبس في إبراهيم والأنبياء لظهور المعنى بأن ما أنزل من الكتاب عليهم بالذات ، وأن كل واحد منهم رزقه الله الوحي بينما تلقاه المسلمون بواسطة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: بيان منزلة المسلمين وموضوعيتهم في التنزيل بأن خصهم الله بالذكر.

الثالث: الآية من مصاديق تفضيل المسلمين في قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الرابع: بيان حقيقة وهي تعاهد المسلمين لآيات القرآن وإلى يوم القيامة.

الخامس: بيان المائز في القرآن من بين الكتب السماوية كلها، وهو نزوله إلى أمة عظيمة تتلو آياته وتعمل بأحكامه وتحفظه ومطلق التنزيل.

قوله تعالى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾

توكيد سماوي لحقيقة رسالية وهي ان كلاً من ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب انبياء نزلت اليهم الكتب وجاهدوا في سبيل الله، والآية في مفهومها تدل على لزوم إيمان اهل الكتاب بهم وبما أنزل اليهم من الأحكام مطلقاً او ما انزل اليهم من البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد ابتدأت الآية السابقة بقول من فريق من الناس وخطاب منهم موجه للمسلمين ﴿وَقَالُوا كُفُّوا﴾^(٢)، وتضمن الأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم باعلان الثبات على فطرة التوحيد وملة إبراهيم عليه السلام.

وابتدأت هذه الآية بتلقين وتعليم وإرشاد من الله عز وجل للمسلمين ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وهو آية في اللطف الإلهي بالمسلمين ويتلوا المسلمون

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ١٣٥.

في صلاتهم اليومية قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، فجاء مصداق من الهداية في هذه الآية الكريمة باعلان الإيمان بالتنزيل وهذا الإعلان رد على دعوة الغير لهم.

ليجتمع في الرد عليهم أمران:

الأول : الأمر من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه على نهج إبراهيم والبراءة من الشرك.

الثاني : الأمر للمسلمين بالإيمان بالله والتنزيل وما يقوله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذا يدخل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الخطاب الإلهي ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ بلحاظ قانون ثابت وهو أنه إمام المسلمين وهو من أسرار الكلام عن الذات ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ لأن القرآن نزل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون تبع له.

ويفيد الجمع بين الآيتين أن ما انزل على الأنبياء، وما أوتي موسى وعيسى ليس فيه دعوة للمسلمين بأن يكونوا هوداً أو نصارى.

وتدعو الآية إلى معاني القرب وأسباب الرحمة بين المسلمين وأهل الكتاب بأن يكون الجامع بينهم الإيمان بالله والأنبياء والتنزيل وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾^(٢).

بحث منطقي

علم المنطق وهو آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر بلحاظ القواعد، ان طالب العلم والمبتدأ في التحصيل والذي يتعرض للجدال يحتاج الى تنمية الملكة وشحذ الذهن والتمرين على الاستدلال على

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة آل عمران ٦٤.

مطالبه وآرائه ومعرفة قواعد الجدل، والزام الخصم بالإقرار بالقواعد المتسالم عليها لتكون بداية لإقامته للبرهان.

فهذه الآية وما شابهها تأديب وتعليم للمسلمين في الذب عن الإسلام باللسان والرأي والقول الكريم وتظهر أن الإسلام لم يتتصر بالسيف وحده، فلا غرابة أن تأتي الآية بصيغة الجمع (قولوا) ولم تكتف بصيغة المفرد للإخبار عن الإيمان الجازم عند عموم المسلمين وعدم إمكان التراجع والإرتداد، وتكشف عن أهلية المسلمين لتلقي خطاب التكليف مباشرة واستعدادهم لمواجهة أعداء الدين وأهل الريب والشك، وفيه ثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أداء رسالته، وتفقه المسلمين في الدين، وهو من مصاديق دعاء إبراهيم بخصوص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١).

وتعتبر المناظرة صناعة قديمة عند أهل الكلام والعلوم الأدبية والفلسفية لها قواعدها وأصولها الثابتة التي تجعلها تعطي ثمارها أو تكون آلة لإثبات قول أو الانتصار لرأي وقد الفت فيها كتب كثيرة منها ما يتعلق بأدائها وقواعدها، وسميت في الإصطلاح بالجدل ولكنه قد لا ينطبق عليها تماماً إذ أنه لغة يعني الخصومة والمدافعة ومنه ما هو حسن ومنه ما هو قبيح.

والجدل المنهي عنه هو الذي يكون مقابل الحجة والبينة والإنقطاع إليه، والإنشغال الدائم به مذموم عقلاً وشرعاً لذا فمضمون الآية الكريمة ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ ليس من الجدل المحض بل هو جزء من جهاد المسلمين وإعمالهم العبادية، وعمومات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعتبر في جانب منه حصانة للنفس.

والحسن من الجدل ما ورد في قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بَاتِّبِ هِـ

أَحْسَنُ^(١) وتسمى هذه الصناعة باليونانية "طويقا" والتقسيم الذي وضعه لها القرآن أكثر دقة، وفيه توظيف حسن لها ونبذ لوجوهها العقيمة فقد يكون المجادل على باطل ويفتخر ويصر بمجده على ما عنده ويظنه صواباً ويتعصب له وتأخذه الحمية ولا يكون له هم إلا الانتصار لقوله حقاً كان أو باطلاً فيأبى التراجع عنه، لذا جاءت الآية الكريمة بدعوتهم الى الإيمان بالنبوة على نحو الإطلاق والاتحاد والتعدد، ومنه الإيمان بنبوة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به من عند الله.

والجدل مع أهل الكتاب حاجة، وهو آلة الرسالة الحققة بلحاظ الحداثة، فقد إعتادوا على ديانة ومذهب متوارث وليس من السهولة تسليمهم بنقضه وهدمه وإبطال ما إعتادوا عليه وإعتقدوا صحته، ومن المدد والتخفيف الإلهي عن المسلمين أن ديانات أهل الكتاب مقدمة للإسلام وممهدة له وعون على إنتشاره، والجدال والخصومة وإن كانت عائقاً وسببت الأذى للمسلمين، إلا أنها في جانب آخر تعاهدت لواء التوحيد في الأرض ولو على نحو الموجبة الجزئية وكانت تحمل البشارات ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

كما ان المشاق لم تتولد او تترشح عن المبادئ والديانة، بل عن الأشخاص والأفراد، والخلل في كيفية الإعتقاد لذا جاء الجدل في القرآن لأعادتهم الى سبل الرشاد بالحكمة وبيان المعارف الإلهية التي يشترك فيها الموحدون وتذكيرهم بما يجب عليهم من عند الله عز وجل لتغيير الوضع، أي الرأي الذي يلتزمون به والذي يسمى في صناعة البرهان (المطلوب).

والرأي في صناعة الجدل على قسمين:

الأول: صاحب الرأي يؤمن به.

الثاني: ما يلتزم به ويدفع عنه ويسعى لإثباته والقسمان في الغالب امر

واحد، وسياق الآيات هنا يحتمل انهما عند بعضهم مختلفان فكلمة قولوا تدل بالدلالة الإلتزامية على حثهم للرجوع الى ما يؤمن به المسلمون، ونبد الإصرار على ما يظهرون الإلتزام به والمجادلة عنه.

ومن الآيات في المقام ان الإسلام لم يعتمد الجدل وحده بل جاء بالبرهان وإرادة عموم الناس قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١)، وأختلف في البرهان في الآية أعلاه على وجهين:

الأول: المراد هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما معه المعجزات القاهرة.

الثاني: المقصود القرآن وإعجازه الذاتي.

والبرهان متقدم رتبة على الجدل لما فيه من تحقيق المقصود وإثبات المطلوب بالحجة والدليل، كما يخاطب العقول ولكن هناك اسباب يلجأ معها الى الجدل كما جاء الإسلام بعلم جديد وهو ان الجدل يتضمن البرهان ويعززه ولا ينفك عنه لأن الإسلام رحمة، وهو من عمومات ومصاديق الرحمة في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الفوارق بين القوانين السماوية والقواعد الجدلية التي يؤسسها الناس.

ويعتبر الجدل في هذه الآيات من طرف الغير، اما المسلمون فانهم يجادلونهم بالبرهان مع المعجزات التي ظهرت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيمكن ان نسميه (الجدل البرهاني) لإخراج طريق الشغب والشبهة وتنزيه القرآن عنه، فجدل القرآن اعجاز ويثبت بذاته انه كتاب سماوي.

ومن الفوارق بين الجدل والبرهان ان الجدل يأتي بالقواعد المعروفة والمشهورة وان لم تكن حقاً، والغاية فيه تحدي الخصم والغلبة عليه، أما البرهان فيأتي بالمقدمات السليمة كطريق لإقامة الحجة.

(١) سورة النساء ١٧٤.

قوله تعالى ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾

السبط ابن البنت ، والأمة في الخير، وهم في بني اسرائيل كالقبائل في بني اسماعيل وهم اثنا عشر سبطاً، كل سبط ينتهي الى ولد من اولاد يعقوب عليه السلام قال تعالى ﴿وَقَطَعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ سَبْطًا أُمَمًا﴾^(١)، جاء هذا التقسيم والتغاير في الاسم للفصل بين اولاد اسحق واولاد اسماعيل. وعن الباقر عليه السلام: انهم كانوا اولاد الأنبياء، ولم يكونوا فارقوا الدنيا الا سعداء، تابوا وتذكروا ما صنعوا^(٢).

وذكر ان أبناء يعقوب صاروا انبياء بعد توبتهم، لظاهر الآية وما فيها من التنزيل وقد يكون الإنزال اليهم كالإنزال الى المسلمين الوارد في هذه الآية أي بالواسطة، بواسطة يعقوب ويوسف والأنبياء من بعده، وفي الآية احتمالات ووجوه:

الأول : المراد بالتنزيل لهم هو كالتنزيل للمسلمين.

الثاني : التنزيل لهم بالذات كأنياء.

الثالث : التنزيل لهم ولكن لا بعنوان النبوة بل الوحي مطلقاً.

الرابع : التنزيل الى الأنبياء من أولادهم. واردة المعنى الأعم من الأسباط فمما يتصف به بنو اسرائيل كثرة الأنبياء، فكل سبط يكون فيه على مرّ الأجيال وتعاقب الزمان أنبياء، ويمكن الإشكال عليه بأن موسى وعيسى من ذرية الأسباط إلا أن يكون من عطف الخاص على العام.

لقد بعث الله عز وجل من بينهم انبياء ، ولم تذكر أسماؤهم وكثير من الأنبياء لم يرد اسمه في القرآن فجاء النعت بالأسباط في الإتيان بالكل واردة الجزء وكذا العكس بلحاظ المتعلق، او أن المراد بالأسباط كياناتهم الاجتماعية آنذاك فيقال: بعث نبي في سبط آل فلان، او أن النبي يدعو

(١) سورة الاعراف ١٦٠.

(٢) مجمع البيان ١/٢١٧.

الأسباط الى التوحيد، وفي بعض الأخبار ان الله تعالى جعل النبوة في ولد بنيامين واخرجها من ولد يوسف، كما اعتبر يوسف وداود وسليمان من الأسباط وان لم تذكر اسماءهم في هذه الآية.

والآية تنبر عن اصطلاح قرآني وهو ان المراد من الأسباط معنيان:

الأول : عام العام هو امم بني اسرائيل.

الثاني : خاص هو الأنبياء منهم، وفي الحديث: الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) أي قطعتان وطائفتان منه^(١).

وأولاد يعقوب هم اثنا عشر: يوسف وبنيامين وزبالون وروبل ويهوذا وشمعون ولاوي ودان وقهاب ويشجر ونفتالي وجاد.

قوله تعالى ﴿وَحَزَنَ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

إعلان لثبات الإيمان والتصديق الجازم وإخبار لأهل الجدل باليأس من المسلمين لأنهم منقادون إلى الباري عز وجل فيما أمر به، وفيها تأكيد بأن الإيمان بالأنبياء لا يعني التفريط بسنن التوحيد، فهو فرع من الإقرار بالربوبية لله تعالى، فالآية في مفهومها طرد للغلو والتفريط في الفرائض، وتقييح للإصرار على الإقامة على العناد ولزوم التسليم لأمره تعالى، وما فيه من النسخ والإرتقاء في الأحكام والتكاليف وتعاقب الأنبياء الى حين ختمهم بسيدهم الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وجاءت الآية بصيغة العموم المجموعي والاستغراقي والإفرادي، فالمسلمون جميعاً كأمة منقادون لله عز وجل، مستجيبون لأمره، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، والمسلمون كأفراد وأمة مسلمون أمورهم لله عز وجل، وكل فرد من المسلمين ذكراً أو أنثى خاضع وخاشع لله عز وجل، وسلم وجهه له، لا يشرك به شيئاً وهم كأسباط بني

إسرائيل في وراثة إبراهيم عليه السلام كما ورد عنه في التنزيل ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾

أي ما أعطاه ومنحها الله عز وجل، وذكرت الآية ما رزق الله عز وجل موسى وعيسى من ذخائر النبوة بصفة الإتيان وليس التنزيل وحده، وفيه مسائل:

الأولى: إكرام موسى وعيسى عليهما السلام بذكرهما بلفظ مخصوص.
الثانية: في الآية احتجاج على بني إسرائيل، واليهود يتبعون موسى عليه السلام، والنصارى يتبعون عيسى عليه السلام.

الثالثة: الدعوة لمقابلة المسلمين بالمثل أي بتصديقهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما صدّق المسلمون بنبوة موسى وعيسى، بينما يختلف الأمر تماماً مع الكفار، فحينما طلب رؤساء قريش من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو في مكة وفي قلة من الأصحاب وإنعدام الناصر أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون هم الله معه سنة نزل قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ❖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❖ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❖ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾^(٢).

ودخل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسجد الحرام ووقف على رؤسهم وقرأ السورة حتى فرغ منها فأيسوا منه فأذوه وأصحابه أشد الأذى. أما الآية محل البحث فنزلت والمسلمون كثيرون العدد وفي منعة، ومع هذا جاءت بلغة الإحتجاج والإقرار بما عليه أهل الكتاب من إتباع موسى وعيسى لأنه حق، وهذا التباين دليل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن المدار في الحكم هو الحق ومرضاة الله.

(١) سورة البقرة ١٣١.

(٢) سورة الكافرون ١-٣.

الرابعة: الإشارة إلى النسخ في الشرائع وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم جاء بالشرعية التامة الجامعة للأحكام.

الخامسة: الإخبار عن تفقه المسلمين في الدين، وتلقيهم الأحكام والحكمة من عند الله عز وجل.

ولم تذكر الآية موسى وعيسى عليهما السلام بلغة العطف في التنزيل، فلم تقل (والأسباط وموسى وعيسى) بل ذكرت موسى وعيسى بلغة الإتيان لإرادة المعنى الأعم، من التنزيل وشمول المعجزات الحسية التي جاء كل واحد منهما مما جاء هو معروف عند أهل الكتاب.

ومن الآيات أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وجاء الإتيان هنا على نحو الإجمال، وجاءت آيات عديدة تبين الآيات التي جاء بها موسى قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(١)، قال تعالى ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(٢)، كما ذكر الآيات إتيانها الكتاب قال تعالى ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾^(٣)، ومن الآيات أن الله يذكر عيسى بنسبته إلى مريم، ويرد ذكر المسلمين له باسمه المجرد من غير نسبة إلى أمه، لأن مضمون الآية هو التصديق بالإنجيل الذي أنزله الله عليه والمعجزات التي صاحبته من حين ولادته.

وذكرت هذه الآية أسماء ستة من الأنبياء ثلاثة منهم من الخمسة أولي العزم هم: إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، بالإضافة إلى الإشارة في أول الآية إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن عليه، وهو من الخمسة أولي العزم وسيد الأنبياء والمرسلين قوله تعالى ﴿وَمَا أُوْتِيَ

(١) سورة الأسراء ١٠١.

(٢) سورة البقرة ٨٧.

(٣) سورة الأسراء ٢.

التَّيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ»، بعدد ذكر الإيمان بالله والقرآن الذي أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزل على عدد من الأنبياء وذكرهم بالاسم هم الأسباط.

وجاء هذا الشطر من الآية للإخبار عن التصديق بنبوة كل الأنبياء على نحو العموم الإستغراقي وفيه تعريض بالذين يؤمنون ببعض الأنبياء، ويحددون بنبوة بعضهم وما أنزل الله عليهم، مع آية في تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المقام وهي أن الذي أنزل عليه يثبت إعجازه بذاته، وكل آية تخاطب العقول، ومنها هذه الآية وبديع ما فيها من صيغ الإحتجاج.

وتدعو الآية إلى أمور:

الأول: التسليم بكثرة عدد الأنبياء، وعجزنا عن إهانتهم، والشواهد عند بني إسرائيل كثيرة، فقد كان يبعث أكثر من نبي في زمان وبلدة واحدة.

الثاني: إقتران التنزيل والوحي بالنبوة، فكل نبي يوحى له الله عز وجل، ويكون الملك واسطة بين الله وبينه.

الثالث: التصديق بالأنبياء جميعاً من نعرفه بالاسم أو الفعل والكتاب، أو لا نعرفه ولم يذكر إسمه في الكتب السماوية.

الرابع: لزوم عدم التبعض في التصديق بالأنبياء، والتصديق ببعضهم دون بعضهم الآخر.

بحث بلاغي

يظهر في الآية حسن النسق وهو الإتيان بجمل متتالية متعاقبة بعضها معطوف على بعض تشد السامع، ولكن لو انفردت كل جملة فانها تستقل في معناها، فالترتيب ظاهر ويفيد الكثرة والتعدد وعظيم المسؤولية لثقل الأمانة ولكن مع الكثرة يكون عظيم الثواب في الإيمان بالنبوة والأنبياء على نحو العموم المجموعي وبما أوتي الأنبياء من الوحي والكتب المنزلة ثم

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الآية ١٣٧.

الإعراب واللغة

قرأ ابن عباس وابن مسعود: بما آمتم به، وقرأ أبي بالذي آمتم به^(١).
 فان آمنوا: الفاء إستئنافية، إن: حرف شرط جازم، آمنوا: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، الواو: فاعل، بمثل: الباء حرف جر، مثل: اسم زائد جاء للتشبيه والإحتجاج.
 ما: اسم موصول في محل جر بالإضافة، آمتم: فعل ماض والضمير فاعل، والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول.
 فقد: الفاء رابطة لجواب الشرط، قد: حرف تحقيق.
 إهتدوا: فعل ماض وفاعل، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط.
 وان تولوا: عطف على فان آمنوا.
 فانما: الفاء رابطة وانما كافة ومكفوفة.
 فسيكفيكمهم: هذه الكلمة تنفك في الإعراب الى خمسة عناوين وفق الصناعة النحوية:

الأول: الفاء عاطفة للتعقيب، وقبل رابطة لجواب الشرط المقدر.

الثاني: السين للإستقبال وهي تفيد المستقبل القريب.

الثالث: يكفي: فعل مضارع مرفوع بالضممة المقدرة

الرابع: الكاف: مفعول به اول، والمراد به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامس : (هم): مفعول به ثان.

اسم الجلالة الله: فاعل مرفوع بالضمّة.

وهو: الواو استئنافية، هو: مبتدأ، السميع العليم خبر أول وخبر ثاني،
وولى الشيء وتولى: إذا إنصرف هارباً فاراً.

وتولى عنه: أعرض ونأى بجانبه، والتولى يكون بمعنى الإعراض، ويكون
بمعنى الإتياع.

الشقاق: مصدر سماعي وزنه فعال، بكسر الفاء، ويعني ظهور العداوة
والخصومة وغلبة الخلاف، سمي بذلك لأنهم أصبحوا في شق وناحية أخرى
بسبب الخلاف والعداوة.

ونسب القرطبي في تفسيره إلى القيل أن الشقاق المجادلة والمخالفة
والتعادي، وأصله من الشق وهو الجانب، فكان كل واحد من الفريقين في
شق غير شق صاحبه وانه مأخوذ من فعل الشق ويصبح كل من الفريقين
حريصاً على ما يشق على صاحبه^(١).

والظاهر ان المعنى في المقام مختلف وانهم ليسوا في عرض واحد مع
المسلمين، فهم وحدهم في خلاف وخصومة لأن المسلمين على نهج إبراهيم
المستقيم لذا فمن إعجاز الآية تعلق نعت الشقاق بفريق واحد غير طرف
المسلمين.

وكفى يكفي كفاية: اذا قام بالأمر وأنجزه وأغنى غيره وتحمل عنه
مؤونته (وفي الحديث من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَّتَ أي
أَغْنَتْه عن قيام الليل)^(٢).

(١) تفسير القرطبي ١٣٨/٢.

(٢) لسان العرب ٢٢٥/١٥.

في موضوع النزول

وتبين الوقائع ما كان يلاقه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى عند تلاوة الآيات، وما يواجهه به أهل الشك والريب، فمع أن الآية السابقة في الثناء على موسى وعيسى عليهما السلام والإقرار بنبوتهما وفيه فخر لليهود والنصارى وإمضاء لتهجمهم باتباعهما إلا أنهما اختلفا في عيسى عليه السلام، وهذا التنزيل خال من الإفراط والتفريط، ومن الحسد والغلو، لأنه كلام الله عز وجل الذي يزيح الشبهات، ومع هذا فإن الأذى الذي يأتي من أهل الكتاب عند نزول القرآن أخف كثيراً من الأذى والضرر والعذاب الذي كان يسوقه كفار قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، إذ أنهم كانوا ينفرون ويغضبون ويفترون ويعتدون عند كل تنزيل خصوصاً وأن الآيات والسور التي نزلت في مكة إتصفت بالوعيد والتخويف للكفار، بينما جاء احتجاج اليهود والنصارى بخصوص وقائع مخصوصة، وفي قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^(١)، ذم لقريش وصدودهم عن القرآن واختلفوا قال بعضهم هو سحر، وبعضهم: كتاب مفترى، واساطير الأولين .

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجلس عند المروة إلى غلام أعجمي نصراني للفاكه بن المغيرة اسمه جبر، وكان الفاكه يضربه ويقول له: أنت تعلم محمداً، فيقول: لا والله بل هو يعلمني ويهديني، وهو من وجوه تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة ١٧٦.

(٢) سورة النحل ١٠٣.

في سياق الآيات

انتقلت هذه الآية من لغة الجدال والبرهان والنقض والإبرام الى اعتبار سنخ وماهية العقيدة، ومدار الإيمان وتحديد معالنه بغض النظر عن الدعوى وأثر الرد عليهم.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة لها على شعبتين:

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة لها وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (ووصى بها) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: لقد آمن المسلمون بكلمة التوحيد التي أوصى بها إبراهيم ويعقوب أبناءهما، فيجب أن يلتقي أهل الكتاب معهم في هذا الإيمان.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ^(٢).

الثالثة: من الاختيار والإجتناء للدين الإيمان بالله والتنزيل، وفي الجمع بين الآيتين ترغيب لأهل الكتاب بالإسلام لتعاهد البقاء في منازل الإصطفاء.

الرابعة: التولي والإعراض عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن إعراض عن منازل الإصطفاء.

الخامسة: جاءت خاتمة الآية أعلاه ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، حشاً على دخول الإسلام، وعدم تضييع نعمة الحياة الدنيا كمزرعة للآخرة، وتتجلى هذه النعمة بالمبادرة إلى التصديق ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: الصلة بين آية (أم كنتم شهداء) ^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها

(١) الآية ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران ٦٤.

(٣) الآية ١٣٣.

الأولى: جاءت أنباء الغيب في القرآن لطفاً بالناس، ووسيلة لجذبهم للإسلام.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين أن المسلمين على نهج إسرائيل وأبنائه، وهم الأسباط.

الثالثة: دعوة أهل الكتاب للإسلام والتصديق بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إقتداءً بإيمانهم إذ أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى (ونحن له مسلمون).

الثالث: الصلة بين آية (تلك أمة) ^(١)، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: مع مجيء الآية أعلاه بالإخبار عن إنقضاء أيام الأنبياء السابقين والأسباط، فأنها أكدت على حسن سمتهم وعملهم، وفيه ترغيب بإتباعهم بلحاظ أنهم كانوا على ملة إبراهيم.

الثانية: لقد آمن أبناء يعقوب بالله والتزّل.

الثالثة: المدار في الجزء على العمل الشخصي، حيث ينجو أهل الإيمان.

الرابعة: الدنيا دار إمتحان وإختبار وجاءت هذه الآية لنفي البرزخية بين الإيمان والكفر، فأما الإيمان والهداية وأما الكفر والضلالة.

الرابع: الصلة بين آية (وقالوا كونوا) ^(٢)، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: التعارض بين قول أهل الكتاب وبين ما عليه المسلمون من الإيمان.

الثانية: جاءت الآية أعلاه بالإحتجاج على أهل الكتاب بملة إبراهيم ولزوم إتباعها، وجاءت هذه الآية لتؤكد أن المسلمين على ملة إبراهيم، وأنهم يؤمنون بالله وما أنزل من الكتاب والأحكام ولأوامر والنواهي.

الثامنة: يفيد الجمع بين الآيتين دعوة المسلمين للإعراض عن قول اليهود

(١) الآية ١٣٤.

(٢) الآية ١٣٥.

والنصارى ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

الرابعة: دعوة أهل الكتاب للإسلام والإيمان بالله والتزليل نقض لقولهم ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

الخامسة: هذه الآية رافة ولطف بأهل الكتاب، وهي خير محض، إذ أنها تكشف بطلان دعوة المسلمين إلى ملة أخرى.

السادسة: ذكر الآيتين لموضوع الهداية مع التضاد فيما تتقوم به ولا بد أن أحدهما غير صحيح، لعدم إمكان اجتماع الضدين، فقال فريق بأن الهداية باللحاق بهم وإتباعهم، وجاء الأمر الإلهي بمحصر الهداية بالإسلام، وما أخبر عنه الله عز وجل هو الحق المبين، لذا جاءت الآية السابقة بالتصريح بالإيمان بالقرآن.

السادسة: الدعوة إلى عدم الشرك بالله، والحث على جعل التوحيد الجامع المشترك بينهم وبين المسلمين، ومقدمة لدخولهم الإسلام، وزاجراً عن قتالهم للمسلمين ومحاربتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسبباً للود بينهم وبين المسلمين، إذ أختتمت الآية أعلاه بوصف إبراهيم بأنه (ما كان من المشركين).

الخامس: الصلة بين الآية السابقة (قولوا آمنا) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: جاء الأمر الإلهي للمسلمين في أول الآية أعلاه بالإيمان بالله، وهو خطاب إنحلالي يتوجه إلى الناس جميعاً، ويفيد الجمع بين الآيتين تأكيد الخطاب لأهل الكتاب بالإيمان بالله.

الثانية: يؤمن المسلمون بنزول القرآن من عند الله لقوله تعالى ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وهذا الإيمان ركنا من أركان الهداية فلا بد من تصديق أهل الكتاب

بنزوله، وقد خفف الله عز وجل عن الناس جميعاً بأن جعل القرآن يتصف بالإعجاز الذاتي والغيري، وزاد من فضله على أهل الكتاب فجعل عندهم البشارات بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن في التوراة والإنجيل.

الثانية: يشهد المسلمون على أنفسهم بأنهم يؤمنون بما أنزل الله عز وجل من الكتب السابقة، ويدعون أهل الكتاب لمشاطرتهم هذا الإيمان.

الثالثة: من يعرض عن التصديق بالقرآن والتنزيل فهو في خلاف وشقاق مع الحق والإسلام.

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين إنذار الذين يصرون على الجحود بنعمة القرآن، ويمتنعون عن التصديق بنزوله من عند الله مع أنه نفسه يخبر بهذا التنزيل بإعجازه وما فيه من الذخائر وكنوز الغيب.

الخامسة: بعث السكينة في نفس النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين وعوائلهم من أهل الخلاف والشقاق، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(١).

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (صبغة الله)^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: الإسلام هو دين الله، لذا جاءت الدعوة لدخوله بالترغيب فيه.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين الثناء على المسلمين لحسن إختيارهم، وفوزهم بدخول الإسلام.

الثالثة: الإسلام ونزول القرآن نعمة عظيمة من عند الله، وقد فضل الله

عز وجل بني إسرائيل بقوله تعالى ﴿وَأَنْبِئْكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣)،

(١) سورة آل عمران ١١١ .

(٢) الآية ١٣٨ .

(٣) سورة البقرة ٤٧ .

فجاءت هذه الآية لدعوتهم على نحو الخصوص لدين الله، وفيه حث للناس جميعاً لدخول الإسلام للأولوية في الدعوة لدخوله للذين فضلهم الله على العالمين، فمن يدخل الإسلام يفوز بأسباب التفضيل لأن الآيات السابقة أكدت أن المدار على العمل وليس على النسب والانتساب للأنبياء.

الرابعة: دعوة أهل الكتاب والملل الأخرى إلى عدم الإتيان إلى الرؤساء والرهبان والكهان الذين لا يؤمنون بالله والأنبياء والتنزيل لا سيما وأن هذه الآية جاءت بإرادة أهل الكتاب على نحو العموم الإفرادي فكأن الآية تقول بخصوص كل مكلف منهم ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنُ بِهِ﴾.

الخامسة: عبادة الله عز وجل هي الأصل والملاك الذي تقوم به أسباب الهداية، فمن يعبد الله عز وجل فهو مهتد.

السادسة: جاءت خاتمة الآية التالية بصيغة الجمع ﴿وَتَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، وهو أمر في طول الإيمان بالله، وفيه دلالة على وجوب الإمتثال لأوامر الله وإتيان الفرائض كالصلاة اليومية والصيام والزكاة والحج، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١).

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (قل أتحاجونا)^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت هذه الآية خطاباً للمسلمين، وجاءت الآية أعلاه خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من غير تعارض بين الخطابين لأن الأمة يشملها الخطاب الذي يتوجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالواسطة والتبعية، لذا جاءت مضامين الآية أعلاه بصيغة الجمع.

الثانية: دعوة أهل الكتاب لإجتنب الجدال في دين الله، لأن الإسلام بسيط يتجلى بالإتيان لأوامر الله عز وجل.

(١) سورة النساء ٧٧.

(٢) الآية ١٣٩.

الثالثة: الثناء على أهل الكتاب بإلتقائهم مع المسلمين في الإقرار بربوبية الله عز وجل، وفيه تحذير من التثليث وأسباب الشرك الخفي.

الرابعة: جاءت الآية محل البحث بالملزمة بين الإيمان بالله والتنزيل وبين الهداية، وجاءت الآية أعلاه بالإخبار عن إخلاص المسلمين في العبادة لبيان وجوب عبادة الله عز وجل.

الخامسة: الإشارة إلى تجلي صدق طاعة الله عز وجل بالتصديق بنزول القرآن من عند الله والإمثال لما فيه من الأوامر والفرائض والسنن.

السادسة: من إعجاز سياق الآيات خواتيم هذه الآية والتي جاءت بالإخبار عن خضوع وخشوع المسلمين لله عز وجل:

الأول: (ونحن له مسلمون) ^(١).

الثاني: (ونحن له عابدون) ^(٢).

الثالث: (ونحن له مخلصون) ^(٣).

وفيه أبهى وأرق معاني الإحتجاج والجدال بالحجة والبرهان، وبيان حقيقة وهي أن المسلمين لا يرومون إلا طاعة الله، وتعظيم شعائره، وتنزيه الأرض من مفاهيم الشرك والضلالة، وهو مصداق عملي لرد الله عز وجل على الملائكة حينما ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ^(٤)، فقد بعث الله عز وجل النبي محمداً لعمارة الأرض بالعبادة من قبل المسلمين، والإخلاص فيها، والإنقطاع إلى طاعة الله عز وجل.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (أم تقولون) ^(٥)، وفيها مسائل:

(١) الآية ١٣٦.

(٢) الآية ١٣٨.

(٣) الآية ١٣٩.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

(٥) الآية ١٤٠.

الأولى: الزجر عن القول أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا يهوداً أو نصارى.

الثانية: تأكيد الدعوة للتصديق بما أنزل الله على الأنبياء السابقين.

الثالثة: المدار على الإيمان بما أنزل الله على الأنبياء السابقين، وليس الإنتساب لهم.

الرابعة: الجذب إلى منازل الإيمان بالإنذار والتحذير من إخفاء الشهادة وتحريف التنزيل.

الخامسة: تفويض الأمور لله عز وجل، وفي التنزيل ﴿وَالْحَىٰ اللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١).

إعجاز الآية

تتضمن الآية شرطاً وجزاء ووعداً ووعيداً وبشارة وتوكيداً لعظيم سلطان الله تعالى وإحاطته بالأمور، وفي الآية إخبار غيبي بوقوع الخصومة والنزاع بينهم، ووعد بكفاية أذاهم وشرهم.

وفي الآية بيان لموضوع وحكم الإيمان، فليس لكل ملة أن تختار صيغ وما ماهية الإيمان وأحكامه، بل هو موضوع متحد ومتشابه ولا يقبل التبعض والترديد والإنشطار، وهو شاهد على أن المسلمين ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، لأتصافهم بالإيمان على نحو الموجبة الكلية، وحملهم للوائه.

ومن إعجاز الآية الوعد الكريم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأمن والسلامة من الأعداء، سواء الذين يجهزون الجيوش لقتاله والمسلمين، أو الذين ييثون أسباب الشك والريب، وتتضمن الآية التحدي في الواقع اليومي والعمل للذين يعرضون عن دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة البقرة ٢٠١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

وآله وسلم بأنهم غير قادرين على الإضرار به وإيذائه وإن كانت عندهم أسباب القوة والجاه، وأن الجدل والمغالطة وإثارة الشبهات حول نبوته لا تجدي نفعاً لأصحابها، وإن الله عز وجل يرى مكانهم ويسمع ما يفترون على الله ورسوله، ليكون من إعجاز الآية الإنذار والوعيد للكفار.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (فإن آمنوا) ومع ورود لفظ آمنوا في القرآن مائتين وثمان وخمسين مرة، فإن اللفظ أعلاه لم يرد إلا في هذه الآية الكريمة، وتلك آية أعجازية، وشاهد على موضوعية هذه الآية في الاحتجاج.

الآية سلاح

في الآية تأديب وتعليم للمسلمين بعدم الإنشغال التام بالجدال والإكثفاء بالقاء الحجة والإنذار، وإن التبليغ والاحتجاج كاف لإقامة الحجة مما يدل على صدق الدعوة الإسلامية والإمضاء وإثبات ما عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المعجزات.

وفيها مدح وثناء للمسلمين لسلامة دينهم وصدق إيمانهم، والآية مانع من إنتظار المسلمين لجواب أهل الكتاب وردهم القولي والفعلية على قول المسلمين لهم بالآية السابقة فيحتمل انهم يصرون على ما هم عليه، فالإنتظار حيثئذ مشبط للأمال أو لأن قولهم حجة وبرهان لا يقبل الا رداً واحداً وهو التسليم والإنقياد، وهي عون للمسلمين بإخبارها بحصر الإيمان بإعتناق واختيار الإسلام والإنقياد إلى الله.

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وليس بعد من سلاح ومال إلا مال خديجة وهو لا يكفي لتجهيز جيش أو جمع أصحاب، وحشد أنصار، نعم أنزل الله عليه آيات القرآن فكانت مدداً سماوياً، سلاحاً سماوياً، لا يحاربه سلاح، وحرزاً وواقية من الإستخفاف والشر، فأيات تدفع الكفار، وآيات ترد الاحتجاج، وآيات تأتي بالحجة

والبرهان ومنها هذه الآية التي هي سلاح من وجوه:
الأول: بيان صحة إيمان المسلمين الذي إتبعوا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالشرعية المتكاملة.
الثالث: وقاية المسلمين من الإرتداد، لأنهم ينشدون الإيمان، وقد بلغوا مراتبه بدخول الإسلام وأداء الفرائض التي جاء بها القرآن.

الرابع: منع التحريف في الشرائع والأحكام، قال تعالى ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(١)، ويقول ﴿وَرَاعِنَا لِيَا بَأْسَنَّهُمْ وَطَعْنَا﴾^(٢).

الخامس: دعوة الناس لإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالحجة والبرهان، ولو كان عند السلطان الأموال الكثيرة وبذلها لجذب الناس لإتباعه في ملته من غير برهان لعجز عن جذبهم، وإذا أظهر طائفة إتباعه طبعاً بالمال والجاه فإنه سرعان ما يفتضح أمره، ويزول بإقتطاع أسبابه، وتلك الأموال لا تستطيع مواجهة سلاح التنزيل.

السادس: هذه الآية حرز للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من أهل الإعراض والصدود.

مفهوم الآية

تظهر الآية إنعدام البرزخية والوسط بين الإيمان والكفر، فبعد ان حصرت الآية الهداية بالإقرار والتسليم بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء جاءت هذه الآية لتمنع من الإرباك والتردد وتطرد الشك والوهم والمساومة، وترجح القوة العقائدية عند المسلمين بلزوم عدم التفريط بمصاديق الإيمان وان الإيمان بالقرآن والإعتراف بانه من عند الله من أهم مصاديق التقوى والصلاح،

(١) سورة النساء ٤٦.

(٢) سورة النساء ٤٦.

وعلى الإقرار بنزوله من عند الله يكون الحكم، وهذا التوكيد على القرآن والإيمان به لا يلغي لزوم الإيمان بالكتب السماوية الأخرى بل أن الإيمان بالقرآن يعني بالدلالة التضمنية الإيمان والإقرار بالكتب السماوية الأخرى لأنه جامع لها وخاتمها والشاهد السماوي عليها والمصدق لها وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَزَوَّلْنَا عَلَيْكَ الْكَابِثِينَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١).

والإيمان بها مقدمة وتوطئة للإيمان بالقرآن ولا يستلزم الأمر الدور للتباين الجهتي، وتعدد صيغ التصديق المتبادل ولأن المقام مقام الحجة والبرهان وليس التأسيس وهي شاهد على صدق نزوله من عند الله عز وجل، ومن الإعجاز والمدد الغيبي في الآية الوعيد للكافرين وما يتضمنه في مفهومه من بشارة للمسلمين تتضمن في موضوعها دفع اذى وكيد وشر الكافرين، ولكن لماذا ذكر ما بينهم من الشقاق وما هي صلته باعراضهم وتوليهم عن الحق فيه وجوه:

الأولى : إنه إخبار عن اسباب عدم إنصياهم للحق ورفض التسليم بالقرآن والكتب السماوية الأخرى، فمنهم فريق لا يؤمن إلا بما أنزل على الرسول الذي يتبعونه، ويرفضون ما جاء من بعده من الشرائع وإن كانت ناسخة لما هم عليه، وثابتة بإخبار نبيهم والكتب السماوية النازلة والله الحجة البالغة.

الثانية : ذكر الشقاق والخلاف توكيد ضعفهم ووهنهم وإمكان دفع شرهم.

الثالثة : لم يقيم توليهم على أسس سليمة أو حجة وبرهان بل هو نتيجة استصحابهم للخلاف والفرقة وإنكار شطر من النبوات والكتب المنزلة فحينما ينزل كتاب لا يوافق ما هم عليه يبادرون إلى العناد والجحود.

الرابعة : تبث الآية السكينة في نفوس المسلمين لأنها تكشف الخلل في إدعاء المعاندين، وتسقط ما في أيديهم، وتجعلهم بين أمرين أما الإيمان وأما الخسران.

الخامسة : تحت الآية على إعتداد صيغ الإصلاح والأخلاق الحميدة ومعالجة أسباب إمتناع بعضهم عن الإيمان مع الإنتفاع مما بين الأعداء والجاحدين من قريش من الشقاق، وكيفية إستثماره في دعوتهم وإصلاحهم فصحيح أن الآية لم تتضمن موضوعاً للجدال بل ذكرت قانوناً من الإرادة التكوينية إلا أن الجدال والإحتجاج طريق للبيان والدعوة للإيمان بقوله تعالى في أول الآية (فإن آمنوا) وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بَاتِّبِ هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

السادسة : تطرد الآية اليأس منهم لإحتمال ان يؤمن فريق منهم ويتبع المسلمين وفعلاً فقد إستقبل الإسلام أفواجا منهم في أيام التنزيل ولا يزال تدخله إلى اليوم الأعداد الكبيرة من الناس وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة وإظهار صدق الرسالة الإسلامية وإكرام المسلمين وإقرارهم بالأنبياء السابقين، وخاتمة الآية دعوة للصبر والثبات على الإيمان وبشارة للنصر وإظهار الحق ودرء الباطل.

وفي الآية مسائل:

الأولى: بعث السكينة في قلوب المسلمين، وتوكيد سلامة نهجهم، وصحة إختيارهم الإسلام.

الثانية: صحيح أن موضوع الآية جاء بخصوص أهل الكتاب ولزوم إلحاقهم بالمؤمنين، إلا أنها تتضمن حث المسلمين على الثبات في منازل الهداية، والتقيد بالفرائض والوجبات العبادية لأنها مرآة الهداية والصلاح.

الثالثة: مجيء القرآن بغاية عظيمة وهي توحيد الديانة في الأرض، قال

تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١).

الرابعة: طرد الشك والريب عن المسلمين في دينهم وعقيدتهم.

الخامسة: إرشاد المسلمين لصيغ الاحتجاج والانتقال في موضوعه، كما

في إبراهيم عليه السلام، فحينما قال له نمرود ﴿أَنَا أُخِيٌّ وَأُمِيتُ﴾^(٢)، بأن أطلق سراح سجين وقتل آخر، فلم يقف إبراهيم عند هذا الموضوع ويقول له هذه قضية شخصية مترشحة عن السلطان والحكم، وسيكون حسابك يوم القيامة، بل إنتقل إلى آية أخرى من بديع صنع الله فقال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾^(٣)، وكان أن عزم على إحراق إبراهيم إنتقاماً.

وجاءت هذه الآية والآية السابقة لنقل الموضوع بخصوص قول أهل الكتاب في الآية قبل السابقة ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾^(٤)، بأن دعاهم الله عز وجل للإسلام، والهداية ضالة العقلاء وأرباب المعارف، فجاءت هذه الآية لحصرها بالإسلام، والإخبار عن وجود أمة سابقة إختارت الدخول فيه برضا وتسليم.

السادسة: حث المسلمين على طاعة الله ورسوله، والتصديق بما يأتي به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خصوصاً وأنه دعا المسلمين لقتال الكفار مع رجحان كفتهم عدداً وعدة، قال تعالى ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

(١) سورة آل عمران ١٩.

(٢) سورة البقرة ٢٥٨.

(٣) سورة البقرة ٢٥٨.

(٤) الآية ١٣٥.

نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّهَوْا ﴿١﴾.

السابعة: تجعل الآية المسلمين على دراية من أمرهم، وتبعث الثقة في نفوسهم لحسن إختيارهم الإسلام.

الثامنة: الآية الكريمة إعانة للمسلمين للإمتثال لأوامره تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ ^(٢)، إذ تحبر الآية على أن المسلمين متحدون بالتمسك بالقرآن والسنة، وهذا الإتحاد والتمسك من المصاديق العملية وأسباب ترغيب الناس لدخول الإسلام في قوله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِلٍّ مَّا آمَنْتُمْ بِهِ﴾.

التاسعة: بيان إستغناء المسلمين عن الذين يعرضون عنهم، ويمتنعون عن دخول الإسلام.

العاشرة: الإخبار عن إنتفاء الحجة عند الذي يعرض عن الإسلام، ويقابل معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالصدود والجحود لقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ ^(٣).

الحادية عشرة: التوكيد العملي لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ^(٤)، بأن يكون الجامع المشترك بينهم هو الإيمان بالله والتنزيل مطلقاً، والإعراض عن الذين يتولون عن الدعوة للإيمان.

الثانية عشرة: بيان المصداق العملي لقوله تعالى ﴿أَنْ أَلْقُوهُ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ^(٥)، وأنها مطلقة تشمل الآيات الكونية والإرادة التكوينية والحياة العقائدية للناس

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

(٣) سورة البقرة ١٣٧.

(٤) سورة الحجرات ١٠.

(٥) سورة البقرة ١٦٥.

بكفاية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين شر وكيد الكفر.

الآية لطف

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، ووعاء مكانياً وزمانياً لصراع بين الإيمان والكفر، فيأتي التنزيل جذبة من عند الله لمنازل الهداية، ولكن النفوس الشهوية والغضبية والكدورات الظلمانية تحول دون تدبر شطر من الناس بأسراره وإدراك كنهه، فلا يقف تأريخ الإنسانية عندهم بل تجري الأمور وفق مشيئته الله عز وجل في العالمين.

ومن اللطف الإلهي في الآية بيان الملازمة بين الإسلام والهداية، وهذا اللطف عام يشمل المسلمين وغيرهم وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)، أما المسلمون فإن الآية تبعث الرضا في نفوسهم، وتدعوهم للشكر لله عز وجل، والإعراض عن دعوة أهل الكتاب لإتباعهم، وهي لطف بالناس لما فيها من كشف الحقائق العقائدية، وطرده أسباب اللبس والترديد، ونفي للجهالة والغفلة وفي الآية تخفيف عن المسلمين لما فيها من التصدي لدعوة الإرتداد التي تأتي بدعوات الإلتواء لليهودية والنصرانية.

وتقرب الآية الناس إلى منازل العز والغنى باختيار الإيمان والصلاح، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، ليكون من معاني وتفسير الآية أعلاه ترغيب الناس بالإيمان الذي يتجلى في أحكام آيات القرآن وسنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا ينحصر تفسير بصيغة الإخبار عن حال المؤمنين الذين صدّقوا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي بشارة تتغشى حال المؤمنين في الدنيا

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة المنافقون ٨.

والآخرة بقدرة وسلطان وملك الله وهو من مصاديق قوله تعالى في آية البحث ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾^(١).

ومن اللطف في آية البحث الزجر عن الكفر والضلالة، والإنذار والوعيد من الذل الذي يلحق صاحبه واللعنة التي تلاحقه، وكان كفار قريش يتباهون بالأموال وكثرة الأولاد والشأن بين الناس كما يوثقه قوله تعالى ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾^(٢).

فجاءت آية البحث لتدعوا إلى الإسلام وتحث المسلمين على الثبات على الإيمان ومنهج الحق.

إنفاذات الآية

تجعل هذه الآية النفوس تنطلق سائمة في مبادئ أحكام الإسلام، وتشتاق لما فيه من الفرائض والسنن طمعاً في الجنة واللبث الدائم فيها، وتبين حاجة المسلمين جميعاً إلى القرآن وتوالي نزول آياته على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعدم إنقطاعه لحين نزول جميع آياته وسوره، وكل آية من القرآن سبب وطريق للهداية، وجاءت هذه الآية صريحة في إقتران الهداية بالإسلام عقيدة وقولاً وفعلاً، وتبعث الآية على النفرة من التولي والإعراض عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآيات القرآن وإثارة الخلاف وأسباب الخصومة مع المسلمين.

ومن إعجاز الآية أنها لم تكتف بتلقين المسلمين صيغ الإحتجاج فيبين الله عز وجل فيها الحكم بما يكون موضوعاً وحجة وقطعاً، وفضحاً للمغالطة.

(١) سورة البقرة ١٣٧.

(٢) سورة سبأ ٣٥.

إذ جعلت الآية المدار على الإيمان الذي عليه المسلمون من التوحيد والعبودية لله والإيمان بالملائكة ومع النبوة والتنزيل واليوم الآخر، وإقامة الصلاة وإتيان الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت مع الإستطاعة. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان^(١).

والبضع من العدد من ثلاثة إلى العشرة، والظاهر أن التردد في عدد الشعب في الحديث أعلاه من الراوي للحديث في بعض طبقاته.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالشرط فيما يتعلق بالإيمان ومصادقه وموضوعه، وتدعو أهل الكتاب إلى الإسلام بلغة المثل والشبيه والمحاكاة، لقد جادلوا المسلمين في الدين والإيمان فجاءت هذه الآية لتعين ماهية الإيمان وأنها جليلة واضحة بالإسلام ومبادئه.

ومن الآيات أن هذه الآية وما فيها من الإحتجاج لم تأت إلا بعد بيان ما يؤمن به المسلمون في الآية السابقة، ومنه الإيمان بالله والتصديق بنزول القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾.

وفيد الجمع بين الآيتين أن المسلمين على تقدمه من أمرهم، وإدراك لمنزلتهم الرفيعة عند الله، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، وأنه سبحانه حصهم وشرفهم بنزول القرآن الذي هو نعمة ومدد وإمام لكل مسلم ومسلمة، وفيه ترغيب بأهل الكتاب، فمن الآيات توجه

(١) الكشف والبيان ٧٠/١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الإحتجاج في هذه الآية لأهل الكتاب لنيل مرتبة الشرف بنزول القرآن عليهم بدخول الإسلام، مع إرادة الناس جميعا ، ولم يدخر المسلمون هذه النعمة بينهم بل نزلت في القرآن لجعل المسلمين يشكرون الله عز وجل، ويدعون الناس لمشاركتهم هذه النعمة بدخول الإسلام، وتلاوة الآيات.

ويبين حصر الهداية بالإسلام عدم وجود وسط بين الإيمان والضلالة، فأما الهداية بالإسلام، وأما التولي والإعراض.

ولم يأت الذم والإنذار في الآية إلا في موضوع التولي والفرار من الحق، لأنه شاهد على إرادة الخلاف والخصومة، وإبتدأت الآية بالخطاب للمسلمين عامة بتوكيد سنن الإيمان المذكورة في الآية السابقة، وأختتمت الآية بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبشارته بالأمن والسلامة من الضرر الذي يأتي من أهل الخصومة والشقاق، وبالثناء على الله عز وجل وأنه (السميع العليم) وفيه بشارة للمهتدين ووعد للذين يتولون عن دعوة الحق.

التفسير الذاتي

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا داراً لإظهار الناس الإيمان به وبما أنزل من الكتب التي هي واسطة بينه وبين عباده كالنبوة، وفيها بيان الأحكام والفرائض، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(١)، وبعد أن علم الله عز وجل المسلمين مضامين وسنن الإيمان بما يرفع اللبس والترديد، ويمنع من الجهالة والغرر، جاءت هذه الآية للبيان والإحتجاج .

وفي الآية دعوة للناس للنجاة من العذاب في النشأتين بإختيار الإيمان قال

تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾^(١)، فدخل الإسلام وإتيان ما أمر الله به في التنزيل مصداق عملي للشكر لله وواقية من العذاب، وباب للفوز برضا الله عز وجل ونزول وفضله.

وجاءت آيات القرآن لبيان أن إهداء الإنسان خير محض ونفع مبارك في النشاطين، والله عز وجل غني عن العالمين، وهو غير محتاج لإهداء البشر، فإن قلت أن هداية الإنسان قوة للإسلام، فالجواب نعم، إلا أن الله عز وجل يغني ويكفي الإسلام والمسلمين، قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

ومن إعجاز الآية ذكرها الملازمة بين الإيمان بالله والتنزيل وبين الهداية، لتكون مقدمة لزيادة الهدى ورسوخ الإيمان في النفس، وصيرورته ملكة ثابتة قال تعالى ﴿وَيَزِدْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾^(٣).

ويتلوا المسلمون في صلاتهم اليومية مرات عديدة وعلى نحو الوجوب قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٤)، وهو شاهد على تفقه المسلمين في الدين، ومعرفتهم لموضوعية الهداية والرشاد لتحصيل النفع والنجاة في الدارين.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان المدد الإلهي للمسلمين في باب الإحتجاج والجدال.

الثانية: توكيد قانون ثابت وهو نصر الله عز وجل للنبي محمد صلى الله

(١) سورة النساء ١٤٧.

(٢) سورة المدثر ٣١.

(٣) سورة مريم ٧٦.

(٤) سورة الفاتحة ٦.

عليه وآله وسلم والمسلمين في حال السلم والحرب، وقد تفضل الله عز وجل بالمدد من الملائكة في معارك الإسلام الأولى ضد المشركين، قال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَاَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾^(١).

الثالثة: إرتقاء المسلمين في مراتب المعرفة الإلهية.

الرابعة: لم تأت الآية على لسان المسلمين ولم تقل (فإن أمتهم بمثل ما آمننا به)، بل جاءت عن الله عز وجل لبيان حقيقة وحكم ثابت في الإرادة التكوينية، وفيه ثناء على المسلمين لحسن إيمانهم.

الخامسة: في الآية دعوة للمسلمين للثبات في منازل الإيمان.

السادسة: جاءت الآية بخصوص أهل الكتاب، ورداً عليهم لأنهم حصروا الهداية بإتباعهم في ملتهم، ولكن غاياتها تشمل الناس جميعاً في دعوتهم للإسلام، وتحذيرهم من الدعوات إلى غيره من الأديان، وفيها إحتراز وتفقه في الدين قيام بعض الملل والنحل بدعوة الناس للانتماء إليهم مع ظهور الدعوة الإسلامية، وميل النفوس لآيات القرآن، وتناقل المتدييات والركبان آيات القرآن وتدبرهم في معانيها، وإدراك مسألة وهي أن كل آية دعوة لجذب الناس للإسلام، وزجر عن محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين.

السابعة: الهداية غاية يجب أن يسعى إليها الناس ويطلبونها من النبوة والتنزيل.

الثامنة: من يعرض عن الدعوة الإسلامية فهو في خلاف وخصومة، ولن يضر المؤمنين لأن الله عز وجل ينصر المسلمين.

(١) سورة الأنفال ٩، أنظر الأجزاء التي جاءت خاصة في كل من الآية ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧ من سورة آل عمران.

التفسير

من اعجاز القرآن أنك ترى الدلالات الثلاث المطابقة والتضمنية والإلزامية تجتمع في الآية الكريمة مما يستلزم دراسة الآية بلحاظ كل دلالة على نحو مستقل، فمن المطابقة أن الهداية رديفة وملازمة للإسلام، والدلالة التضمنية شهادة الآية على صحة إيمان المسلمين وسلامة ما إختاروه وهي تدعوهم إلى الثبات على دينهم، وتلك الدعوة تبدد كل أثر لدعوة أهل الكتاب المسلمين وغيرهم إلى الإلتحاق بهم فيما يعتقدونه، إنها عزل وحصر لدعوتهم، ومن الإلزامية ان النجاة تنحصر بالإيمان بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله عز وجل.

قوله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُ بِهِ﴾

أي فان آمن أهل الكتاب بمثل الذي آمتم به أيها المسلمون من الإقرار بالربوبية لله عز وجل والتصديق بالكتب التي أنزلها على الأنبياء، ولا يمنع من شمول موضوع الخطاب لغير أهل الكتاب بل لقياس الأولوية والذي يسمى مفهوم الموافقة ويسمى أيضاً فحوى الخطاب، فالإطلاق وإمكان تعدي الخطاب ظاهر في الآية بدليل لغة الغائب وورودها مطلقة، كما انه يستقرأ من حصر الإيمان بالإسلام.

ومنهم من فرق بين المثل - بالتحريك، ومثل - بكسر الميم وسكون الثاء - كالخليل بن أحمد الفراهيدي ت ١٧٥ هـ، ولم يفرق بينهما ابن دريد والجوهري والفارابي.

وقال ابن عربي: المثل بالكسر إشارة إلى محسوسين متماثلين جهتيّاً في بعض الخصائص، وكقولك زيد مثل عمرو، والمثل هنا للتشبيه والإلتقاء في موضوع الإيمان ومادته فهو متقوم بطرفين وهو غير المثل بالفتح، وفي الآية حصر للإيمان والهداية بالإسلام نعم يمكن ان يكون دخول الإسلام مثلاً

لكل إنسان في إنخاذه ديناً.

اذ ليس من حائل يحول دون إيمان الآخرين بل بالعكس فالآية تدل في دلالتها الإلتزامية على ترغيبهم بالإسلام فهي الأخرى عون للمسلمين في دعوة غيرهم للإسلام.

جاء الآية خطاباً للمسلمين في جهادهم ضد النفس الشهوية والغضبية، وفتنة الملل الأخرى لبعث الشك في نفوسهم، وإغرائهم لترك دينهم لتكون الآية واقية وعلاجاً وإحترازاً دائماً إلى يوم القيامة للمسلمين، وتلك آية في الإعجاز العقائدي للقرآن، وشاهد بأن موضوع الآية وأن تعلق بمحادثة وسبب نزول أو بخصوص جماعة وطائفة إلا أنه عام وشامل لأيام الحياة الدنيا، وهو من أسباب عصمة القرآن من التحريف والتغيير والتبديل، خاصة وأن كلمات آيات القرآن تأتي نصاً واضحاً خالياً من التردد واللبس.

لقد نزلت هذه الآية الكريمة في وقت تجهز فيه قريش الجيوش لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإستئصال المؤمنين بالقتل والأسر، ويسأل المشركون اليهود عن دين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإعتبارهم أهل كتاب (وقال موسى بن عقبة: وكان كعب بن الاشرف أحد بنى النضير أو فيهم، قد أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء وركب إلى قريش فاستغراهم، وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أناشدك أديتنا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق ؟ إنا نطعم الجزور الكوماء^(١)، ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبت الشمال، فقال له كعب بن الاشرف: أنتم أهدى منهم سييلاً ! قال فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: " ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سييلاً)^(٢)،

(١) الناقة الكوماء : العظيمة السنام، والكوم عظم في السنام.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ١١/٣ .

مما يبعث الألم والحزن على التعدي على المسلمين، وتحريف حقائق التنزيل، فتأتي هذه الآية لتبطل ما يقولون، وتمنع من آثار فعلهم.

وإبتدأت هذه الآية بقوله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾^(١)، ويحتمل المراد من الإيمان المطلوب منهم وجوهاً :

الأول : المقصود هو الإيمان المذكور في الآية السابقة، وتعلق هذه الآية بمضامينها وهو الذي يدل عليه سياق الآيات.

وذكرت الآية السابقة الإيمان من وجوه :

الأول : الإيمان بالله رباً وخالقاً.

الثاني : التصديق بالقرآن كتاباً بأن نازلاً من عند الله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث : التصديق بما أنزل على الأنبياء السابقين.

الرابع : الإنقياد والإمثال لأوامر الله عز وجل، وإجتنب ما نهى عنه.

الثاني : الإيمان بمعناه الإصطلاحي وهو الإقرار بالجنان وفي التنزيل ﴿قَالَتِ

الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٢).

الثالث : مجموع مصاديق الإيمان الواسعة في القرآن ومنها الإيمان بالملائكة واليوم الآخر.

الرابع : إتيان الفرائض العبادية باقامة الصلاة وإخراج الزكاة وصيام شهر رمضان، وحج البيت مع الإستطاعة والقدرة على الحج.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة وشواهد الإيمان، فلا يختص موضوع الآية السابقة، ويستقرأ مما ورد فيها ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ

(١) سورة البقرة ١٣٧.

(٢) سورة الحجرات ١٤.

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا^(١)، والذي يدل بالدلالة التضمنية على التصديق بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ويدل قوله تعالى ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ بالدلالة التضمنية على إيمان المسلمين بالقرآن كتاباً نازلاً من عند الله، ولأن الآية وردت إرشاداً وتلقيناً للمسلمين بلفظ (قولوا آمنا) فانها ذكرت النزول متعدياً بحرف الجر (إلى) بقوله تعالى ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾.

أما حينما جاء الأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقول بتعدي الفعل بحرف الاستعلاء ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾^(٢).

بحث بلاغي

الآية لا تثبت المثل أي الشبيه بذات الصفات في الوجود الخارجي فليس في البين مثلاًن وهما الشيئان اللذان يساوي احدهما الآخر في جميع الوجوه، ويقوم كل واحد منهما مقام الآخر ويشتركان في الأوصاف، والمثلاًن في عالم الأصول هما العرضان من نوع واحد كالبياضين والسوادين والمراد هنا الذات والعين لذا تعتبر (مثل) من باب الزيادة الذي هو قسم من أقسام المجاز، والتقدير، فان آمنوا بالذي آمتتم به فقد إهتدوا، فالآية دعوة للإيمان بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وقبل القول بالمجاز لابد من التدبر في إمكان حمل الآية على المعنى الحقيقي لأصالة الحقيقة خصوصاً مع إنعدام القرينة الصارفة، وقد يثبت الجامع للأمرين معاً الحقيقة والمجاز، باعتبار انه جزء من إعجاز القرآن، فالمراد من المثل هنا الشبيه المساوي في الصفات الكم والكيفية والمحمول.

(١) سورة البقرة ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران ٨٤.

فموضوع الإيمان هو نفسه يتعلق به الحكم مع قرينة تؤكدته وهي عدم وجود موضوع مغاير له، إذ أن المراد هو الإيمان بالله وملائكته ورسله وما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمن أراد أن يؤمن بمثله لابد أن يؤمن به واقعاً لإنعدام المثل والشبيه في غيره، وبذا لا تصل النوبة إلى المجاز مع قولنا بوجود المجاز في القرآن ولكن المعنى الحقيقي ممكن وتتفرع عنه عدة مسائل لا يصح تفويتها أو التفريط بها بسبب تطبيق قاعدة بلاغية على مصداق قرآني هو أعم منها وقبل أن تصل النوبة إلى المجاز.

وقيل إن (مثل) لمحذوف تقديره: فإن آمنوا بشيء مثل ما امنتم به)، ولكن ليس من مثل وشبيه للذي آمن به المسلمون إلا أن يراد من الآية التعريض بالكفار والإنكار عليهم وتحذيرهم، وإسقاط ما بأيديهم وهو مع هذا لا يتعارض مع المعنى الحقيقي الذي ذكرناه أعلاه.

بحث اصولي

تعتبر قاعدة (الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار) قاعدة أصولية تتعلق بالملكف القادر على الإمثال أو أن التكليف وتنجزه ولكنه بسوء اختياره وتصرفه جعل إمثاله متعذراً وممتنعاً وفاقداً لبعض الشرائط والأجزاء فلا يكون حينئذ معذوراً ولا يشمل حديث الرفع، بل يستحق العقاب ويلحق بالذي ترك الإمثال عمداً، ولا يكون من حالات الإضطراب، وعدم القدرة في التكليف.

واختلف مثلاً في الخروج من منزل مغضوب بسوء الإختيار وإن كان هذا الخروج للتخلص من الغضب، هل هو حرام، أم ليس بواجب ولكن صاحبه يعاقب، أم هو واجب لا يترتب عليه إثم، وبه قال ابو هاشم المعتزلي وجماعة لأنه مصداق خارجي للتخلص من الغضب، ولأن رد مال الغير إليه حسن عقلاً، وقيل انه ليس فعلاً مأموراً به، ولا منهياً عنه، ولكن بحكم المعصية فيستحق العقاب، والمسألة صغورية.

والظاهر انه فعل مركب من واجب يتبدأ بالخروج، وإستمرار للغصب بالتصرف ولعمومات أن الغاصب يؤخذ بأشد الأحوال فان التصرف في المنصوب يؤثم عليه، نعم لو كان الخروج عن توبة وندم ومقروناً بالإستغفار فان الله واسع عليم يضاعف أجر الإستغفار ويجعله ولو بعد حين يهجم على ما في الخروج من اثم بل وعلى الأعم من الخروج خصوصاً وأنه مقدمة وطريق لرفع ومحو الذنب، وجاء بصيغة الأمر الذي يحمل على الوجوب رحمة بالناس قال تعالى ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾^(١).

إن مباحث الإصول يجب أن لا تخرج عن القواعد الكلية في إجتنب جعل الناس يباسون من رحمة الله تعالى وعدم جعلهم يتمادون في المعاصي.

وروى محمد بن جرير الطبري عن ابن عباس أنه قال: لا تقولوا فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فليس لله مثل، ولكن قولوا فان آمنوا بالذي آمنتم به^(٢). وقال القاضي: لا وجه لترك القراءة المتواترة من حيث يشكل المعنى ويلبس لأن ذلك ان جعله المرء مذهباً لزمه ان يغير تلاوة كل الآيات المتشابهات، وذلك محذور.

ولا تصل النوبة إليه، فالحديث على فرض صحة سنده ونسبته لا يحمل على التغيير والتبديل فلا دلالة فيه على ارادة تغيير كلام الله والفاظه، فالمقصود المعنى والمفهوم أي أنه أراد بيان مسألة وتفسيرها وهي حمل اللفظ على هذا المعنى وتفسيره بالدلالة الإلتزامية والتضمنية والمعنى الأعم الذي ينصرف إليه اللفظ قهراً، بل على فرض أنهم موحدون يخرج الإيمان بالله عز وجل بالتخصيص وليس بالتخصيص فيكون المراد من المثل هنا التسليم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإن الهداية لا تنفك عنها ففعلاً فان موضوع

(١) سورة الزمل ٢٠.

(٢) مجمع البيان ١/٢١٨، مفاتيح الغيب ٤/٨٤، تفسير الطبري .

الخلاف هو الرسالة المحمدية وان الهداية لا تتحقق إلا مع الإيمان بنبوته والتصديق بالقرآن الذي جاء به من عند الله .

ويمكن إستقراء موضوع الإيمان في هذه الآية والذي يدل عليه الضمير الهاء في قوله تعالى (أمتتم به) هو التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن من عند الله وما فيه من أخبار وقصص.

فالآية لا تمنع المسلمين من الإلتفات الى دعوتهم فقط، بل انها تنفي صفة الإيمان عنهم ما داموا معرضين عن الرسالة الإسلامية، أي ان دعوتهم لترك الإسلام لغو، ولا اصل لها في منازل الهداية والإيمان.

لقد ظهرت بهذه الآية حقيقة عقائدية وهي أن فريقاً من الناس أساءوا لأنفسهم بدعوة المسلمين وغيرهم للإلتحاق بما هم عليه من الإعتقاد بان نفث الهداية والإيمان عنهم، وهل من برزخ بين الهداية والضلالة الجواب لا، فلا يصح الإبتعاد والتجافي عن التوحيد والنبوة والتنزيل.

قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾

في الآية اقوال:

الأول : انهم في خلاف مذ فارقوا الحق وتمسكوا بالباطل فصاروا مخالفين لأمر الله، عن ابن عباس.

الثاني : في شقاق أي في ضلال عن أبي عبيدة ومقاتل.

الثالث : في منازعة ومحاربة، عن ابن زيد^(١).

الرابع : في عداوة، عن الحسن^(٢).

وتظهر هذه الوجوه دقة مباحث علم التفسير من أيام الطبقات الأولى للمفسرين فهم لم يأخذوا الشقاق بمعناه اللغوي فقط أي العداوة بين فريقين وما في هذا المعنى من التشابه العرضي والمقابلة، بل أن الشقاق إنحصر بهم في

(١) مفاتيح الغيب ٣٧٥/٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٣٧٥/٢.

الآية الكريمة ونسبوا إليه كما يقال شق فلان عصا الطاعة، ويقال شق العصا أي فارق الجماعة، وليس في الآية إطلاق لأثر خلافهم أو تأثيرهم ، ويقال شق فلان العصا أي فرق الجمع والكلمة.

وهذا من إعجاز القرآن بحصر أضرار الشقاق بهم دون غيرهم فلن يضرروا إلا أنفسهم، ومن إعجاز القرآن وكنوزه أن اللفظ القرآني يتعدى في آفاقه ومقاصده المعنى اللغوي الموضوع له اللفظ ويجب أن نفهم منه ما هو أعم وأبعد وأخص من المعنى اللغوي وبلحاظ القرائن والدليل الشرعي أو العقلي أو اللغوي، وكما قلنا بعدم إخضاع القرآن لقيود القواعد النحوية والفلسفية فانه أيضاً لا يخضع في وجوهه وتأويله للمعاني اللغوية وما فيها من الحصر والتقييد، واللغة تتحمل ذلك والقرآن يتضمنه، ولكن إثبات هذه السعة في اللفظ القرآني بظاهر الآية ومنطوقها للحذر والإحتياط في الوقوع في التفسير بالرأي المنهي عنه، وللمنع من إتخاذ القرآن آلة وطريقاً لإثبات المذاهب الباطلة أو للتعصب لمذهب معين فالآية تحصر الشقاق نعم حاولوا التأثير على الآخرين وصدّهم عن الإسلام ولكن القرآن حال دون تفشي مقولتهم بإبطالها.

وفي الآية بشارة إنتصار الإسلام وعزل أولئك الذين يدعون إلى صد الناس عن دخوله وأن الله عز وجل سيشغلهم بأنفسهم، وهل يمكن حمل الآية على معنى جديد آخر، وهو إخبارها عن حصول الخصومة والنزاع بينهم بسبب عدم الهداية؟

الجواب: نعم وهو من مصاديقها، خصوصاً وإن الآية القرآنية لها ظهر وبطن وحد ومطلع أي الشقاق والعداوة فيما بينهم وتتبع أحوالهم يظهر لك وجوه الخلاف والخصومة فيبتليهم الله بالخصومة والنزاعات عقوبة وصدأ لهم عن إيذاء المسلمين ولينشغلوا بأنفسهم، ولكن هذه الخصومة والعداوة والخلاف بينهم لا تمنع من توجيههم ضد الإسلام متحدين أو متفرقين، لذا جاءت الآية بالإخبار عن تولي الله عز وجل كفائتهم

وكيدهم بقوله تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَمُ اللَّهُ﴾.

لا ينحصر الشقاق بينهم بل فيما بين المذاهب والقبائل منهم ايضاً، لذا ترى الفرقة والتنافر والشجار بين المذاهب المتعددة منهم، ولفظ الشقاق يعني العداوة والخصومة وظاهر الآية أن الشقاق أصبح عندهم سجية تبرز على سلوكهم في معاملاتهم وسلوكهم ومن مصاديقه حال النهب والغزو السائدة في الجزيرة قبل الإسلام.

قوله تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَمُ اللَّهُ﴾

وردت فيها السين وهو حرف استقبال يختص بالمضارع ويجعله منحصراً بالإستقبال، ولكن بينه وبين سوف عموم وخصوص مطلق، فكل منهما يفيد ارادة المستقبل، والسين تفيد المستقبل القريب ، وسوف تفيد المستقبل البعيد، ومن معاني السين أن الأمر كائن، وأن تأخر زماناً قليلاً.

وهل يعني هذا ان الكفاية الإلهية للنبي والمؤمنين منحصرة بزمان محدود الجواب: لا، من وجوه:

الأول: الكفاية العاجلة تبدد شرهم واذاهم وتجعله سالبة بانتفاء الموضوع ويصبح عديم او قليل الضرر.

الثاني: الكفاية العاجلة تجعل الإسلام قوياً لا تضره تلك الدعوى الباطلة.

الثالث: الكفاية العاجلة من الله تأتي واقية في أفراد الزمان الطولية، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١).

الرابع: إرادة معنى التجدد والحدوث في الكفاية لذا جاءت الآية بصيغة المضارع، فكلما أحدثوا شقاقاً وسعوا في الإضرار بالإسلام يدفع الله ضررهم وكيدهم، وقد تجلت الكفاية في فتح حصون خيبر وهزيمة واسر بني قينقاع.

فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإطلاق سراحهم وأمدهم بالمال لإعانة من أراد المغادرة إلى أذرعات الشام، كما أن المسلمين أسروا سبعمائة يهودياً في سرايا بني قريظة، فاطلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم سراحهم واذن لهم بالذهاب الى خيبر والمخابرة على نخلها، أي ان الأسر ثم إطلاق السراح والإذن بالمغادرة هو حكم غالبية اليهود في المدينة ممن دخل في قتال مع المسلمين او نقض العهد وهي حقيقة تفند الدعاوي وتبطل الأخبار التي تقول بقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لليهود .

أما على قول مدرسة الكوفة بان السين مختصر من سوف فلا إشكال بإتصال الكفاية ودوامها وهي ظاهرة وذكر ابن فارس أن سوف تكون للتأخير والتنفيس والأناة^(١).

مما يدل على إعجاز القرآن في مجيء السين للدلالة على حضور الكفاية الإلهية للنبي محمد ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢)، ونعتهم بالشقاق نوع ذم لهم وتحذير من أفعالهم وتوقع لحصول أضرار وآفات ذلك الشقاق لأن العقل يحكم بالتسليم للحق.

والكفاية مركبة وهو مقتضى الأصل اللفظي أي أصالة الإطلاق فاسباب الكفاية تكون في المنعة عند المسلمين، والخصومة والنزاع عند أعدائهم كما أظهرته الآية بأنهم محل للشقاق والخصومة ولأن الله عز وجل إذا أعطى فإنه يعطي بالأوفى، ويحكم بإتقان الأسباب والمقدمات ويمكن لحاظ ذلك بالشواهد والوقائع وبقاء الإسلام معها قوياً عزيزاً.

ولم ترد الآية بلفظ (فسيكفيك إياهم) مما يدل على أن أسباب الكفاية

(١)الصاحبي في فقه اللغة ٣٨/١.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

متوجهة لهم بصددهم ومنعهم عن التعدي على المسلمين ولييان فضله بما أنعم على المسلمين وفضح أعداءهم الذين يعتدون ويدعون في الدين ما ليس بحق.

تفسير قوله تعالى ﴿فَقَدْ أَهْتَدَوْا﴾

جاءت الآية بخصوص أهل الكتاب ولزوم الإهتداء إلى الدلائل التي تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإتخاذها مقدمة وطريقة للهداية ومحاكاة المسلمين، وتدل الآية في مفهومها على مدح المسلمين لأنهم ركبوا جادة الهداية قبل غيرهم وصاروا أسوة لهم، فالذي يدخل الإسلام فانه سبيلاً سالك تفيض بالمنافع الدنيوية والأخروية، وجاءت الآية بصيغة الجمع إلا أنها لا تمنع من الإنحلال والتبعيض، والقضية الشخصية فيكون تقدير الآية بخصوص الفرد الواحد منهم (فان آمن بمثل ما أمتتم به).

وتحتمل المثلية والتشابه في المقام أموراً:

الأول: إتحاد موضوع وأحكام الإيمان عند المسلمين، وإنشاء الخلاف والمذاهب عند المسلمين.

الثاني: المقصود الإيمان بأصول الدين ، وما يتفق المسلمون عموماً برشحات الكتاب والسنة.

الثالث: القدر المتيقن من الآية هو ما ورد في الآية السابقة من الإقرار بالربوبية لله عز وجل، والتصديق بما أنزل من الكتب السماوية.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، لتعلق مفاهيم الإيمان بالتنزيل الذي لا يقبل التردد، وفي الآية دعوة للمسلمين للإتحاد ونبذ الفرقة والإنشطار وتعدد المذاهب، وهذا الإتحاد جذب للناس جميعاً، وإصلاح الذات والغير، ومنع من وصول الضرر لهم من أعدائهم، ومن الفرقة التي هي مبغوضة ذاتاً وعرضاً بلحاظ أنها خلاف الوظيفة العقائدية والعبادية للمسلمين، قال

تعالى ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١).

قوله تعالى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

قد تقدم مثله في الآية السابعة والعشرين بعد المائة ولكن حكاية عن إبراهيم وإسماعيل بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢)، أما في هذه الآية فجاء على نحو الإخبار والتوكيد الإلهي وهذا فضل منه تعالى على المسلمين، والمعنى في الآية ذو شقين أحدهما يراد به المسلمون والآخر الكفار، الأول وعد وبشارة وسكينة، والآخر إنذار ووعيد من غير تعارض بينهما، ويتعلق بما بين المسلمين وغيرهم.

والآية توكيد وبيان للكفاية الإلهية للمسلمين، فان قيل كيف تكون الكفاية وهناك أمور صغيرة ويومية تحصل بيننا، الجواب جاءت هذه الآية لإفادة الشمول والإحاطة.

والسمع بالنسبة للإنسان لا يكون إلا بآلة جسمانية وحاسة ظاهرة، أما بالنسبة لرب العالمين فان ذلك ممتنع عليه سبحانه، فيكون المقصود هو علمه بالمسموعات أو أن معنى السمع صفة زائدة لا تحتاج إلى الحاسة في حقه تعالى.

وقوله تعالى (عليم) يفيد الإطلاق وفيه رد على قول بعض الحكماء بنفي علمه تعالى بالجزئيات الزمانية وإشكالهم بان تبدل العلم فرع تبدل المعلوم الذي هو في تغير دائم.

وختم الآية بهذا الاسم من أسمائه تعالى إخبار كريم عن لطفه ورحمته بالمؤمنين وعلمه بما يلاقونه في سبيل الله، وإنذار للكفار وأهل الجحود، وأنه سبحانه يعلم النوايا والأفعال، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

(٢) سورة البقرة ١٢٧.

بحث بلاغي

من وجوه البلاغة الإدماج ، وقد تقدم الكلام عنه وهو إدماج غرض في غرض أو بديع في بديع بحيث لا يختص أو يظهر في أحد الغرضين، او يظهر ولكن الآخر يدل عليه المفهوم وبال دلالة الإلتزامية، فالآية وان ظهر فيها حصر هدايتهم بالإيمان برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنها تثبت الإيمان في صدور المسلمين، وفيها مسائل :

الأولى : إنذار للكافرين وتأكيد الخسارة التي تترشح عن الضلالة.

الثانية : الآية امان من كيدهم قال تعالى ﴿يُكْرُوزُ وَيَكُرُّ اللَّهُ﴾^(٢).

الثالثة : الآية إخبار عن الوقاية منه ودفعه وإنعدام ضرره بفضل الله تعالى، ولا يعارض هذه القاعدة تلقي الأذى منهم أحياناً لسرعة زوال أسبابه وآثاره ولعظيم الثواب المترشح عن تلقيه.

(١) سورة التوبة ٧٨.

(٢) سورة الأنفال ٣٠.

قوله تعالى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحْنُّ لَهُ عَابِدُونَ﴾ الآية ١٣٨.

الإعراب واللغة

صبغة: مفعول مطلق لفعل محذوف، وعن الفراء أنه أضمر لها فعلاً (اعرفوا صبغة الله وتدبروا صبغة الله).

اسم الجلالة: مضاف إليه.

ومن: الواو عاطفة، من: اسم إستفهام في محل رفع مبتدأ، أحسن: خبر، من الله: جار ومجرور، صبغة: تمييز وهو مصدر.

وعن الحسن وغيره ان معنى الإستفهام هنا الجحد) ولكنه اعم.

ونحن: الواو: عاطفة، نحن: مبتدأ، عابدون: خبر نحن، مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم.

والصبغ: الغمس، ويقال صبغ اللقمة يصبغها صبغاً أي دهنها وغمسها، وكل ما غمس فقد صبغ وأصل الصبغ التغيير لذا استعمل في صبغ الثوب وغيره والطلاي بالألوان.

ومنه حديث علي عليه السلام في الحج فوجد فاطمة لبست ثياباً صبيغاً أي مصبوغة غير بيض^(١).

وصبغة الله: دينه، والملة التي أراد أن تتحلّى بها الأمة الوسط، والصبغة: الشريعة والخلقة، وقال الفراء: انما قيل صبغة لأن بعض النصارى كانوا إذا ولد المولود جعلوه في ماء لهم كالتطهير فيقولون هذا تطهير له كالتحانة، قال الله عز وجل: قل صبغة الله، يأمر بها محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وهي

(١) لسان العرب ٤٣٧/٨.

الختانة اختتن ابراهيم وهي الصبغة فجرت الصبغة على الختانة لصبغهم الغلمان في الماء^(١).

وهذا التأويل أعم من الصلة بالآيات السابقة للآية والمتعقبة لها وظهور وحدة السياق فيها، ولكنه لا يخرج عن موضوع الآية الذي يتضمن التحدي واقامة الحجة وتثبيت مناهج الإيمان ومعاني الفخر والعز للمسلمين الى يوم القيامة.

ومن مفاهيم الآية البشارة ببقاء الإسلام إلى يوم القيامة وأنه دين الله في الأرض وهو الدين الناسخ للأديان الأخرى.

في سياق الآيات

انتقلت هذه الآية بعد صيغ الجدل والبرهان الى توكيد الإيمان وحصره بالمسلمين والى اعلان مضمون هذا الإيمان وحقيقته وبيان سنخيته وما فيه من الشرف العظيم.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الشعبة الأولى: الصلة بين الآيات السابقة وبين هذه الآية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (ووصى بها)^(٢)، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: كان إبراهيم عليه السلام على دين الله.

الثانية: وصى إبراهيم بنيه بصبغة الله.

الثالثة: لقد إختار الله لأبناء إبراهيم ويعقوب الإسلام وصبغة الله، وهو

من عمومات قوله تعالى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

الرابعة: في الجمع بين الآيتين دليل على تفضيل المسلمين بإختيار الله لهم الإيمان والشريعة الحقّة.

(١) تهذيب اللغة ٥٢/٣.

(٢) الآية ١٣٢.

(٣) سورة البقرة ٤٧.

الخامسة: من صبغة الله البقاء على الإسلام، وعدم مغادرة منازلهم إلى حين مغادرة الروح للجسد.

السادسة: أختتمت هذه الآية بالإخبار بحكاية من المسلمين ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، وإبراهيم ويعقوب وأبنائهما أئمة العبادة وسادة العباد في التقوى والصلاح، وفيه حجة على الناس بدخول الإسلام إقتداءً بالأنبياء، ولوجود المقتضي وفقد المانع.

الثاني: الصلة بين آية (أم كنتم شهداء) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل: الأولى: كان يعقوب عليه السلام على دين الله وصبغة الإسلام إلى حين مغادرته الدنيا.

الثانية: من خصائص القرآن تأكيد ما عليه الأنبياء من الموت على الإسلام.

الثالثة: دعوة الناس لوصية أبنائهم عند الموت بتعاهد الإسلام وأحكامه وسنته إقتداءً وتأسياً بيعقوب النبي.

الرابعة: جاءت الآية أعلاه بتوكيد أبناء يعقوب لعبادتهم الله عز وجل، وإجتنبهم الشرك والضلالة، وجاءت خاتمة هذه الآية بالإخبار عن عبادة المسلمين جميعاً لله عز وجل.

الخامسة: ذكرت هذه الآية الله عز وجل بالضمير (الهاء) ونحن له عابدون، وجاءت الآية أعلاه بذكر الله عز وجل بأنه إله يعقوب وهو المخاطب من قبل أولاده، وإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وجاءت الآية بالتعيين والبيان بعد الإجمال بقوله تعالى ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، لإرادة الله عز وجل الذي ليس له شريك، قال تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

السادسة: يفيد الجمع بين الآيتين أن المسلمين على نهج الأنبياء السابقين،

وملة إبراهيم، وفيه ترغيب لأهل الكتاب والناس بتصديق وإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: الصلة بين آية (تلك أمة) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: لا يعني قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، ترك الرجوع إلى الأنبياء ومعرفة ما كانوا عليه من إخلاص العبادة لله عز وجل، ويفيد الجمع بين الآيتين أنهم كانوا أئمة في الإيمان والصلاح.

الثانية: لقد إنقضت أيام الأنبياء بالإنقطاع إلى الله، والإقامة على التوحيد، ومحاربة الشرك والضلالة.

الثالثة: يتجلى الكسب الحسن بالإسلام، فهو صبغة الله، والطريقة المثلى في الحياة الدنيا.

الرابعة: من كان على صبغة الله وفطرته فإن الأجيال اللاحقة لا تستل عن عمله، بل تكون مدعوة إلى إتباعه والإقتداء به.

الرابع: الصلة بين آية (وقالوا كونوا) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: ظهور التعارض بين قولهم ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وبين مضامين هذه الآية.

الثانية: ملة إبراهيم هي صبغة الله.

الثالثة: صبغة الله هي الهداية والإيمان.

الرابعة: ورد في معاني صبغة الله أنها حجة الله، ففي الجمع بين الآيتين حجة للمسلمين.

الخامسة: صبغة الله هي الحنيفية والإستقامة والتتزه من الشرك.

الخامس: الصلة بين آية (قولوا آمنا) ^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

(١) الآية ١٣٤.

(٢) الآية ١٣٥.

(٣) الآية ١٣٦.

الأولى: صبغة الله هي الإيمان بالله.

الثانية: من صبغة الله الإيمان والتصديق بما أنزل الله عز وجل على الأنبياء.

الثالثة: من صبغة الله عدم التفريق بين الأنبياء.

الرابعة: أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى (ونحن له مسلمون) وأختتمت الآية محل البحث (ونحن له عابدون).

السادس: الصلة بين آية (فإن آمنوا) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: ما آمن به المسلمون هو صبغة الله.

الثانية: دعوة الناس لمعرفة صبغة الله بما عليه المسلمون.

الثالثة: وجوب إيمان الناس جميعاً بدين الله.

الرابعة: الملازمة بين الهداية وصبغة الله.

الخامسة: الذين يعرضون عن صبغة الله في ضلال وخلاف وشقاق.

السادسة: يفيد الجمع بين الآيتين أن الله عز وجل ينصر الأنبياء

والمؤمنين، ويدفع عنهم شرور أهل الخصومة والفرقة والشقاق.

السابعة: المدد الإلهي لمن يكون على دين الله، ومخلصاً له في عبادته،

متحداً كان أو متعدداً، وقد تجلّى هذا المدد بنزول الملائكة لنصرة النبي محمد

صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين يوم بدر وأحد والخندق وحنين قال

تعالى ﴿إِذْ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يُكْهِمُّكُمْ أَنْ يُبَدِّدْكُمْ بِرُكُومِ بَلَاةٍ آتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

مُنْزِلِينَ﴾ ^(٢).

الثامنة: إن الله عز وجل يسمع ويعلم إخلاص المسلمين في العبادة.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية: وفيها وجوه:

(١) الآية ١٣٧.

(٢) سورة آل عمران ١٢٤.

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (أتحاجوننا) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: كراهة الإحتجاج على الذين هم على صبغة الله.

الثانية: إنتفاء موضوع الإحتجاج على المسلمين لأنهم عابدون لله

عز وجل.

الثالثة: إقرار أهل العبادة بأن الله ربهم مقدمة لعبادتهم له سبحانه.

الرابعة: أختتمت الآية بالإخبار عن صدق إيمان المسلمين، وأنهم على

صبغة الله، فخاتمة هذه الآية هي قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين أن أعمال المسلمين تتصف بأمور:

الأول: أنهم على صبغة ودين الله.

الثاني: إنقطاع المسلمين لعبادة الله.

الثالث: إخلاص المسلمين في عبادتهم.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (أم تقولون) ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط على دين

الإسلام وصبغة الله، ودين اليهودية والنصرانية متأخر عنهم زماناً.

الثانية: تأكيد نزول القرآن من عند الله لقوله تعالى ﴿أَتَسْمِعُ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾، بلحاظ

أن الإخبار عن ملة إبراهيم والأنبياء السابقين من علم الله عز وجل، وهو

الذي تفضل وجعلهم على صبغته وشريعته.

الثالثة: من صبغة الله عز وجل عدم كتمان الشهادة في دين الله.

الرابعة: يفيد الجمع بين خاتمتي الآيتين الحث على عبادة الله، والتحذير

من الظلم وكتمان الشهادة.

الثالث : الصلة بين هذه الآية وقوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ^(٣)، وفيها

(١) الآية ١٣٩.

(٢) الآية ١٤٠.

(٣) الآية ١٤١.

مسائل :

الأولى : بيان وجوه الصلة والتشابه بين الأنبياء السابقين والمسلمين.

الثانية : ان قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ لا يعني ترك ذكرها، فقد جاء القرآن بذكر الأنبياء وأبنائهم وأتباعهم وثباتهم على الإيمان والهدى ، وقد تقدم قبل آيات قوله تعالى ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾^(١)، فبنزول آيات القرآن صار المسلمون وكأنهم حاضرون

ساعة إحتضار يعقوب ولم يوص بمال وثروة بل أوصى بالإيمان والتقوى.

الثالثة : يلتقي المسلمون مع الموحدين من الأمم السابقة باخلاص العبادة لله عز وجل، وهو من الشواهد على حسن صبغة الله وفطرة الإيمان التي فطر الناس عليها.

إعجاز الآية

في الآية بشارة ووعد واخبار بان الإسلام هو الدين الذي يرضى الله للناس إعتاقه، وهو الذي اختاره لهم وجعلهم يظهرون بمظهر الإسلام وينطقون بالشهادتين ويؤدون المناسك، وفي الآية تحذير لأهل الكتاب فكيف تلوموننا على ما اختاره الله لنا ولكم ايضاً.

ومن إعجاز الآية تفاخر المسلمين بإنتمائهم للإسلام، كنعمة عظيمة من الله عز وجل بها عليهم، وفيه وقاية من الشك والريب وأسباب الإرتداد. ومع قلة كلمات الآية فقد تكرر لفظ صبغة فيها وكل منهما عائد إلى الله عز وجل بأنه عز وجل هو الذي إختار للمسلمين الإيمان، وأنهم على الحق والهدى.

لقد واجه المسلمون المشركين في بداية الدعوة الإسلامية، وعندما أرادوا أن يعبد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آلهم سنة ويعبدون الله سنة

(١) سورة البقرة ١٣٣.

نزل قوله تعالى ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾^(١)، وعندما هاجر إلى المدينة واجهه
والأنصار والمهاجرين الدعوة إلى ملل أخرى فجاء الرد والتلقين من الله عز
وجل للمسلمين بأنهم على فطرة التوحيد التي هداهم الله عز وجل لها،
وليس من ملة أحسن منها لبعث اليأس منهم في نفوس الغير، ولينقطع
المسلمون لعبادة الله ، وهو من مصاديق خاتمة الآية ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (صبغة الله) لوجوه:

الأول: مجيء هذا اللفظ في أول الآية.

الثاني: تكرار لفظ صبغة في الآية.

الثالث: لم يذكر لفظ (صبغة) في القرآن إلا في هذه الآية ومكرراً مما يدل على

موضوعيتها العقائدية.

الآية سلاح

الآية رحمة وفضل على المؤمنين وتأييس للكافرين منهم إذ تخبر عن
صدق إختيار الإسلام، وأنه فضل وهبة وخلافة في الأرض وفيه سكينه
للنفس.

وتمنع الآية من كثرة الجدال والمغالطة لما فيها من لغة الجزم والبيان
والحصر لمفاهيم الإيمان، وتدعو المسلمين إلى الثبات في منازل الإيمان، ومن
صفات الإنسان النقص والحاجة، وهما ملازمان لعالم الإمكان، فجاءت
هذه الآية على وجوه:

الأول: إنها فضل من عند الله على المسلمين.

الثاني: تأكيد حسن إختيارهم الإسلام.

الثالث: سلامة نهجهم.

الرابع : منع ديب الشك والريب إلى نفوسهم.
الخامس : تبعث الآية السكينة في نفوس المسلمين وهي من عمومات قوله تعالى ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

مفهوم الآية

من مفاهيم الآية تأكيد الثبات على الإيمان ومنع التردد أو التفريط أو التهاون، والإخبار عن إنحصار الهداية والإيمان بالتسليم ببعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وبعثة الأنبياء الآخرين، والإقرار باتحاد الموضوع في الكتب السماوية الأخرى وعدم إمكان التفكيك بينها وهذا القول ليس إبتداء من المسلمين بل هو من عند الله تعالى بمعنى انه حجة دائمة دامغة، وآية قاطعة وأمر مولوي يجب على كل إنسان الإيمان به والإمثال لمعانيه القدسية ، ومن أهم أفرادها الإقرار بأن القرآن من عند الله تعالى خصوصاً وانه يتضمن الإعجاز الذاتي والغيري أي انه يؤكد بنفسه ومصاديقه وآثاره سماويته ونزوله من عند الله وهذه الكبرى.

اما الصغرى فهي تصديقه بالكتب السماوية السابقة ونزولها من عند الله بمعنى ان القرآن يصدق نفسه باعجازه البلاغي والعقائدي ويثبت بنفسه لزوم اتباعه والإمثال لأحكامه وسنته وما فيه من الأوامر والنواهي ومنها التصديق به وبالكتب السماوية الأخرى وإجتنب كتمان الآيات والبشارات قال تعالى ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾^(٢)، وهذا من الرحمة بالناس وأهل الكتاب خاصة لأن الحجة عليهم ظاهرة بينة.

وتحت خاتمة الآية في مفهومها المسلمين على التوجه إلى الفرائض وأداء الصلاة والصيام، والحج وإتيان الزكاة وتزيين الأرض بالتقوى والذكر

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ٤٢.

وتحلية النفوس بالإيمان، كما تدعوهم إلى عدم الإنشغال بأهل الشقاق والخلاف وما يظهرونه من صيغ العناد.

وتظهر الآية الصورة البهية للإسلام وتكامل الشريعة وأنه يجعل الإنسان ينغمس في الصالحات وتظهر على سلوكه وجوارحه عناوين الهداية والرشاد فيكون المسلم معروفاً بصبغة الإيمان، وتذم الآية في مفهومها إختيار غير الإسلام منهاجاً وطريقاً، لأن الآية تحصر الشريعة ودين الفطرة بالتصديق بالقرآن وبعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى ﴿وَمَنْ

يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١).
وفي الآية مسائل:

الأولى: النهي عن محاربة المسلمين لأنهم على دين الفطرة.

الثانية: من يكون على ملة التوحيد فان الله سبحانه يكفيه ويدفع عنه، وفيه إنذار وتحذير للكفار من التعدي على المسلمين، ولما زحفت قريش بخيلها وجيوشها العظيمة من مكة إلى مدينة يثرب وقطعت على الرواحل وسيراً مسيرة أكثر من أربعمئة وخمسين كيلو متراً لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار نزل الملائكة مدداً ونصرة للنبي محمد والمؤمنين قال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾^(٢).

الثالثة: إتباع ملة إبراهيم من صبغة الله.

الرابعة: في الآية دعوة لأهل الكتاب والناس لدخول الإسلام لأنه الدين الذي يرضاه الله عز وجل ، قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ٨٥.

(٢) سورة الأنفال ٩.

(٣) سورة آل عمران ١٩.

الخامسة: ترغيب الناس بالإسلام.

الآية لطف

لقد جاءت الآية السابقة بالثناء على المسلمين لإيمانهم بالله والتنزيل ودعوة الناس لمحاكاتهم والإقتداء بهم، وجاءت هذه الآية لتؤكد مضامينها، وتقريب المسلمين من منازل الصبر والتقوى لتكون مقدمة لنصرة الله لهم في حال الحرب والسلم، وصحيح أن الدنيا دار إمتحان وإبتلاء إلا أن هذه الآية تخبر عن حقيقة وهي أن الله لا يترك الناس وشأنهم، بل يقوي عزائم المؤمنين ويوحي إليهم أنهم على النهج القويم .

ويتوجه المسلمون في كل يوم لله عز وجل في صلاتهم اليومية وهم يسألونه بصيغة قرآنية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، فجاءت هذه الآية إستجابة لهم، وإخباراً لهم بأنهم على الصراط المستقيم بالإيمان بالله والتنزيل والإمثال لأوامر الله.

إفادات الآية

لقد بعث الله عز وجل الأنبياء لعمارة الأرض بالعبادة، وتنزيهاها من مفاهيم الكفر والضلالة وظلم الطواغيت، إن نعت القرآن ما عليه المسلمون بأنه صبغة الله نصره للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشهادة من الله بصدق نزول القرآن ليكون قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾^(٢)، تأكيداً وشهادة على قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٣).

ومن سجايا الإنسان حب الإرتقاء في مراتب الكمالات، والشوق لنيل درجة أعلى وأكبر مما هو فيها، فجاءت هذه الآية لتخبر عن حقيقة وهي

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة الطلاق ٣.

(٣) سورة البقرة ١٣٨.

إتصاف الإسلام بصفة الكمال في الشريعة، وأنه حجة الله عز وجل على الناس، وبه تقاس الأعمال وتعرف منازل ومراتب الناس.

ومن الآيات إختتام الآية بالإخبار عن عبادة المسلمين جميعاً لله عز وجل لتوكيد حقيقة في الإرادة التكوينية وهي أن العبادة هي الضابطة الكلية في حياة الناس، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾^(١)، إذ أن صبغة الله والكتب التي أنزلها الله عز وجل رحمة بالناس، يجب أن يقابلوها بالإمتثال لأوامره والإنقطاع لعبادته .

وتبين الآية حاجة الناس إلى الله عز وجل في ماهية وكيفية عبادتهم له، وأنها نص من عند الله، وليس إجتهاداً من الناس، لمنع إستحواذ النفس الشهوية والغضبية على فريق من الناس والإصرار على البقاء على الملل السابقة التي جاء التنزيل بلزوم الإنتقال منها إلى الشريعة الناسخة، وهذا من أسرار توكيد الإيمان بالتنزيل مطلقاً في الآية السابقة وإبتدائها بالإيمان بالله ثم أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن بقوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾^(٢).

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالصفة لما مقدم من الكلام (صبغة الله) وتحتمل وجوهاً:

الأول: إيمان المسلمين بالله عز وجل الوارد في الآية قبل السابقة.

الثاني: تصديق المسلمين بالكتب السماوية المنزلة.

الثالث: عدم التفريق بين الأنبياء لقوله تعالى قبل آيتين ﴿لَا تَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ

مِنْهُمْ﴾.

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) الآية ١٣٧.

الرابع: التسليم والإتياد للأوامر الإلهية ، لقوله تعالى ﴿وَحُكْمُهُ مُسْلَمُونَ﴾.

الخامس: التصديق بالتزليل الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله، وآمن به المسلمون.

السادس: مرتبة الهداية التي بلغها المسلمون لقوله تعالى في الآية السابقة ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنُكُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾.

السابع: كفاية الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾.

الثامن: ما ورد في خاتمة الآية السابقة بأن الله عز وجل هو ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

التاسع: إرادة المعنى الأعم الشامل للوجوه أعلاه لإتحاد الموضوع والحكم.

العاشر: المقصود من صبغة الله أوسع وأعم من الوجوه أعلاه والمذكورة في الآيتين السابقتين خصوصاً مع لحاظ المعنى اللغوي لكلمة (صبغة) وأنها تشمل سنة الله، وحجة الله، والفطرة والخلق والشريعة.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة، وفيه دلالة على قدسية صبغة الله، وما لها من المعاني السامية والفيوضات الربانية على المؤمنين خاصة وأهل الأرض عامة، وبعد أن ابتدأت الآية بصبغة الله، أكدت أمراً وهو إتصاف دين الله بالحسن التام، والكمال المطلق في باب العبادات والمعاملات، وفيه ترغيب للناس بالإسلام، ودعوة للتفقه في الدين، وشاهد على أن الإيمان يضيف على ملة الإسلام صبغة خاصة تنبعث منها السكينة والطمأنينة، وتكون واقية من الإشتباه والخلط بين المؤمن وبين الكافر في الدنيا والآخرة.

ومن صبغة الله تجلي مصاديق الإيمان على الفعل الخارجي بإتيان

الواجبات والتتزه عن المحرمات.

ومن الآيات أن الله عز وجل في كل واقعة حكماً وجاء القرآن جامعاً للأحكام، ومحيطاً باللامحدود من الوقائع والأحداث، وهو من دين الإسلام الله، والتقيد بمضامينه من صبغة الله أيضاً، ليكون باباً خاصاً يحمل معاني الهداية والصلاح.

وأختتمت الآية بعبادة المسلمين لله عز وجل، ومع أن قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَّهُ عَبْدُونَ﴾، جاء معطوفاً على صبغة الله لبيان إنقطاع المسلمين للعبادة، ولا يمنع هذا العطف من إعتبار عبادة الله من صبغة الله وكأنه من عطف الخاص على العام .

ولما كانت بداية الآية بذكر صبغة وفطرة الله جاءت خاتمتها بتوكيد عبادة المسلمين لله وأن هذه العبادة هي دين الله، وفيه رد واحتجاج على أهل الشك والجدال.

التفسير الذاتي

قد تقدم أنه لم يرد لفظ صبغة في القرآن إلا في هذه الآية، وفيه شاهد على موضوعية هذه الآية الكريمة، وإختصاصها بماهية وقديسية خاصة تبين فضل الله عز وجل على المسلمين، وتتضمن ترغيب الناس بدخوله، والنهل من رحمة الله والانتماء إلى النهج المستقيم ، والتخلي به سلوكاً وقولاً، ورداء مباركاً، يقي الإنسان من البلاء والعذاب في النشأتين، وبلحاظ بقاء الآية حية طرية إلى يوم القيامة فإن فطرة الله والإيمان بالله عز وجل ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن وما فيه من الأحكام والأوامر هو الأحسن في النشأتين، والآية وإن جاءت بصيغة الإستفهام والتحدي وهو الذي يعرف في علم المنطق بالمركب التام الذي لا يوصف بذاته بصدق أو كذب فإن الآية تتضمن معنى الخبر الذي يتصف بالصدق والحكم الذي لا يقبل الترديد

والتبديل، قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا﴾^(١).

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: توكيد صدق إيمان المسلمين.

الثانية: حث المسلمين على الثبات في منازل الإيمان.

الثالثة: بيان الحسن الذاتي والعرضي للإسلام.

الرابعة: دعوة الناس لدخول الإسلام لأنه دين الله والملة التي أمر الله عز وجل بها.

الخامسة: دلالة الآية على بقاء وإستدامة أحكام الإسلام وعدم مجيء شريعة ناسخة لأحكامه.

السادسة: من صفات الله عز وجل أنه الحكيم الذي أتقن كل شيء، وجاءت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رشحة من رشحات حكمته تعالى لما فيها من الإيمان بالله والتصديق بالكتب السماوية النازلة من عنده تعالى.

السابعة: تزكية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتوكيد صدق بعثته، وزجر الناس عن تكذيبه.

الثامنة: إنذار الكفار من محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لأنهم على دين الله الذي إرتضاه للناس.

التاسعة: جاءت الآية ضمن نظم آيات الإحتجاج على أهل الكتاب، لتكون وسيلة سماوية لإرتقاء المسلمين في مراتب المعرفة.

العاشرة: أهلية ومناسبة الإسلام للناس جميعاً في أجيالهم المتعاقبة.

الحادية عشرة: حث الناس على طلب النجاة بالإيمان والهداية.

الثانية عشرة: إحتجاج المسلمين بإخلاصهم في عبادة الله على أهل

الكتاب بخاتمة الآية ﴿وَحَسْبُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

الثالثة عشرة: إن أسباب الشك والريب التي ييثرها أهل الجدل والخصومة لن تكون مانعاً دون تعاهد المسلمين للفرائض، وتلك آية تدل على أن المسلمين ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، إذ أنهم يواظبون على العبادة بكل الأحوال وتتوارثها أجيالهم بعز وفخر لأنها الصراط الذي أمر الله به ، وفيه برزخ ودفع للضرر الذي يأتي من الكفار والمشركين

التفسير

قوله تعالى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾

في الآية مسائل:

الأولى: اختلف في المراد من الصبغة على وجوه:

الأول: إنه دين الله.

الثاني: الشريعة والخلق.

الثالث: كل ما يتقرب به.

الرابع: هي الإسلام، وهو المروي عن الصادق عليه السلام.

الخامس: فطرة الله.

السادس: حجة الله.

السابع: سنة الله.

ولا تعارض بين هذه الوجوه بل كلها تفيد معنى واحداً وهي من المصاديق المترادفة، كما ان المعنى الصبغة مراتب تشكيكية أخرى تفيد معنى تعاهد الله تعالى لدينه وللمؤمنين.

وورد ان صبغة الله هي الختان الذي هو تطهير.

الثانية: أصل الصبغ التغيير، ومنه صبغ اللون إذا غير لونه من حال إلى

حال كالثوب الأسود يعالج فيكون أبيض أو أحمر أو أصفر، والظاهر أن هذا المعنى اللغوي موجود بالدلالة التضمنية في الآية الكريمة.

الثالثة: لقد أراد الله عز وجل الانتقال والتغيير في الدين وبأفضل وجوه التغيير وأحسنها لأنه إصلاح وخير محض.

الرابعة: تتعلق هذه الصبغة والتغيير بالكيفية والعقيدة أيضاً بقرينة أن الآيات تتحدث عن الملة والإتماء والولاء.

الخامسة: قوله تعالى ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾ هل هو تنمة لقوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا

بِاللَّهِ...﴾ ^(١) أم أنه وصف قرآني للإسلام، لا مانع من اجتماع الأمرين ، ولكن موضوع الآية أعم، وجاء منصوباً لأنه بدل عن ملة في قوله تعالى ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ^(٢) وتفسير لها، ويكون أيضاً مفعولاً لفعل محذوف من غير تعارض بينهما، فهو جامع لهما، وعن سيبويه انه مصدر مؤكد.

السادسة: في الآية معاني بلاغية إعجازية فقد جاء الوصف بالتغيير الظاهري المدرك بالحواس والذي تلتفت إليه النفوس وتستقرأه العقول.

السابعة: في الآية نوع تحد بان الإسلام كشرعية وملة أفضل الملل لأنه خيرة الله.

الثامنة: الآية دعوة لأهل الكتاب لإعتناق الإسلام لأنه تشريع جديد من عند الله تعالى ينسخ الديانات الأخرى، فنعت الإسلام بالصبغة إخبار عن التغيير في الملة.

التاسعة: الآية تحصر الديانة الحق بالإسلام لنعته بأنه صبغة الله أي الذي يصبغ المسلمين بالإيمان.

العاشرة: الظاهر من لفظ الصبغة إحاطة التغيير ومفاهيم الإسلام بكافة

(١) سورة البقرة ١٣٦.

(٢) سورة البقرة ١٣٥.

أحكام العبادات والمعاملات.

الحادية عشرة: ورود مادة الصبغ في الآية إشارة إلى أن بعض النصارى كان يغمس من يولد له من الأولاد في الماء ويسمونه المعمودية ويعتبرونه تطهيراً، واليهود يصبغونهم يهوداً، وعن قتادة انه تلقين الأبناء اليهودية والنصرانية فالصبغة هي التلقين، لذا روي أن عمر بن الخطاب أخذ العهد على بني تغلب وهم حي من أحياء العرب في الشام أن لا يصبغوا أولادهم أي لا يلقنوههم بل يتركوهم إلى أن يكبروا فيختاروا الدين الذي يريدون^(١).

الثانية عشرة: مدح وبيان لفضل الله تعالى، وعن ابن الأنباري : يقال فلان يصبغ فلاناً في الشيء أي يدخله فيه ويلزمه إياه، كما يجعل الصبغ لازماً للثوب) وهذا يعني ان الله عز وجل هو الذي يتفضل ويجعل الناس يدخلون الإسلام ويلتزمون بأحكامه، وأن إقامة البرهان للبيان والحجة من عند الله عز وجل.

الثالثة عشرة: نعت الدين بالصبغة لأنه ظاهر بالطهارة والأفعال العبادية.

الرابعة عشرة: الآية دعوة لإظهار شعائر الله ومناسك العبادات، لأن الصبغة عنوان الهيئة الظاهرية.

الخامسة عشرة: تدل الآية بالدلالة التضمنية على رسوخ الإسلام والتحصن باعلان مناسك العبادات.

السادسة عشرة: دوام الإسلام واهليته للبقاء في الأرض الى يوم القيامة فلم يوصف غيره من الأديان بهذا الوصف الذي يعني ان الإسلام واجب عيني تعييني على كل مكلف، وليس تخييرياً.

السابعة عشرة: صبغة الله ليس من الكلبي المشكك وهي ليست على مراتب، انما هي من الكلبي المتواطئ ولا يصلح الا على مصداق واحد وهو الإسلام ، والإيمان بالتنزيل.

(١) أنظر مجمع البيان ٢١٩/١.

الثامنة عشرة: ذكرت الآية الصبغة ، ولم تذكر الطلاء بالفتح لأن الطلاء المسح من الخارج كما يقال طليته بالدهن وهو عرض زائل، اما الصبغة فهي التغيير الظاهري والباطني، فبين الصبغة والطلاء عموم وخصوص مطلق فكل صبغة هي طلاء وليس العكس، وقد تكون الصبغة غير الطلاء لأنها تلبس وعرض دائم وتغيير تام بعكس الطلاء.

التاسعة عشرة: التشريف التكويني إنتفع منه الناس جميعاً، والإكرام العقائدي انتفع منه المسلمون، كما في قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١) الأول عام فالؤمن ينتفع من صفة الرحمن والرحيم في الدنيا، وينتفع في الآخرة من صفة الرحيم، أما الكافر فلا ينتفع إلا من صفة الرحمن في الدنيا.

المجاز في القرآن

أصل المجاز التعدي والإجتياز والعبور، سمي به في الإصطلاح لأن اللفظ ينقل من المعنى الذي وضع له في الأصل إلى معنى جديد مناسب له يعرف بالقرينة التي تمنع إنصراف اللفظ إلى معناه الأصلي أو تفيد النقل إلى المعنى الجديد، ومنه إرادة المدركات العقلية بواسطة الحواس لأن المجاز يصبغها بنعوت حسية لذا يعتبر من المسلمات أن لكل مجاز حقيقة يتفرع عنها. والقرينة قد تكون لفظية أي تعرف من تركيب الكلام أو تكون حالة أي ترشح من واقع الحال أو المتكلم.

وهل هناك مجاز في القرآن الجواب: نعم، والإجماع والظاهر ومضمون النصوص على وجود المجاز في القرآن باستثناء من لا يعتد بخلافه إذ أنكره جماعة من الظاهرية وأفراد معدودون من غيرهم وقالوا: إن المجاز أخو الكذب، والقرآن كله صدق وحق وأن المجاز يلجأ إليه المتكلم عند العجز عن الحقيقة وأن الله عز وجل لا يحتاج إلى الإستعارة.

ولكنها شبهات مردودة إذ أن المجاز ليس من الكذب بل أنه لغة ثانوية

مستحدثة في التخاطب تزيد الكلام حسناً وجمالاً وفيه تزيين للكلام، بل هو فرد من أفراد الإعجاز وقد يرقى في أبواب البلاغة على مراتب من معاني اللفظ التي يراد بها الحقيقة، وهو باب للتوسعة في الكلام وتعدد المطلوب وفيه دقة بالتعبير وإحتراز من إختلاط المفاهيم والمعاني ويمكن أن يقال أن صحة المجاز تتوقف على:

الأول : ترخيص الواضع والقارئ، والعلاقة وهي في الإصطلاح المناسبة بين المعنى الحقيقي والمجازي، أي بين المعنى الذي وضع له اللفظ والمعنى المنقول اليه سميت بالعلاقة لأنها تربط بين الإثنين وتساعد الذهن على إستحضار وجوه الإلتقاء بينهما، وكأنها تشبيه لإفادة المعنى وبها يخرج الغلط.

الثاني : كفاية الإستحسان الذوقي وان المجاز يترشح عن كيفية طبيعية فكل ما يستحسنه الطبع والعرف يصح نقل اللفظ اليه واستعماله فيه. وقد تجدد المجاز في كل لغات العالم فهو عبارة عن توظيف للعقل والتشبيه في اللفظ يدل عليه بالدلالة التضمنية للإختصار والبيان والتفسير، ونضيف له أن المجاز حق عندما يمضيه الشارع، فالقرآن هو الحجة الكبرى، فإذا جاء بالمجاز في القرآن فهو حق خصوصاً وأن دلالة اللفظ على المعنى لا تكون إلا بالجعل والتعيين من الواضع بغض النظر عن كون الواضع، نعم الوضع والتعيين من الشارع يتضمن الحجة الذاتية.

وسيقى المجاز في القرآن مصداقاً من مصاديق الإعجاز القرآني في باب البلاغة والفصاحة والمعاني والبيان إذ أن العرب أكثر من إستعمال المجاز وصار علامة على البلاغة والفطنة وتوظيف العقل في الألفاظ واختيارها وبما أن القرآن جاء متحدياً لبلاغتهم وفصحائهم فلا بد أن يأتي بالأفضل والأحسن فيما شغفوا به وظهر منهم الإبداع فيه.

وقد صنفت كتب في مجاز القرآن، ذكرت فيها أقسام المجاز وأمثله من القرآن في علم الأصول يقسم اللفظ بلحاظ الموضوع الذي وضع له إلى

ثلاثة أقسام: حقيقة ومجاز وغلط:

والأول: يتعلق بارادة الموضوع الذي وضع له اللفظ اصلاً.

والثاني: استعماله في غير الموضوع الذي وضع له مع مناسبة وقرينة.

اما الثالث: فهو استعمال اللفظ في غير المناسب مما لا يدرك معه معنى مفهوم عند المخاطب ووفق المتعارف والأصل في الكلام هو الحقيقة إذ(يسبق المعنى الحقيقي إلى الذهن دائماً عند سماع اللفظ مجرداً من القرينة، فمع عدم القرينة الصارفة للمعنى لا يستطيع المجاز مزاحمة الحقيقة)^(١).

وهل لفظ (صبغة) الوارد في هذه الآية من الحقيقة ام من المجاز والمتعارف انه من المجاز، والظاهر انه مشترك وجامع للحقيقة والمجاز، وهذا القول مستحدث فبدلاً عن التقسيم الى الحقيقة والمجاز فقط باسقاط الغلط يمكن تقسيم وضع الالفاظ ازاء المعاني تقسيماً جديداً إلى أربعة أقسام:

أولاً: الحقيقة.

ثانياً: المجاز.

ثالثاً: برزخ بينهما.

رابعاً: جامع لهما.

وبهذا التقسيم البلاغي الإستقرائي العقلي واللغوي على فرض تمامه تفتح ابواب جديدة من العلم ليس فقط في بلاغة القرآن بل في كنوزه وذخائره ، ومن منافعه انه يطرد تقييد القواعد البلاغية للتعدد الذي تتضمنه الآية إلا أن هذا التقسيم يستلزم الإتيان بالشواهد والمصاديق المتعددة من اللغة وصيغ الخطاب وفي آيات القرآن ودلالاتها حجة وكفاية ، وبرزخ دون بقائه كالنظرية.

فصبغة تفيد في معناها الحقيقي الإسلام كصفة عقائدية وحلة ايمانية جديدة ومفاهيمها المجازية متعددة، كل منها له عنوان شرف مستقل.

(١) أنظر معراج لأصول/ تقارير بحثنا الخارجي في أصول الفقه ٥٠/١٥٠.

وتبين الآية أن الإيمان ملكة ثابتة في نفوس المسلمين إذ تصطبغ بها قلوبهم وتتجلى على جوارحهم وفي أفعالهم فاداء المسلمين الصلاة جماعة وفردا من صبغة الله، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر من صبغة الله من جهات:

الأولى : ذات الأمر والنهي.

الثانية : موضوع الأمر والنهي.

الثالثة : الإستجابة والإمثال من المأمور بالمعروف والمنهي عن المنكر.

الرابعة : إرادة الثواب والأجر للأمر والمأمور.

وجاءت خاتمة الآية ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ لبيان أن هذه الصبغة ثابتة ودائمة وهي أصل وليس عرضاً متزلزلاً، لذا قال الله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ ليكون من معاني الأحسن في المقام ثبات الإيمان عند المسلمين ، وفي التنزيل ﴿وَلَا تَوَيْتُ إِلَّا وَآتَمُّ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

ومن معاني (أحسن) في الآية إستدامة بقاء المسلمين على عبادة الله إلى يوم القيامة ، وهو من أسرار إضافة الصبغة له سبحانه ليتعاهدها وأهلها، وهذا الإعجاز متصل ومتجدد في كل ساعة ، فالله سبحانه هو الذي يتولى عباده المؤمنين ويدفع عنهم أسباب الزيغ، وفي التنزيل ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾

قيل (ونحن له عابدون) أحسن أفعال تفضيل وجاءت الآية للثناء على الله والتحدي والإعجاز وأنه لا يمكن بلوغ مراتب الرفعة والتمام والكمال في

(١) سورة آل عمران ١٠٢.

(٢) سورة آل عمران ٦٨.

خلق الله عز وجل قال تعالى ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١﴾.

وهل يعني عدم وجود لفظ صبغة في القرآن على أنه ليس من صبغة إلا صبغة الله الجواب لا، ولكن الآية تنهى عن إتباع الظالمين والطواغيت ورؤساء الضلالة الذين يعرضون عن الأنبياء والكتب السماوية المنزلة، وفيها إرشاد للناس للجوء إلى الإسلام، والتدبر في آيات القرآن وتوكيد لحقيقة النجاة في الإيمان.

تفسير قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

قد ثبت ان الإنسان أشرف المخلوقات إذ أكرمه الله، ونفخ فيه من روحه قال تعالى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ ^(٢)، هذا السر الرباني في الأرض وقربه اليه وامر الملائكة وهم اعظم خلق الله بالسجود له، وهذا يدل بالأولوية وفحوى الخطاب على ان الإنسان اهل للإكرام وموضع التفضيل وجعله الله خليفة في الأرض وتفضل وعلمه بنفسه وسخر له الأشياء، فكان الإنسان أولى بتحمل مسؤولية وشرف العبادة في الأرض.

لذا قيل بان العبادة ضرب من الشكر وغاية فيه ولكنها أعظم، والشكر أحد أفرادها لأن مدار العبادة على إستحقاقه تعالى لها فيترشح على العبد لتكون من وظائفه الذاتية الإنتزاعية، وهي أخص من الطاعة بدليل أن العبد يطيع مولاه ولا يعبد، والمرؤوس يطيع رئيسه من غير عبادة ويلتقيان جميعاً في الوقوف بين يدي الله عز وجل للصلاة، والمتقدم في المنزلة الإجتماعية قد يكون مأموماً في الصلاة من غير تناف او تعارض او نفرة في النفوس في الحال العبادي او في أحوال الأمور الدنيوية.

(١) سورة السجدة ٦-٧.

(٢) سورة التحريم ١٢.

لقد جاءت الآية صفة تشریف إضافية للإنسان بلحاظ الإسلام أي يمكن أن نستقرأ من الآية تقسيماً لنعم الله عز وجل على الإنسان فمنها التكوينية والخلقية التي يشترك فيها الناس، منذ بدأ خلق آدم ومنها العقائدية والعناوين الاعتبارية الإضافية التي تترشح عن الإسلام تلك التي إنفرد بها المسلمون بصبغة الله وعبادته وهي أعلى وأتم من غيرها وبها يعبر الإنسان إلى منازل السعادة والفوز، ويستطيع العروج بانوار العقل وسلم الحكمة في سلم الكمالات لتبقى الروح تعمل بوظائفها وعلى صلة وإرتباط بالحق منقطعة إليه غير ملتفتة إلى محاولات صدها والغشاوة التي تصنع بمكر، وليس من حصر للأجر والثواب على حسن العبودية لله عز وجل، وهذا الجزاء أعم من أن يختص بالآخرة بل يشمل الحياة الدنيا وتتجلى مصاديقه بوجوه عديدة، وقد أسرى الله بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى جانب النبوة قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾^(١)، ومن مصاديق الجزاء والثواب في الدنيا صبغة الله وتجلي معانيها على المؤمنين في حسن سماتهم وإخلاصهم الطاعة لله عز وجل.

وفي الآية وجوه:

الأول: جاءت الآية على نحو الإخبار مما يدل على الثبات والقطع وإعلان الإنتساب إلى مناهج العبادة، والإبتعاد عما سواها فتدل بالدلالة الإلتزامية على عدم الإلتفات إلى دعوى أهل الكتاب لتنافيها مع مضامين العبادة بالإضافة إلى ما يترشح عن التلبس في العبادة من أسباب الوقاية والمنعة والحيلة.

الثاني: دعوة أهل الكتاب وغيرهم باتخاذ العبادة مسلكاً وطريقاً لمرضاته تعالى.

الثالث: لا تكون العبادة إلا بالإسلام، إذ أنها في الأصل من المتحد

وليس من تعدد المطلوب.

الرابع: إنها شهادة سماوية بصدق عمل المسلمين، وبرهان في قبول عملهم.

الخامس: الآية تعني إستغناء المسلمين عن غيرهم فهم على حالهم يصدق انهم عابدون، فما يأتيهم من غيرهم يكون فرداً زائداً وليس من العبادة، وفي كلتا الحالتين لا حاجة لهم به ولأنه ليس من عند الله.

السادس: العبادة طريق لقضاء الحوائج وقد تقدم في سورة الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) وهي الوسيلة الأسرع للقبول وقضاء الحوائج بل الطريق الوحيد والبالغة لتحقيق الغايات الحميدة.

فمثلما ينقسم طريق المارة في احكام الفقه الى نوعين:

الأول: نافذ ويؤدي إلى غيره ، وهو الذي يسمى بالشارع العام.

الثاني: طريق غير نافذ وهو الذي يطلق عليه الدربية ونحوه من الألفاظ العرفية والمحلية، وملاكه انه لا يسلك منه الى طريق آخر ، وكل منهما له احكامه الخاصة، وكذا الطريق المتخذ لقضاء الحوائج ، فالعبادة مدخل لأفاق المعارف والعلوم وتحقيق الغايات والمقاصد الحميدة بالمدد الإلهي.

والناس في العبادة شرع سواء وهي متيسرة لكافة الأنام، بإمكان كل انسان ان يتقرب إلى الله بها خصوصاً وان الإنسان خلق لها وفطر عليها ، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)، ولكن الكفار منعوا انفسهم منها ووضعوا الحجب الكثيفة أمام أبصارهم لتمنعها من رؤية الحق بينما تنفذ الحجج والبراهين الى نفوسهم طوعاً وقهراً بهذه الآيات وعبادة المسلمين التي تتضمنها هذه الآية ، ومن هذا نعلم ان عبادتنا لله حجة

(١) سورة الفاتحة ٤.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

عليهم.

السابع: نسبة العبادة للمسلمين محل عز وازهار الشكر للباري عز وجل وحسن الطاعة، وهذه النسبة ليست إعتداداً وغروراً بل بياناً لتوفيقه تعالى، فانت تجد لبس الحرير محرماً على الرجال إلا في حالات نادرة كساحة القتال مثلاً ليلبدو المسلمون بمظاهر الغنى والرخاء، فكذا في هذه الآية، ان الإخبار عن الإنقطاع إلى عبادة الله تعالى إقرار وتسليم بنعمة الله ومناسبة لمشاهدة سبحات أنوار القدس وإرتقاء في سلم الكمالات وما فيه الغبطة والعز والفوز العظيم.

الثامن: إن ملة إبراهيم هي عبادة الله، والمسلمون على ملته، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ بِلِّمَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

التاسع: ان الله عز وجل من علينا بصبغة الإسلام وعقيدة التوحيد فنحن له عابدون أي ان الآية تخبر عن حسن إمتثال المسلمين وسرعة إستجابتهم لداعي الله، وعدم قيامهم بالتفريط أو التحريف في الأحكام أو التنزيل.



قوله تعالى ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ الآية ١٣٩.

الإعراب واللغة

قل: فعل امر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت.
أتحاجوننا: الهمزة للإستفهام الإنكاري، وتحاجون: فعل مضارع، والواو: فاعل، والضمير (نا) في محل نصب مفعول به.
في الله: جار ومجرور.

وهو: الواو حالية، هو: مبتدأ، ربنا: خبر، والجملة الإسمية في محل نصب على الحال، ولنا: الواو إستئنافية وعاطفة، لنا: جار ومجرور، خبر مقدم، أعمالنا: مبتدأ مؤخر، والجملة حالية، ولكم، الواو حرف عطف، لكم: جار ومجرور، أعمالكم: عطف على الجملة السابقة.
ونحن: الواو: حالية.

نحن: مبتدأ، له: جار ومجرور متعلقان بمخلصون، مخلصون: خبر نحن مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية.
والإخلاص: قصد القربة وحسن الإمثال، والإنقياد والطاعة ولذا سميت سورة من القرآن بسورة الإخلاص وتتضمن معاني التوحيد وإبتدأت أيضاً بفعل الأمر ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١).

(١) سورة الأخلاص.١

في سياق الآيات

بعد ان بينت الآيات السابقة حسن عبادة المسلمين وسلامة اختيارهم وان الله عز وجل هو الذي أراد لهم الإسلام وارتضاه ديناً لأهل الأرض وهو حجة، جاءت هذه الآية لبيان خطأ احتجاجهم وتحذيرهم من إرادة الغلبة من غير حصول قناعة أو إعتبار وموضوعية للحقيقة فلا بد من إستعمال الحقيقة في الجدل، لذا جاءت الآية بتوكيد إخلاصنا في العبادة لله عز وجل.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (وقالوا كونوا) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: لقد قرن فريق من أهل الكتاب الهداية بإتباعهم في ملتهم، فجاءت هذه الآية للاحتجاج على هذا الإقتران والملازمة.

الثانية: إن الله عز وجل هو الذي أمر المسلمين أن يكونوا على ملة إبراهيم.

الثالثة: حث أهل الكتاب والناس جميعاً على إجتنب الشرك ومقدماته.

الرابعة: جاءت هذه الآية بالإخبار عن الجزاء على الأعمال، وجاءت الآية أعلاه بأن المسلمين على ملة إبراهيم مما يعني فوزهم بحسن الثواب.

الخامسة: توكيد المسلمين على سلامة نهجهم بإخلاصهم العبادة لله عز وجل.

السادسة: بين الآيتين في موضوع القول عموم وخصوص مطلق، إذ تضمنت الآية أعلاه قولاً لأهل الكتاب، وأمرأً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل) وجاءت هذه الآية بذات الأمر (قل).

الثاني: الصلة بين آية (قولوا آمنا) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

(١) الآية ١٣٥.

(٢) الآية ١٣٦.

الأولى: الدعوة لترك الإحتجاج والجدال والخصومة مع المسلمين.
الثانية: إن الله عز وجل هو الذي أنزل القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: التصديق بالقرآن والكتب السماوية السابقة من دين الله.
الرابعة: بيان حقيقة وهي أن المسلمين على بينة من أمرهم وسلامة نهجهم في إتباعهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعدم تركهم للإسلام.
الخامسة: الإخلاص في عبادة الله هو الأصل، وبه يعرف صدق الإيمان، فأختتم الآية محل البحث بالثناء على المسلمين لإخلاصهم للعبادة لله.
السادسة: بين الآيتين في لغة الخطاب عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء موضوع الإحتجاج على أهل الكتاب، ومادة الإفتراق توجه الخطاب في الآية أعلاه للمسلمين، وتوجهه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: وفي الآية مسائل:

الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين بداية عهد جديد، يتجلى فيه ثبوت سنن الإيمان في الأرض، وقدرة المسلمين على الإحتجاج وإدراك وإظهار العز والرضا بالهداية للإيمان.

الثانية: ليس من برزخ بين الإيمان بنبوة محمد والجحود بها، والإسلام هو الإخلاص لله في العبادة.

الثالثة: تدعو الآية المسلمين إلى ترك مجادلة الذي يعرض عن الدعوة، ويتولى بنفسه، وعدم اللحاق به لمحاولة إقناعه، فيكفيهم إخلاصهم للعبادة لله سبحانه .

الرابعة: المعاند الذي لا ينفعه الإحتجاج والبرهان يصرف الله عز وجل شره وأذاه عن المسلمين.

الخامسة: بيان قانون ثابت وهو أن الذين يخلصون العبادة لله يكفيهم شر أعدائهم.

السادسة: عدم الإكراه في الدين، وترك إجبار أهل الكتاب على الإسلام

قال تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١)، مع لغة الإنذار التي تتجلى بمضامين التخويف في الآيتين منها:

الأول: حصر الهداية بالإيمان بمثل من آمن به المسلمون.

الثاني: ذم التولي عن سنن الإيمان لقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

الثالث: كفاية الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم شرهم وأذاهم.

الرابع: إنكار المجادلة والاحتجاج على المسلمين.

الخامس: بيان إخلاص المسلمين العبادة لله.

الرابع: الصلة بين الآية السابقة (صبغة الله)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: من يكون على دين الله عز وجل لا يحتج عليه، بل يجب الإنصات لما عنده من الحجة والدليل على وجوب عبادة الله.

الثانية: دعوة المسلمين للثبات على الإسلام، وترك الإصغاء لأهل الجدل والخصومة.

الثالثة: أختتمت الآيتان بالثناء على المسلمين، فخاتمة الآية أعلاه ﴿وَتَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ وهذه الآية ﴿وَتَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾.

الرابعة: المسلمون على صبغة ودين الله، ولن يؤدي الاحتجاج إلى إرتداد بعضهم، ووصف صبغة الله شاهد على نماء ملكة الإيمان في نفوسهم ومجتمعاتهم، لذا تراهم يبادرون إلى أداء الصلاة اليومية في أوقاتها يقفون صفوفاً طويلة منتظمة تتجلى فيها معاني الخشوع والخضوع لله عز وجل.

(١) سورة البقرة ١٥٦.

(٢) الآية ١٣٨.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (أم تقولون) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: لما جاءت هذه الآية بذكر موضوع إحتجاج أهل الكتاب على المسلمين، جاءت الآية التالية لبيان مصداق من مصاديق هذا الإحتجاج بإدعاء أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً، أونصرانياً.

الثانية: لم ينحصر الإحتجاج بخصوص إبراهيم بل يشمل نبي الله إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وكان زمانهم متقدماً على أيام اليهودية والنصرانية.

الثالثة: التحذير من المغالطة في الإحتجاج لما ورد في الآية التالية من بيان قبح كتمان الشهادة من الله.

الرابعة: توكيد حقيقة وهي أن المدار في عالم الجزاء على الأعمال، وأن إدعاء نسبة الأنبياء لديانتهم لن ينفعهم لقوله تعالى ﴿وَلَكَّا أَعْمَالًا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾.

الخامسة: دعوة أهل الكتاب للرجوع إلى القرآن والصدور عنه لقوله تعالى ﴿أَلَمْ أَعْلَمْ أَنَّهُ﴾.

السادسة: التحذير من الإحتجاج والجدال بغير علم.

السابعة: جاءت هذه الآية بذكر الإحتجاج، والآية التالية بصيغة القول (أم تقولون) مما يدل على الوظيفة الجهادية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتصديق بالإحتجاج الخالي من البرهان والقول الذي لا أصل له في باب العقائد.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وبين آية (تلك أمة) ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: التدبر في القرآن ومعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بدل الإحتجاج بخصوص الأنبياء.

(١) الآية ١٤٠.

(٢) الآية ١٤١.

الثانية: الإخبار عن إنتضاء أيام الأنبياء السابقين قبل بعثة موسى وعيسى عليهما السلام ، ودعوة الناس للتدبر في آيات النبوة.

الثالثة: أكدت هذه الآية على الأعمال وأن الثواب يدور مدار العمل، وبه جاءت الآية أعلاه بذات المعنى ليفيد الجمع بين الآيتين وجوهاً:
الأول: قول المسلمين (لنا أعمالنا) كما في هذه الآية.

الثاني: إن قادة الأمم من الأنبياء الذين إنتقضت أيامهم لهم ما كسبوا من الصالحات وإكتزوا من الحسنات كما في هذه الآية.

الثالث: تأكيد الآيتين بالخطاب لأهل الكتاب بأن لهم ما كسبوا من الأعمال.

الرابعة: بيان المراد من الكسب المذكور في الآية أعلاه وأنه الإيمان وعمل الصالحات ومافيه من الثواب أو العقاب.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (سيقول السفهاء) ^(١)، وفيها مسائل:
الأولى: تأكيد أن نسخ وتغيير الصلة هو من عند الله عز وجل، وليس لأهل الكتاب الجدل والإحتجاج فيه.

الثانية: بيان تغيير القبلة من الشهادة من الله، وفيه دلالة على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قام بتبليغ ما أمر به ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ^(٢).

الثالثة: من إخلاص المسلمين لله عز وجل الإمتثال لنسخ القبلة والتوجه إلى البيت الحرام بعد أن كان لبيت المقدس.

الرابعة: التحذير من الإحتجاج على المسلمين بما فيه السفاهة وخفة العقل.

(١) الآية ١٤٢.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

إعجاز الآية

تغلق الآية باب الجدل معهم ببيان الحقيقة الدامغة، وإن المدار على الإخلاص في العبادة وهي تدل في مفهومها على الترغيب بالفرائض والإخلاص بالمسلمين، فمن كان مخلصاً لله بامكانه الإحتجاج عليهم والإفتخار بحسن الإنتساب للعبادة.

ومن إعجاز الآية التدرج في موضوعها ومضامينها السامية وخطاباتها، تبدأ بالأمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم تتعرض لموضوع الربوبية المشترك، ثم الأعمال وكل بحسب عمله ثم الإخلاص الذي فما بيننا وبينهم في الشطر الأول من الآية وموضوع الربوبية هو التساوي، ثم يأتي باب الأعمال والنسبة فيه عموم وخصوص من وجه، ثم يأتي الإخلاص في العبادة وهو موضوع يحتج به المسلمون.

ومن إعجاز الآية الدعوة لجعل الإحتجاج في ميادين عمل الصالحات، وإجتنب السيئات وفيه ندب لعمل الصالحات وإصلاح النفوس والمجتمعات بدل الإنشغال بالإحتجاج في الأنبياء السابقين.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (قل أحتاجونا) ولم يرد لفظ (نحتاجونا) إلا في هذه الآية

الكرامة.

الآية سلاح

في الآية الكريمة تخفيف عن المسلمين وتوفير للجهد والعناء باستحضار الحجة والبرهان، والإنصات إلى أقوالهم ومغالطاتهم، وفيها دعوة إلى الإسلام والإستغناء عن الجدل فالزامهم قائم بالآيات والبراهين، والآية مساهمة في تنظيم صفوف المسلمين، وتثبيت شعائرهم وأحكام الدين.

ومن منافع صناعة الجدل رياضة العقول، وإستحضار المسائل، وتحصيل المقدمات، وتنمية ملكة الإحتجاج، وإدراك موضوعية البرهان في إلزام

الخصم وله في المقام منافع عظيمة منها تقوية إيمان المسلمين، وترسيخ مفاهيم الإيمان عند حديث العهد بالإسلام، وطرد الشك والريب الذي قد يترشح من إحتجاج أهل الكتاب.

والجدل نوع مفاعلة يحدث بين طرفين، فجاءت الآية لبيان وجود خلاف مع أهل الكتاب، ودعوتهم والناس إلى جعل الملاك والمقارنة على سنخية الأعمال.

مفهوم الآية

يمكن جعل هذه الآيات من (آيات البرهان) لما فيها من صناعة الجدل بالحق وذكر الحجة، والدعوة لتحصيل اليقين.

وفي الآية ذم لأهل الكتاب لمواصلتهم الجدل في الله عز وجل، وجاء الذم لمطلق الجدل باعتبار لزوم تسليم الملمين بربوبيته تعالى وعدم الخلاف في ذلك لذا وردت الآية بصفة (الرب) لما فيه من إظهار لمضامين العبودية والمسكنة والخشوع لله عز وجل، وإفاضته سبحانه لعالم التكوين والخلق وإستحقاقه للحمد والثناء والطاعة، وتنتهى الآية عن الجدل في الله عز وجل وتأمراً بالتسليم بالنبوات والرجوع إلى الكتب المنزلة ففيها غنى عن الجدل ونهي عنه.

فالجدال وإثارة الشبهات إنحراف عن وظيفة الملمين، وبعد أن أكدت الآية وحدة السنخية في العبودية لله بين جميع البشر أظهرت الإختلاف بين المسلمين وأهل الكتاب بلحاظ العمل، وهذا الإختلاف يحتمل وجهين:

الأول : التباين في التصرف الشخصي وعدم حصول التطابق بين فعل شخص وآخر.

الثاني : الإختلاف والتنافي في العقيدة وأداء الفرائض.

والمقصود من الآية هو الوجه الثاني لقرائن المقام وصيغة الجمع في لفظ الأعمال ولأن الآية وردت في باب الذم والتحدي، ومفهوم الآية يدل على

الدعوة لإختيار انتهاء الجدل وعدم استمراره وهذه الدعوة من ارقى صيغ التعليم والإرشاد الى الأهم من الواجبات وترك الجدل الذي لا يؤدي الى ثمرة، ولا يترتب عليه أثر معتبر.

ويبدو أن إختيار شطر من أهل الكتاب للجدال عن قصد وعمد وإرادة إشغال المسلمين وإضعافهم، وبث روح الشك في صفوفهم ومنع دعوتهم للإسلام، وجرحهم إلى المهادنة وجعلهم في منازل وعلى حال الريب والعناد. وفي الآية مسائل:

الأولى: إبتداء الآية بالخطاب التشریف والتكليف للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل)، وفيه تنبيه لأهل الكتاب وغيرهم أنهم يحتاجون من يأتيه الأمر الإلهي على وجوه:

الأول: الأمر بالقول وعدم السكوت وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: إنها عرق الأنبياء بالكلام).

الثاني: إنه من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

الثالث: جاء الأمر بصيغة الأمر الخاص بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو خطاب إنحلالي يشمل المسلمين جميعاً.

الرابع: بيان جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل الله، وإستعداده لما يأتي من الأذى بسبب الإحتجاج عن أمم تقول أنها على حق وصواب وأن ملتها هي التي يجب أن تتبع وتلك وظيفة جهادية لم يتحملها أحد وهو السلامة من الأذى من الشواهد على تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامس: دعوة المسلمين للإقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: لم تقل الآية (قل أحتاجوننا) بل جاءت بصيغة الجمع في الإحتجاج

كما يدل على كثرة وتعدد جدال أهل الكتاب مع المسلمين، فجاء الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليصرع بالدفاع عن الإسلام والمسلمين، وهل في الآية شاهد على جواز تدخل المسلم في الدفاع والإحتجاج وأن كان مع غيره من المسلمين قصر والحن في حجته الجواب نعم، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً^(١).

الثالثة: الإحتجاج لا يكون في اليقينيات والبديهات، إذ يجمع المسلمون وأهل الكتاب على ربوبية الله تعالى للخلائق، ويدل في مفهومه على طرد النفرة بين المسلمين وأهل الكتاب، فمن بدائع الإحتجاج أن تذكر المسائل المتفق عليها، خصوصاً إذا كانت هي الأصل، والعبودية لله هي أصل الذي تبقى عليه الأصول الأخرى.

الرابعة: دعوة أهل الكتاب والمشركين إلى ترك المسلمين يؤدون الفرائض والواجبات العبادية، وكل إنسان يلقي جزاءه يوم القيامة، قال تعالى ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٢).

الخامسة: بعث اليأس في نفوس الكفار، بتوكيد عدم إرتداد المسلمين الذين هم فرحون بإخلاصهم العبادة لله عز وجل.

الآية لطف

بعد العذاب وأشد صنوف الأذى من كفار قريش من مكة المكرمة، جاءت مرحلة الإحتجاج يثرب، وهذا الإحتجاج مع أهل الكتاب وليس مع المشركين، نعم لم يكن الإحتجاج وحده إذ زحف الكفار بجيوش عظيمة لإستئصال المسلمين، والقضاء على دولة الإسلام، ووقف نزول آيات القرآن

(١) الكشف والبيان ١٥٥/٣.

(٢) سورة النجم ٣٩.

بقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي أنهم طلبوا ما هو ممتنع ذاتاً، فجاء المدد الملكوتي من السماء للبطش بهم في يوم بدر وأحد والخندق في آية لم تشهد لها الأرض مثيلاً، وهو من اللطف الإلهي ليتوجه المسلمون للتفقه في الدين للرد على الشبهات، والقيام بالاحتجاج وإحضار البرهان، والوصول إلى المطلوب.

وتبين الآية أن المسلمين قادرين على إقامة البرهان، وإنهم لا يلجأون إلى الجدل وما يدل عليه هذا اللجوء من العجز عن إقامة البرهان، كما أنهم لم يأتوا بالبرهان الذي يخفى على الخصم أو يعجز عن إدراكه، بل هو واضح مبين، وهو الإلتقاء في الإقرار بالربوبية لله، بينما جاء إحتجاج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على مشركي قريش ببيان التنافي والتضاد بذات الأمر من عند الله (قل) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾^(١).

ويتجلى اللطف بأهل الكتاب في لغة الإحتجاج التي تجذبهم إلى الإسلام وتطرد النفرة والكدورات الظلمانية.

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه قال: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْثَىٰ مُعْتًا وَلَا مُتَعْتًا وَلَكِنْ بَعَثَىٰ مُعَلِّمًا مُّسِرًّا^(٢)، فجاء الإحتجاج في هذه الآية مدرسة في النصيح والدعوة إلى الهداية بالحجة والبرهان، وتبين الآية الإرتقاء الفكري في زمن التنزيل مما يدل على الإعجاز الذاتي والغيري للقرآن إذ أقر أساطين البلاغة أنه فوق كلام البشر.

(١) سورة الكافرون ١-٣.

(٢) صحيح مسلم ١٨٧/٤.

إفادات الآية

لقد أنعم الله عز وجل على المسلمين وجعلهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، فرزقهم الإرتقاء في سلم الكمالات، وما فيه من الكسب والعز والغبطة ليكون أسوة للناس، وأسوة لجذبهم لمنازل الهداية والإيمان، فرزقهم الإحتجاج بأبهى صيغة ولغة الحجة والبرهان ضمن معاني التوحيد، وزيادة الهمة في عمل الصالحات.

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين أن يكونوا أئمة في الإحتجاج ودفع المغالطات والجدل، ويكون هذا الإحتجاج رشحة من رشحات آيات القرآن الإحتجاجية وآيات الأحكام وقصص الأنبياء وغيرها، وهو من الإعجاز الغيري للقرآن، وجاء الإحتجاج في هذه الآية على لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليبقى غضاً متجدداً إلى يوم القيامة من وجوه:

الأول: وجوب الأخذ بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

الثاني: تلاوة المسلمين لهذه الآية في الصلاة اليومية وغير الصلاة.

الثالث: قيام المسلمين بالإحتجاج على أهل الكتاب وغيرهم، فصحيح أن مضامين الآية موجهة إلى أهل الكتاب إلا أنها عامة وشاملة، وبرهان بيد المسلمين، ومناسبة لتثبيت الإيمان في نفوسهم.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلغة الخطاب (قل) وهو على ثلاثة وجوه:

الأول: إرادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على نحو التعيين

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة الحشر ٧.

والحصر كما في تجاوز عدد أربع زوجات في النكاح، وقيل بإختصاصهم في وجوب التهجد بقوله تعالى ﴿مَنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾^(١)، فورد (عن ابن عباس: أن صلاة الليل كانت فريضة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكتوبة عليه ولم تكتب على غيره وكانت فضيلة لغيره)^(٢).

الثاني: شمول المسلمين الرجال بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دون النساء، كما في آيات القتال والجهاد وسقوطه عن النساء.

الثالث: شمول عموم المسلمين والمسلمات بالخطاب الموجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في هذه الآية (قل) فيأتي للنبي أصالة، وللمسلمين والمسلمات بالتبعية والواسطة.

والأصل في الخطاب القرآني هو الوجه الثالث أعلاه إلا مع القرينة على التعيين والحصر، وفي هذا الأصل سعة ومندوحة وشاهد على تجدد وظائف الآية القرآنية، وما تبعته من الضياء المبارك الذي تستنير بهداه الأجيال المتتالية من المسلمين والناس جميعاً.

وجاءت الآية بالإستفهام الإنكاري الذي يتضمن بذاته الحث على توظيف العقل في مرضاة الله وقواعد الإحتجاج، ثم جاءت الآية بإظهار المسلمين أصدق معاني العبودية لله عز وجل، وكما أن علة خلق الإنسان هي العبادة لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾^(٣)، فجاءت هذه الآية لتؤكد أن إحتجاج المسلمين لتوكيد عبادتهم لله، وتعاهدهم لعلة الخلق، ودعوة الناس للإقتداء بهم.

ثم جاءت الآية ببيان موضوعية الأعمال في تعيين الإلتزام العقائدي، ويدل في مفهومه على الحث على الصالحات والكف عن الجذال، قال

(١) سورة الإسراء ١٧٩.

(٢) مجمع البيان ٤٣٤/٦.

(٣) سورة الذاريات ٥٦.

تعالى ﴿الَّا تَرَوْا زُرَّةً أُخْرَىٰ﴾^(١)، وإذ ابتدأت الآية بالأمر بصيغة المفرد، جاءت خاتمة الآية بلغة الإخبار وصيغة الجمع (ونحن له مخلصون) لبيان إتصاف المسلمين بالإقرار بالربوبية لله عز وجل والإجتهاد في طاعة الله وبذل الوسع في مرضاته وأنهم يقفون جميعاً خلف رسول الله ويقتدون به ويستظلون بظله، وفيه زجر للكفار عن السعي لإرتداد عدد من المسلمين، ودعوة لأهل الكتاب لنصرة المسلمين وعدم إعانة الكفار عليهم.

التفسير الذاتي

جاءت آيات الإحتجاج بذات اللفظ وألفاظ أخرى مثل الإستفهام الإنكاري كما في قوله تعالى ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾^(٢)، ويدل قوله تعالى (أتحاجوننا) على أن أهل الكتاب هم الذين يبدؤون بالجدال والإحتجاج مما بين الحاجة إلى الرد عليهم وعدم ترك إدعائهم بغير رد لمنع الإفتتان به، لذا أمر الله عز وجل نبيه بالرد بالقول الذي يتصف بالحكمة والبرهان، ويدل في مفهومه على أن الإنشغال في مقاتلة الكفار، وحفظ بيضة الإسلام، وإقامة الفرائض يجب أن لا يكون مانعاً من الجهاد اللساني، ورد الأباطيل والمغالطات، وإزالة الشبهات وأسباب الشك وجاء الأمر بالرد في آية أخرى بصيغة الشرط، قال تعالى ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾^(٣).

وجاءت الآية بالإقرار بالربوبية المطلقة لله عز وجل ليكون دعوة لعبادته سبحانه وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٤)، ولم

(١) سورة النجم ٣٨.

(٢) سورة آل عمران ٦١.

(٣) سورة آل عمران ٢٠.

(٤) سورة آل عمران ٥١.

يرد لفظ (مخلصون) بصيغة الجمع والرفع بالواو وقوله تعالى ﴿نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾، إلا في هذه الآية الكريمة وفيه شاهد على فوز المسلمين بمرتبة الكمالات الإنسانية، ودرجة اليقين، بإخلاص العبادة لله عز وجل على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي، وليكون النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم شاهداً على الأجيال المتعاقبة من المسلمين إلى يوم القيامة، لعدم إنحصار الإخبار في الآية بأهل البيت والصحابة من المهاجرين والأنصار، بل هو شامل للمسلمين عموماً، فإن قلت من المسلمين من لم يؤد الفرائض فهل يكفي النطق بالشهادتين لتحصيل صفة الإخلاص في العبادة والجواب من وجوه:

الأول: لا بد من إتيان الفرائض واجتناب السيئات، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

الثاني: لا عبرة بالشاذ النادر الذي يقصر في عبادته.

الثالث: تتوالى آيات البشارات والإنذارات لتدارك المسلم تقصيره وخطأه.

الرابع: بقاء باب التوبة مفتوحاً للمسلم.

الخامس: موضوعية أحكام الشريعة وتكاملها في صدق إخلاص العبادة لله عز وجل.

السادس: قيام المسلمين على نحو متصل بالأمر بالمعروف، والدعوة للإخلاص في عبادة الله، قال تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

(١) أنظر الجزء الثامن والأربعين من تفسيرنا الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: جاءت الآية إحتجاجاً على إحتجاج، مع التباين فيه إذ أنها تتضمن البرهان الذي يدعن له الخصم، ويتضمن النفع العام بالتذكير بالإطباق والإتفاق على العبودية لله عز وجل.

الثانية: بيان حقيقة وهي أن الآية القرآنية مدد للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وقد نزل الملائكة لنصرتهم يوم بدر وأحد، أما هذه الآية فهي نصره يومية متجددة، وليس لها مكان معلوم، فتجدها عوناً في كل مكان، وفي الحضر والسفر.

الثالثة: تولي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه الإحتجاج على أهل الكتاب وهو من مصاديق وظائف النبوة في التبليغ، قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

الرابعة: التذكير بموضوعية الأعمال في معرفة منازل الناس.

الخامسة: إستحضار العمل في الوجود الذهني، والتدبر فيما يترتب عليه من الثواب أو العقاب.

السادسة: يتضمن قوله تعالى ﴿لَنَّا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، الإجمال وإن كان يدل بقرينة الإحتجاج والتحدي على إرادة صحة أعمالنا، وجاءت خاتمة الآية بالتفصيل في أعمال المسلمين وبما يتضمن الثناء عليهم ومدحهم بأنهم مواظبون على عبادة الله عز وجل، مخلصون في طاعته، وفيه إشارة إلى إستعدادهم للجهاد والذهاب إلى سوح المعارك طلباً لمرضاة الله، مع مواظبتهم على إقامة شعائره، كما يتجلى الإخلاص بالإمتثال لأوامر الله، وإجتناب نواهيه.

التفسير

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾

ظاهر الآية اللوم والتوبيخ لإتباعهم لغة الإحتجاج مع المسلمين ومن احتجاجهم الذي نهوا عنه موضوع ظهور الرسالة عند العرب، لغة الجمع ظاهرة في المحتجين والمتخاصمين والذين حصل معهم الإحتجاج من المسلمين مما يدل على أهمية الموضوع وأثره على الإسلام والمسلمين فجاءت الآية تتضمن الأمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتدخل ورفع وتعليق مثل هذه الإحتجاجات.

ولقد كانوا يأملون ان تكون النبوة فيهم، خصوصاً وانهم على دين التوحيد ويقولون كيف يكون العرب احق بالنبوة وهم عبدة الأوثان، ولكن الأعمال بخواتيمها والله يؤتي فضله من يشاء، فقد كانت النبوة والرسالة عندهم ولم يحفظوها، ومنهم من قال ان الخطاب موجه للعرب ايضاً لأنهم قالوا لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، وقال آخر انه خطاب مع الكل والأقوى ان الخطاب مع اهل الكتاب لظاهر نظم الآيات، ولكنه يقبل السعة والعموم.

وظاهر الآية حصول الإحتجاج معهم، وهي لم تقطعه من الأصل أو تغلق باب الجدال معهم لأن اهل الكتاب وغيرهم على مراتب متعددة ومتفاوتة في الجدال وأهل الكتاب أقرب للمسلمين من غيرهم، فكان الإحتجاج وسيلة إسلام بعضهم وهو طريق لإقامة الحجة على الجميع بالإضافة الى أمور:

الأول : رياضة اذهان المسلمين.

الثاني : تنمية ملكة الإحتجاج.

الثالث : إستحضار الدليل.

الرابع : تحصيل المقدمات، وإقامة البرهان.

الخامس : الإلتفات الى الآيات والصدور عن مضامينها القدسية، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

ويتجلى الإعجاز في القرآن والشرعية الإسلامية مطلقاً لإتخاذها مادة في صناعة الجدل وترسيخها في الأذهان وتسهيل الإيمان بها على الناس ومعرفة حثياتها، فمن يحتاج في القرآن يحتاج الى استحضار بعض آيات القرآن وتكون حجة فيها الكفاية والقطع، قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٢).

قوله تعالى ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾

ان مقام الربوبية عام وشامل للجميع ولا يجوز ان يكون باباً للخصومة والفرقة بل بالعكس هو سبيل الإتحاد، والقرآن يفسر بعضه بعضاً فمن تفسير هذه الآية قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(٣).

انها دعوة لتنزيه مقام الربوبية من الخصومة فهو عنوان الإتحاد والإلتقاء في منازل العبودية والطاعة والامتثال.

والخلاف في الإيمان بالرسالة التي هي شطر وجزء من الإيمان، فقد جاء رسول من عند الله تعالى لم يؤمن به فريق بالذات مع تسليمهم باصل النبوة، اذ ان الملمين جميعاً متفقون على إثبات واجب الوجود وهو الأصل في مباحث علم الكلام فيما يجوز عليه وما لا يجوز، وبيان بعض افعاله لعجز الخلائق عن الإحاطة بها، وكيف انه لا يحتاج إلى المؤثر لأن القدم يستلزم الوجوب، ولذا إستدل المتكلمون على ان العالم حادث فلا بد له من محدث، فلو كان هذا المحدث محدثاً أيضاً لإستلزم التسلسل أو الدور،

(١) سورة الإسراء ٩.

(٢) سورة الزمر ٣٦.

(٣) سورة آل عمران ٦٤.

والمراد من العالم في الإصطلاح كل موجود سوى الله عز وجل اذ لا واسطة بين ذات الله تعالى وبين ما سواه.

قوله تعالى ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾

بعد الإقرار بالكبرى الكلية والإعتراف بمقام الربوبية وان الأعمال لا بد وان توضع في ميزان الحساب ويتعلق بها الثواب والعقاب، فان كلاً منا مسؤول عن أعماله لا يؤاخذ بجريرة غيره.

وتبين الآية مسعى المسلمين بأحكام الإسلام، وغبطتهم وسعادتهم بأداء الفرائض وأنهم يرجون الثواب من عند الله، وكأنهم يقولون لا يأتيكم من نفع أعمالنا شيء، ولا يأتينا ضرر من أعمالكم، وجاءت آية المباهلة لبيان التحدي وتوكيد أن المسلمين على بصيرة من أمرهم، وأن نزول القرآن حق، قال تعالى ﴿فَنَزَّلْنَا حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١).

والآية دعوة لأهل الكتاب لترك المسلمين وحالهم لأنها مرحلة نماء وبدايات تأسيس وإنشغال بالذات، ومن خصائصها حاجة المسلمين الى القوة الكافية لمواجهة التعدي الذي يصدر من قريش ولكنها لا تأمر المسلمين بترك الناس وشأنهم، فالآية ذاتها إحتجاج وبرهان في دفع الضرر المحتمل ولأن الجدل الذي يقومون به غير مطلوب بذاته بل هو آلة ووسيلة لإجهاض الإسلام.

فجاءت هذه الآية منعة وعوناً وتخلصاً من الجدل وليس هروباً منه بل بالحجة والبرهان مع عدم التفريط أو إظهار الضعف أو الشك لذا كانت خاتمة الآية ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ وهذه هي المزية والعلة في الإستغناء عن الإحتجاج.

فالأمر في الآية مركب فبعد النهي عن الإحتجاج والمحااجة والجدال الذي لم يقيم على قواعد صحيحة لأن من شروط البرهان ان تكون مقدماته يقينية. وقد عرف البرهان بانه قياس مؤلف من يقينيات ينتج يقيناً بالذات إضطراراً فلو كانت إحدى مقدمات البرهان غير يقينية لما صدق عليه أنه برهان بل ولأصبح جدلاً أو شعراً أو مغالطة، لأن القياس يتبع أحسن مقدماته، لذا فان اطلاق اسم الإحتجاج على الوارد في الآية يحمل على المعنى اللغوي الأعم وهو الجدل (والتحاج: التخاصم، وهو رجل محتجاج أي جدل والتحاج التخاصم)^(١).

قوله تعالى ﴿وَحُزِّنْ لَهُ مُخْلَصُونَ﴾

جاء الخطاب بلغة القطع لبيان ثبوت الإيمان في صدور المسلمين، وعدم تأثرهم بالأباطيل وصيغ الجدل ، وهو في مفهومه يدل على إنفراد المسلمين بأسباب الهداية.

والآية مدح وثناء على المسلمين يبعث اليأس في قلوب أعدائهم وهو في مفهومه دعوة لهم للإيمان، كما تبين الآية الإرتقاء العقائدي الذي أصبح عليه المسلمون، وفي الآية دعوة لإعلان الإيمان والتقوى أمام الجاحدين سواء بالقول أو بإتيان الأفعال العبادية وتعظيم شعائر الله والمواظبة على الجمعة والجماعات.

ومع إنهماك المسلمين في بناء كيان دولتهم ونشر لواء الإسلام بصيغ الحكمة والموعظة والجهاد فانهم يعلنون إخلاصهم في العبادة كأشرف وظيفة إستطاع الإنسان أن يرتقي إليها، ويدركها عقله بمؤازرة النبوة والتوفيق والمدد الإلهي.

ولم يرد لفظ (مخلصون) بصيغة الرفع في القرآن إلا في هذه الآية، وجاء بصيغة النصب سبع مرات، قال تعالى في أهل الكتاب ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

(١) لسان العرب ٢/٢٢٦.

أم الله: عطف على انتم، ومن: الواو: إستثنائية، من: اسم إستفهام مبتدأ، أظلم: خبر.

ممن: من: حرف جر، من: اسم موصول في محل جر متعلق بأظلم، كتم: فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، شهادة: مفعول به منصوب. عنده: عند: ظرف مكان منصوب متعلق بمحذوف صفة لشهادة، الهاء: ضمير مضاف إليه، من الله: جار ومجرور.

وما: الواو: عاطفة وإستثنائية، ما: نافية تعمل عمل ليس، الله: إسمها، بغافل: الباء حرف جر زائد، غافل: مجرور بالباء لفظاً في محل نصب خبر ما. عما: جار ومجرور متعلقان بغافل، تعملون: فعل مضارع وفاعل.

وقرأ عبد الله بن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (ام تقولون) ^(١)، بصيغة الخطاب كما هو مرسوم في المصحف، والباقون قرأوا بالياء (يقولون) بصيغة الإخبار عن اليهود والنصارى.

وكنتم الأمر يكتمه كنماً وكنماناً: أخفاه، وجعله سرّاً تقيض الإعلان. وفي اسم إبراهيم لغات: إبراهيم وإبراهم وإبراهيم، وقال عبد المطلب: عذت بما عاذ به إبراهيم

وقال ابن منظور: إبراهيم اسم أعجمي ^(٢)، ولكن ورد في معاني الأخبار معنى ابرهم انه هم فبر، أي عزم على لإخلاص العبادة لله فوفى بعزمه وعهده، قال تعالى ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ^(٣).

وإسحاق: اسم أعجمي، وعن سيويه، الحقوه بناء إعصار ويقال: أسحقه السفر إسحاقاً أي أبعده.

والأسباط: بنو يعقوب كالقبائل في ولد إسماعيل وهم إثنا عشر سبطاً،

(١) مجمع البيان ١/٢٢٠.

(٢) لسان العرب ١٢/٤٨.

(٣) سورة النجم ٣٧.

وعن ابن الإعرابي: الأسباط خاصة الأولاد.
وفي الخبر: الحسين سبط من الأسباط^(١)، أي أمة من الأمم في الخير،
والأسباط اولاد الولد، والظاهر أن المراد من الأسباط في الآية أعم من أولاد
يعقوب الصليبين فيدخل فيهم الأنبياء من ذراريهم كداود وسليمان بالإضافة
إلى يوسف عليهم السلام.

وقد ذكر إبراهيم في القرآن تسعاً وستين مرة في ثلاث وستين آية مما يدل
على عظيم منزلته، وذكر إسماعيل إثنتي عشرة مرة، وإسحاق ثماني عشرة
مرة، ويعقوب ست عشرة مرة، والأسباط خمس مرات.

في سياق الآيات

الآية في باب صناعة الجدل والاحتجاج وإقامة البرهان وهي مدرسة في
تنزيه الأنبياء وتوكيد خروجهم بالمخصص عن ديانة غير الإسلام والإتيان
لله حتى على المعنى التام والكامل لتلك الملل الخالي من التحريف والتبديل
والتغيير، وبعد رد دعواهم بحصر الهداية بهم والإعلان والإقرار بأن الله
عز وجل ربنا جميعاً، جاءت هذه الآية في إبطال احتجاجهم بالأنبياء وردت
عليهم بصيغة التحدي مما يعني وجود الحجة، وفيها أيضاً نوع وعيد وتهديد
كما هو ظاهر في ذيلها.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ﴾^(٢)، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: لقد جاءت الآية أعلاه بوصف الذي يعرض عن ملة إبراهيم بأنه
سفيه، ، مما يدل على ضرورة الاحتجاج ونفي السفه عن المسلمين بتوكيد

(١) لسان العرب ٣٠٨/٧.

(٢) الآية ١٣٠.

أنهم على ملة إبراهيم، ورد ونسبة السفه للذين يعرضون عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه على ملة إبراهيم عليه السلام.

ولعل هناك صلة بين هذه الآيات وبين ما ورد في التنزيل حكاية عنهم ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَزْزَ فَلَتَمُوتُوا أَلَيْسَ لَكُمْ عَذَابٌ﴾^(١).

الثانية: جعل ملة إبراهيم أصلاً في الانتماء العقائدي للموحدين، وفيه إكرام لإبراهيم عليه السلام، وتنبية إلى إتباعه وعدم جعله واعتباره تابِعاً لليهود والنصارى.

الثالثة: توكيد بيان التنافي بين الإيمان وبين السفه وخفة العقل.

الرابعة: الترغيب بدخول الإسلام ببيان منزلة إبراهيم عليه السلام.

الخامسة: بيان مقام إبراهيم عند الله وإمامته وصدق عبوديته وجهاده وصبره في جنب الله.

الثاني: الصلة بين آية ﴿أَسْلِمَ﴾^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تذكير أهل الكتاب بجهد إبراهيم وتفانيه في مرضاة الله عز وجل.

الثانية: مجئ الآية أعلاه بخصوص إبراهيم عليه السلام بينما جاءت الآية محل البحث بذكر الأنبياء من أبنائه.

الثالثة: دعوة أهل الكتاب للإلتفات إلى إنقياد إبراهيم لأوامر الله عز وجل والإقتداء به، إذ أمر الله عز وجل بتصديق نزول القرآن من عنده، وإتيان أوامره وإجتنا نواهيه.

الثالث: الصلة بين آية ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

(١) سورة البقرة ١٤٢.

(٢) الآية ١٣١.

(٣) الآية ١٣٢.

الأولى: لقد أوصى إبراهيم أبناءه بكلمة التوحيد، ولم يوصهم باليهودية أو النصرانية.

الثانية: دعوة أهل الكتاب إلى إتباع إبراهيم وأبنائه في عبادة الله، والبقاء على الإسلام.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين أن إبراهيم والأنبياء من أبنائه اجتهدوا في عبادة الله، وأظهروا الثبات على الإيمان.

الرابع: الصلة بين آية ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: الإحتجاج على أهل الكتاب بما قاله يعقوب لأبنائه حين حضرته الوفاة.

الثانية: دعوة أهل الكتاب إلى الإلتقاء في كلمة التوحيد.
الثالثة: توكيد الأنبياء السابقين على ضرورة الإلتقاء لأوامر الله، والبقاء على الإسلام.

الرابعة: لقد قالوا أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً وجاءت الآية أعلاه في الرد عليهم بدعوتهم إلى التوحيد، قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(٢)، والمدار على الحاضر والخطاب التكليفي.

الخامسة: مجئ الآية أعلاه من علم الله عز وجل، وإخبار القرآن عن الأنبياء السابقين وإخلاصهم لعبادة الله عز وجل.

السادسة: جاءت الآيتان بالأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل) في الإحتجاج على أهل الكتاب مع التعدد في الموضوع والحجة.

الخامس: الصلة بين آية ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

(١) الآية ١٣٣.

(٢) سورة آل عمران ٦٤.

(٣) الآية ١٣٤.

الأولى: تنبيه أهل الكتاب إلى العناية بأنفسهم ووظائفهم الشرعية.
الثانية: لقد اجتهد الأنبياء السابقون في تثبيت دعائم التوحيد، وتوارث الإيمان، وفيه دعوة لأهل الكتاب للإقتداء بهم.

الثالثة: كلمة التوحيد هي سور الموجبة الكلية الجامع للمليين والموحدين.
الرابعة: جاءت خاتمة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وجاءت خاتمة الآية أعلاه بقوله تعالى ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويفيد الجمع بينهما حث أهل الكتاب على عمل الصالحات، وإتيان الفرائض التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السادس: الصلة بين آية ﴿وَقَالُوا كُونُوا﴾^(١)، وهذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: كما يقول اليهود والنصارى بأن إبراهيم والأنبياء من أبنائه كانوا يهوداً أو نصارى، فكذا يريدون من المسلمين والناس أن يكونوا يهوداً ونصارى، وتلكما الدعوتان باطلتان ولا أصل لهما.

الثانية: جاء الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الآية أعلاه ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وجاءت هذه الآية بالإنذار من إخفاء الشهادة عن الله، وتحريف ماجاء في التوراة والإنجيل بخصوص ملة إبراهيم، والبشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولزوم إتباعه.

الثالثة: الآية محل البحث عون وسلاح وقائي عند المسلمين للإعراض عن قول أهل الكتاب ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

الرابعة: يواجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مقولتين من أهل الجدل متشابهتين في الموضوع.

الأولى: تتعلق بالأنبياء السابقين بقولهم ﴿كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

الثانية: تختص بدعوة المسلمين ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

الخامسة: دعوة أهل الكتاب للإقتداء بإبراهيم والتنزه من الشرك والضلالة.

السابع: الصلة بين آية ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: بيان التباين بين قول المسلمين وإعلانهم الإيمان بالله والتنزيل، وبين قول أهل الكتاب بخصوص الإنتساب العقائدي للأنبياء السابقين.

الثانية: لقد ذكر المسلمون الأنبياء السابقين بالتصديق بما أنزل عليهم، أما أهل الكتاب فقد وقفوا عند قول (كانوا هوداً أو نصارى).

الثالثة: بيان إرتقاء المسلمين في مراتب المعرفة الإلهية بذكرهم لأسماء الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وإيمانهم بما أنزل الله على موسى وعيسى.

وفيد الجمع بين الآيتين أنه ليس مما أنزل على موسى وعيسى أن الأنبياء الذين سبقوا موسى وعيسى كانوا يهوداً أو نصارى.

الرابعة: دعوة أهل الكتاب إلى الإلتقاء على قانون ثابت في التوحيد وهو الإتيان لأوامر الله عز وجل، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾^(٢).

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين أن المسلمين مجتهدون في طاعة الله، ومتعاهدون لشرائط وأركان الإيمان.

السادسة: يتصف عمل المسلمين بالإجزاء ونيل الأجر والثواب لأن المأتي به مطابق للمأمور به بالتقيد بالأوامر الإلهية الواردة في الآية أعلاه ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾.

(١) الآية ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران ٥١.

السابعة: لو كان الأنبياء السابقون هوداً أو نصارى لآمن به المسلمون لأنهم يصدقون بما أنزل على الأنبياء جميعاً، وهو لا يتعارض مع إخلاص المسلمين العبادة لله عز وجل، وإنقيادهم لأوامره وتسميتهم بالمسلمين لخاتمة الآية أعلاه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وفيه دعوة لأهل الكتاب بالتصديق بما أنزل الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثامن: الصلة بين آية ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾^(١)، وبين هذه الآية، وفيه مسائل:

الأولى: في الجمع بين الآيتين دعوة لأهل الكتاب بالإيمان بالله وما أنزل من الكتب بدل الإحتجاج بانتساب إبراهيم والأنبياء لليهودية والنصرانية.

الثانية: لا يقف المسلمون عند الإحتجاج بل يدعون أهل الكتاب والناس جميعاً إلى الهداية والسلامة من العذاب بالتصديق بالتنزيل، والإقرار بنزول القرآن من عند الله.

الثالثة: البشارة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بعدم ترتب الضرر على إحتجاج أهل الكتاب.

الرابعة: جاء الأنبياء السابقون بلزوم إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

التاسع: الصلة بين آية ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إتباع إبراهيم عليه السلام في ملته من صبغة الله.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين الحث على إجتناّب الجدال، والمبادرة إلى الإسلام، وهو صبغة الله، قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣).

(١) الآية ١٣٧.

(٢) الآية ١٣٨.

(٣) سورة آل عمران ١٩.

الثالثة: ترغيب أهل الكتاب بالعبادة التي تتجلى بأبهى كفياتها بما جاء به القرآن من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج بقصد القربة والطاعة لله عز وجل.

الرابعة: جاءت خاتمة آية ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ بالإخبار عن الإنقطاع في العبادة لله عز وجل، ويترشح عنه أنهم لا يكتمون شهادة من الله.
العاشر: الصلة بين الآية السابقة ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا﴾^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يلحق الإحتجاج بخصوص إبراهيم والأنبياء الآخرين بالإحتجاج بالله عز وجل بلحاظ النبوة والتنزيل.

الثانية: جاء القرآن بالإخبار عن نفي إنتساب إبراهيم وأبنائه من الأنبياء لليهودية والنصرانية.

الثالثة: تضمنت خاتمة الآية أعلاه صدق إيمان المسلمين بقوله تعالى ﴿وَحَسْبُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ مما يدل على أن المسلمين يحتجون على إخفاء الشهادة من الله، وهذا الإحتجاج من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية ﴿قَدْ خَلَتْ﴾^(٢)، وفيها مسائل:
الأولى: التحذير من كتمان الشهادة من الله ، وما جاءت به التوراة والإنجيل بخصوص الأنبياء السابقين.

الثانية: يترتب على إخفاء الشهادة من الله الإثم، وهو من الكسب الذي تحذر منه الآية التالية.

(١) الآية ١٣٩.

(٢) الآية ١٤١.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين الثناء على الأنبياء السابقين، وإقرار المسلمين بمجهادهم في سبيل الله.

الرابعة: لن يضر تخلف أهل الكتاب عن التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إقرار المسلمين بنبوة الأنبياء السابقين وإن قيل أنهم كانوا هوداً أو نصارى، ولو كان اليهود الأوائل من أصحاب موسى عليه السلام موجودين أيام بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لصدقوه ولتبعوه ونصروه.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: القول بأن إبراهيم والأنبياء السابقين كانوا هوداً أو نصارى لا أصل له وكذا اللوم على تغيير القبلة.

الثانية: دعوة المسلمين إلى الإعراض عن إنكار تحويل القبلة لأن هذا التحويل جاء بأمر من الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّ قَبْلَكَ تَرَضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢).

الثالثة: الدعوة للتنزه عن السفه وخفة العقل ، ولزوم إجتنب لوم المسلمين في أحكامهم الشرعية.

الرابعة: إحتجاج المسلمين على أهل الكتاب بخصوص إبراهيم وأبنائه من الأنبياء السابقين دعوة لهم لإجتنب إنكار تحويل القبلة.

الخامسة: التنبيه إلى أن المدار على الهداية والإيمان.

السادسة: الترغيب بالهداية بلغة الإنذار والتحذير التي جاءت بها خاتمة الآية السابقة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية ﴿أَمَّةٌ وَسَطًا﴾^(١)، وفيها مسائل:

(١) الآية ١٤٢.

(٢) سورة البقرة ١٤٤.

الأولى: دعوة أهل الكتاب للإنصات للقرآن في بيان حنيفية وملة إبراهيم، ونفي إنتسابه لليهود أو النصارى.

الثانية: من شهادة المسلمين على الناس تحذير أهل الكتاب من إدعاء أن إبراهيم والأنبياء من أبنائه كانوا يهوداً أو نصارى.

الثالثة: لا يكتُم المسلمون ما عندهم من الشهادة.

الرابعة: موضوعية إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في موازين الأعمال.

اعجاز الآية

الآية وثيقة سماوية وعهد للمسلمين بأن أنبياء الله عز وجل قبل موسى عليه السلام ليسوا بيهود ولا نصارى وفيها بيان لآيات التوحيد وسلامة الإيمان من غير حاجة إلى اليهودية والنصرانية، لقد نفت الآية وجود إمتداد وبعد زمني في الماضي لغير الإسلام، والقرآن يؤكد هذه الحقيقة في زمان التنزيل وما بعده، فهذه الآية من آيات الحصر الزمني لغير القرآن، وأن قبل اليهودية والنصرانية هو الإسلام.

والآية من آيات (الإحتجاج) ومصاديق قوله تعالى ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، ويتجلى الحسن بلغة البرهان والتخويف التي في الآية والتحذير من إخفاء البشارات الواردة في النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) الآية ١٤٣.

(٢) سورة العنكبوت ٤٦.

ويمكن أن نسمي هذه الآية الكريمة آية (أم نقولون) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا مرتين، إذ جاء الثاني في سورة البقرة ذاتها وفي خطاب أهل الكتاب أيضاً و(أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة)^(١).

الآية سلاح

لم تكف الآية بالتفكيك بين الإيمان وبين ما يدعون بل جاءت بلسان التحدي والتوكيد، وتتولى إبطال دعوتهم بنسبة الأنبياء لديانتهم، مما يهيئ للمسلمين مناسبة كريمة للإستبصار بالواقع العقائدي ومسار النبوة، وهي دفاع وبيان لسلامة واقع المسلمين، والقواعد العامة المتجانسة للديانة الحقّة التي نشأت وترعرعت بسرعة وقوة لذا جاءت هذه الآية منعة ووقاية للإسلام والمسلمين.

يأتي الإحتجاج في القرآن على قول أهل الكتاب أو الكفار ليكون حرزاً وحصناً عقائدياً للمسلمين من هذه الأقوال، ودعوة لهم للجهد في سبيل الله، بالكلمة والحجة، وبذل الوسع لإستحضار الدليل لأنه آلة وسلاح في معركة الإحتجاج التي تتجلى فيها معاني النصر بما يفوق أحياناً ساحة المعركة من وجوه:

الأول: إبطال حجة الخصم مقدمة وطريق لجذبه للإيمان.

الثاني: التسلح بالبرهان عصمة من الإفتتان بأقوال الملل الأخرى.

الثالث: الإحتجاج الوارد في هذه الآية زيادة في البصيرة، ودرس سماوي في معرفة أحوال الأنبياء السابقين وإقتفاء أثرهم، قال تعالى ﴿فَبِهْدَاهُمْ أَقْدَهُ﴾^(٢).

(١) أنظر سورة البقرة ٨٠.

(٢) سورة الأنعام ٩٠.

مفهوم الآية

بعد إعلان الثبات على الإيمان، والتسليم بما جاء في القرآن، وبعد لغة التقييد والذم على الجدل في الله عز وجل إنطلقت صيغة البرهان من المسلمين وفي الأنبياء ونسبة إلتمائهم أي أن الآيات تحدد للمسلمين مناهج الجدل وقواعده الكلية باجتناب الجدل في الله عز وجل لعدم إمكان حصول الخلاف فيه فانه يخرج عن حريم الجدل بالتخصيص.

فالله سبحانه هو رب العالمين ، وعلى الناس جميعاً الإلتقياد لطاعته طوعاً أو كرهاً ويجب ان يكون التوحيد سبباً ومناسبة للإلتقاء والوفاق بين المسلمين وأهل الكتاب ، بدليل قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (١).

فالنزاع ليس في مقام الإثبات وصيغة الأمر مادة وهيئة ودلالة بل هو في منازل الواقع والثبوت والإمثال ليكون المأتي به مطابقاً للمأمور به شرعاً وعقلاً.

ثم جاءت خاتمة الآية لتبين المائز في الأعمال وسلامة نهج المسلمين وإخلاصهم لله عز وجل بالإيمان برسالة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتسليم بنزول القرآن من عند الله تعالى، أي أن العمل بأحكام القرآن هو عنوان الإخلاص له سبحانه.

ومن مفاهيم خاتمة الآية إخبار أهل الكتاب وغيرهم بثبات المسلمين على دينهم وأن الجدل لن يغير من عزائمهم أو يضعف من همهم، فالآية تبعث اليأس في قلوب أعداء الإسلام.

وهذه الآية من آيات البرهان أيضاً، وبينما تتضمن الآية السابقة في مفهومها النهي عن الجدل في الله عز وجل للزوم إلتقياد أهل الكتاب والناس

جميعاً لعبادته تعالى والإقرار بصفات الباري عز وجل في القرآن والتسليم بربوبيته وإجتناّب الجدال في الذات المقدسة ولزوم معرفة عظيم قدرته بلحاظ بديع مخلوقاته، جاءت هذه الآية بالاحتجاج والبرهان والتحقيق العقائدي فيما يخص الأنبياء السابقين ونسبة إثمائهم، وإبطال دعوى ملل مخصوصة أنهم كانوا منهم.

فالآية وثيقة سماوية وتلقين سماوي وفضح لدعوى باطلة وهي أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا من اليهود بل هم على الخيفية ولم تكن اليهودية إلا من بعدهم وكذا المسيحية وبعثة عيسى ﷺ إذ أنها جاءت متأخرة زماناً عن اليهودية وبعثة موسى عليه السلام، وهذه الحقيقة جلية وواضحة ولكنها لم تكتسب صفة الوضوح والقطعية إلا في هذه الآيات لأن هذه الآيات القرآنية منعت من التحريف في تأريخ هؤلاء الأنبياء العظام وحالت دون الإستصحاب القهقري بخصوص إثمائهم.

والآية شهادة قرآنية جعلت المسلمين يلتفتون إلى تأريخ النبوة ويولونه العناية والإهتمام بها، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١)، أي أن قصها في القرآن فضح للتحريف بخصوص سنن الأنبياء، وواقية من الجدال بالباطل وتزييف الحقائق .

وتمنع الآية من محاولات التحريف والتبديل بالترتيب والتوالي في الحقب التاريخية وسنن الأنبياء ودعوى إلتسابهم لليهودية أو النصرانية مطلقاً أي أنهم يقرون بسبق زمان إبراهيم ﷺ والأنبياء الآخرين من أبنائه على زمان موسى ﷺ ومع هذا يدعي اليهود أنهم كانوا هوداً، ويدعي النصارى أنهم على ديانة عيسى.

وهل تعني الآية وقوله تعالى ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، الإشتراك والترديد في القول بان يقول النصارى واليهود ان هؤلاء الأنبياء إما أن يكونوا هود او نصارى ويكون قولهم على وجوه:

الأول: يقول اليهود كونوا يهوداً.

الثاني: يقول النصارى كونوا نصارى.

الثالث: يقول اليهود كونوا نصارى من أجل إرتداد المسلمين، ومنع الإلتناء له.

الرابع: دعوة النصارى لدينهم وترغيب الناس للإلتناء له.

الخامس: قول النصارى كونوا هوداً، لمنع دخول الناس الإسلام ، الجواب لا، فالقدر المتيقن من الآية هو أن اليهود يدعون لليهودية، والنصارى للنصرانية، وفي التنزيل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ ^(١)، كالإجماع المركب في الأصول وإرادة منع قول ثالث في المسألة الفقهية، أي أنهم يريدون بقولهم هذا أن إبراهيم والأنبياء الآخرين ليسوا مسلمين.

وجاءت الآية على نحو السبر والتقسيم فمعناها ان اليهود يقولون أنهم كانوا من ملتهم وأن النصارى يقولون أنهم نصارى .

ومن مفاهيم الآية الإنذار والتخويف من إخفاء الشهادة على التنزيل وعلوم الوحي وسنن الأنبياء، وفيها دعوة إلى إعلان أهل الكتاب لما توارثوه من البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخبار الحنفية بالنسبة للأنبياء السابقين.

وفي الآية تحذير من إعطاء الأولوية لإنتساب الأنبياء لما فيه من الغفلة عن نزول القرآن والآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأخبار التي وردت في كتبهم عوناً ومؤازراً لها.

وكما أن نبوته صلى الله عليه وآله وسلم تصديق لنبوات الأنبياء السابقين وإمضاء لليهودية والنصرانية قبل الإسلام فإن تلك النبوات والأديان شاهد سماوي وتاريخي على صحة نبوته وسلامة إختيار الناس إتباعه والإنقياد لما جاء به.

وفي الآية مدح للأسباط وإلحاقهم بالأنبياء في الحنيفية ومنع من الإفتراء عليهم، وبينما تعلق صدر الآية بأقوال أهل الكتاب جاءت خاتمتها إنذاراً وزاجراً متعلقاً بعملهم وتلك مدرسة قرآنية في خواتيم الآيات لأنها ترد بصيغ القواعد الكلية ولغة الشمول والإستيعاب ، فيشمل الإنذار إدعاءهم بخصوص الأنبياء وتعهد إخفاء الشهادة خصوصاً وأن الكتمان ليس قولاً بل يلحق بالفعل لأنه أمر وجودي وليس عديماً لقصدهم وإرادتهم وإصرارهم على الكتمان.

ولو قالت الآية "عما تقولون" لخرج الكتمان بالتخصيص لأنه ليس قولاً، فقوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إعجاز قرآني وإطلاق سماوي يتصف بالدقة التي يعجز عنها البيان وأرباب البلاغة والفصاحة، ومتعلقه أعم من الكتمان ويبين أن التعدي على الإسلام بالفعل والقوة أكثر ضرراً وأكبر أثماً، وهو سبب في تعجيل العقاب للظالمين.

جاء ذكر كل من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط مرتين خلال خمس آيات، إذ جاء ذكرهم في الآية السادسة والثلاثين بعد المائة ولكن مع التباين في الموضوع، والإخبار عن إيمان وتصديق المسلمين بما أنزل الله عز وجل عليهم.

أما هذه الآية فقد جاءت بخصوص إنتسابهم العقائدي وتدل في مفهومها على إقرار اليهود والنصارى بنبوتهم خصوصاً وأن زمانهم متقدم على زمان موسى وعيسى عليهما السلام، وفيه حجة عليهم للزوم التصديق بما أنزل الله عليهم.

وقد يكون من آثار القول بأنهم كانوا هوداً أو نصارى عدم الإلتفات إلى ما أنزل إليهم خاصة من الأحكام بتقريب أنها عند اليهود والنصارى، وجاء الإسلام ليبين أنهم أنبياء شرفهم الله عز وجل بالوحي والكتاب، ومضامين ما أنزل الله عز وجل عليهم في القرآن لأن فيه ﴿ثِيَابًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

وجاءت الآية بصيغة الجمع ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ لبيان الإحتجاج عليهم جميعاً، ودعوتهم كمكلفين للكف عن هذا القول، فقد يصبر عليه الكبراء منهم، فجاءت الآية دعوة لعامتهم للرجوع إلى البرهان ونبد هذا القول. وفي الآية مسائل:

الأولى: كما جاءت الآية السابقة بالنهي عن الجدال في الله، فقد جاءت هذه الآية في النهي عن الجدال في الأنبياء السابقين.

الثانية: توجيه الأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإحتجاج على أهل الكتاب، ودعوتهم لتفويض الأمور لله عز وجل، والرجوع إلى التنزيل الذي يحكي ملة الأنبياء السابقين.

الثالثة: التحذير من كتمان الشهادة عن الله، وبيان أن الله عز وجل يظهر الحق، ويكشف حقائق التنزيل، فمن يخفي الشهادة لا يضر إلا نفسه، ولا بد أن يظهرها الله سبحانه.

الرابعة: ان الله عز وجل لا تخفى عليهم خافية، وهو يعلم بأقوال وأفعال العباد.

الآية لطف

لقد أنزل الله القرآن رحمة بالناس جميعاً، ومنه الإحتجاج على أهل الكتاب فهو لطف من وجوه:

الأول: إنه رحمة بأهل الكتاب لما فيه من الدعوة للرجوع إلى القرآن والإصغاء إلى آياته وما فيها من الإحتجاج والبرهان.

الثاني: الآية لطف بالمسلمين لأنها عون لهم في مواجهة أهل الشك والعناد والجدال.

الثالث: كان الناس قبل بعثة النبي يرجعون لليهود والنصارى في أخبار النبوة لأنهم أهل كتاب.

فنزل القرآن ليرجع الناس إليه، وهو من الأسرار في تسمية القرآن بالذكر وبقائه سالماً من التحريف إلى يوم القيامة، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).

وجاءت الآية بصيغة الإنكار للقول بأن إبراهيم وأبناءه الأنبياء والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، وفيه دعوة للإجهار بالشهادة التي جاءت في الكتب السابقة، وفي البشارة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن.

وتدل هذه الآية على حاجة الناس للقرآن، فالبشارة بهم مطلوبة بالذات وهي أعم في موضوعها لما فيها من نجاة الناس من المقولات الباطلة، وتقريهم إلى منازل الطاعة، وأسباب الهداية والصلاح.

إنفاضات الآية

جاءت الآية في إنكار نسبة إبراهيم وأبنائه من الأنبياء إلى اليهودية والنصرانية، وهو إحتجاج يدل على مادة للإلتقاء العقائدي بين المسلمين

وأهل الكتاب، وفيه دعوة للتقارب وطرده النفرة من نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجهاد المسلمين في سبيل الله، ودعوة لأهل الكتاب إلى عدم محاربة المسلمين، وحسدتهم لإتساع الدولة الإسلامية، وقد جاءت السور المكية في بداية الدعوة الإسلامية بالتخويف والوعيد لكفار قريش والمشركون، وما ينتظرهم من العذاب الأليم.

قال تعالى ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا^(١)، ونزلت الآية في صناديد قريش، لحسن معيشتهم ولما هم عليه من الترف والإصرارهم على الكفر، بينما جاءت الآية محل البحث بالاحتجاج وإبطال الشبهات، والإتيان بالبرهان مع إتحاد الغاية في المقامين، بتخليص الناس من قيود الدنيا، والكدورات الموحشة، وغلبة النفس الشهوية والغضبية، ولكن التباين في جهة الخطاب لإقامة كفار قريش على الشرك وإصرارهم على الكفر وعبادة الأوثان، أما أهل الكتاب فانهم يقرون بنبوة الأنبياء السابقين ولكنهم يقولون أنهم كانوا هوداً أو نصارى فجاءت هذه الآية لدفع وهم، وإزاحة الحجب عن القلوب، قال تعالى ﴿لَمْ تُحَاجُّوْا فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٢).

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بمحرف التسوية (أم) لإرادة الإتصال بما في الآية السابقة من الإستفهام بذات اللغة من الخطاب ويفيد الجمع بين الآيتين السؤال لماذا تحاجون في الله وهو ربنا وربكم، وتحاجون في الأنبياء وأنهم كانوا على ملتكم، وإنما هم على ملة التوحيد الحنيفية.

(١) سورة المزمل ١١-١٢.

(٢) سورة آل عمران ٦٥.

ومن الإعجاز في الآية أنها ابتدأت بذكر قول مركب لأهل الكتاب بصيغة الإحتجاج عليهم، والنفي لأفراد قولهم هذا، وهو على قسمين:

الأول: قول اليهود بأن إبراهيم وأبناءه الأنبياء كانوا على دين اليهودية.

الثاني: قول النصارى بأن إبراهيم وأبناءه كانوا من النصارى، وقد يقال بأن المراد هو الإتحاد بين ملة إبراهيم وملتهم، فجاءت الآيات ببيان وجود مادة للإفتراق قال تعالى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(١).

وجاء ترتيب الأنبياء بذكر إبراهيم عليه السلام، ثم إسماعيل وهو أول أبناء إبراهيم، ثم إسحق الذي جاء بعده في الترتيب في الولادة مع التعدد في الأم، وأم إسماعيل هي هاجر، وأم إسحق هي سارة ثم ذكرت الآية يعقوب وهو إسرائيل نفسه أي له إسمان، وجاء القرآن بذكرهما إسمين له، ومع أن (إسرائيل) ورد ذكره في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة، فإنه لم يرد إسماً مستقلاً ليعقوب إلا مرة واحدة منها في قوله تعالى ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾^(٢)، ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ثم ذكرت الآية الأسباط بلغة العطف على إبراهيم وهم أولاد يعقوب بلحاظ أنهم على ملة التوحيد.

وجاءت الآية بالإحتجاج بأن الله عز وجل هو العالم وهو الذي أحاط بكل شيء علماً الذي أنزل الكتب وجعل اليهودية تأتي مع موسى عليه السلام، والنصرانية مع عيسى عليه السلام، وكلاهما متأخر زماناً عن أيام إبراهيم وأبنائه وأحفاده، وفيه دعوة لأهل الكتاب للرجوع إلى القرآن

(١) سورة البقرة ١٣٥.

(٢) سورة آل عمران ٩٣.

والسنة والأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل عن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وجاءت الآية بصيغة الإستفهام في تأكيد قبح إخفاء الشهادة عن التنزيل وأخبار الأنبياء، ومن أسباب العز عند المسلمين أنهم يتعاهدون آيات القرآن، ويمنعون عنها يد التحريف، وفيها قصص الأنبياء وأخبار الأمم السالفة، كما أنزلها الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن تكون كنزاً سماوياً علمياً وتاريخياً تقتبس منه الدروس والعبر، وهذا التعاهد من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، والآية تحذير لأهل الكتاب وتحذير لهم بأن المسلمين لا يخفون شهادة عندهم، لذا لم يسكتوا على دعوى نسبة إبراهيم، بل جاء الأمر لردّها وإبطالها، وفيه منع لتمادى أهل الكتاب أو فريق منهم بمثل تلك الدعوى التي لا أصل لها، سواء في ذات الموضوع صعوداً إلى الأنبياء السابقين كنوح وهود وشعيب عليهم السلام والأمم السابقة أو في موضوع آخر غير الإنتساب لملة مخصوصة. وجاءت خاتمة الآية بلغة الإنذار ذاتها، وفيها حث لأهل الكتاب لإجتنب التحريف.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: مضامين الآية من مصاديق إحتواء القرآن للعلوم والأخبار وأحكام الإحتجاج ولغة البرهان، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة النحل ٨٩.

الثانية: تنبيه المسلمين إلى لزوم عدم ترك أهل الكتاب يقولون ما يشاءون بغير حق.

الثالثة: جاءت الآيات في ذم أقوال مخصوصة لأهل الكتاب، وليس كل ما يقولون، وقد جاء عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: لاتصدقوهم ولا تكذبوهم^(١).

الرابعة: ذكر الأنبياء في القرآن، بما يتضمن دعوة المسلمين لإكرامهم، والحث على الإقتداء بهم.

الخامسة: التقسيم الإستقرائي للشهادة إلى قسمين:

الأول: الشهادة عن الله عز وجل.

الثاني: الشهادة في حقوق الناس.

وجاءت الآية لتؤكد شأن وأهمية الشهادة عن الله عز وجل وأن الذي يخفيها هو أظلم الناس.

السادسة: جاء أفعال التفضيل في أظلم لوجوه:

الأول : ظلم كاتم الشهادة لنفسه، لأنه يعرضها لأشد أنواع العذاب.

الثاني: ظلمه لغيره من الناس.

الثالث: ظلمه للتنزيل.

السابعة: إختتام الآية الكريمة بالوعيد والتخويف.

التفسير الذاتي

تتضمن الآية تعيين موضوعها، وهو نفي دعوى أهل الكتاب أن شطراً من الأنبياء السابقين لنزول التوراة والإنجيل كانوا يهوداً أو نصارى، مما يدل على أهمية هذه الدعوة وما يترتب عليها من الآثار إذا ما تركت وشأنها بين الناس.

ومن الآيات أن الخطاب في الآية لم يأت لتحذير المسلمين خاصة والناس عامة من تلك الدعوى، بل الخطاب إلى أهل الكتاب خاصة لوأدها وعدم جعلها موضوعاً للجدال لأن الأهم هو التوحيد والتدبر في آيات النبوة. والخطاب في قوله تعالى ﴿تَقُولُونَ﴾ إنحلالي ينشطر بخصوص نسبة

الأنبياء السابقين إلى وجهين:

الأول : الخطاب لليهود: أم تقولون كانوا هوداً.

الثاني : الخطاب للنصارى، أم تقولون كانوا نصارى.

الثالث : الجامع المشترك بين الخطابين.

وورد لفظ (أم تقولون)، إحداهما في هذه الآية، والأخرى قوله تعالى

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ويفيد الجمع بين الآيتين أن إدعاء نسبة إبراهيم والأنبياء من أبنائه إسماعيل وإسحاق ويعقوب إلى ملتهم أنه قول من غير علم بالإضافة إلى ما فيه من إخفاء الشهادة، والإمتناع عن التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع أن الكتب السابقة جاءت بالبشارة بها، مع جريان المعجزات على يديه ونزول القرآن المعجزة العقلية المتجددة إلى يوم القيامة.

وأيهما أهم تلك البشارة أم المعجزات.

الجواب هو الثاني لأنها برهان وحجة حاضرة على الناس جميعاً، وتحتاج البشارة في الكتب السابقة المعجزة، وقد لا تحتاج المعجزة البشارة بل تكون عوناً لأهل الكتاب والناس وحتى المسلمين ولطفاً من الله عز وجل بهم لإتباع ونصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لذا ترى أحد الناس رأساً من رؤوس الكفر والضلالة، فما يلبث أن يدخل الإيمان قلبه دفعة واحدة، لما يراه من معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يلتفت إلى التحريف والإنكار في البشارات التي جاءت بخصوصه في الكتب

السماءية السابقة وأخبار الأنبياء قال تعالى في عيسى عليه السلام ﴿وَبَشِّرَا
رَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(١).

وجاء قوله تعالى ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ في خمس عشرة آية من القرآن، وبحرف
العطف (الواو) تارة كما في الآية أعلاه، و(الفاء) تارة أخرى، وهو آية
موضوعية في إعجاز القرآن، إذ يتحد اللفظ، وتتعدد مواضعه، مع أنه جاء
بصيغة أفعل تفضيل التي تدل على إرادة خصوص موضوع معين يدل على
أنه الفرد الأكثر والأكبر.

ليدل هذا التعدد على القبح الذاتي والعرضي وشدة الظلم في كل من
كتمان الشهادة من الله، والإنذار من سخط الله، والإعراض عن آيات
الله^(٢).

التفسير

قوله تعالى ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ
كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ في الآية مسائل:

الأول: الآية خطاب لبني اسرائيل يحمل الإنكار والتوبيخ.
الثاني: تتعلق الآية بموضوع عقائدي يصلح ان يكون قاعدة كلية عند
الملمين بلحاظ أن إبراهيم أبو الأنبياء، والشرائع المتأخرة تفرعت عن ملة
التوحيد والإنقياد إلى الله، وجاء القرآن بالدعوة إلى ملة إبراهيم وتوكيد أن
النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على نهجه قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَى
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾^(٣)، وفيه توكيد لنبوة محمد صلى الله

(١) سورة الصف ٦.

(٢) أنظر سورة البقرة ١٤٠، ١١٤، سورة الأنعام ٢١، ٩٣، ١٤٤، ١٥٧.

(٣) سورة آل عمران ٦٨.

عليه وآله وسلم.

الثالث : في الآية قطع لطريق الدعاوى الكاذبة، ومحاولات حصر إرجاع كل شيء إلى الأنبياء السابقين والإفتراء على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم فيها.

الرابع : تفصل الآية بين ما في التوراة والإنجيل وما يدعون، لذا جاءت بصيغة التوبيخ والتقييح مع ما تدل عليه من تنزيه الكتب السماوية مطلقاً.

الخامس : سواء كانت دعوى إنتماء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط لملة مخصوصة كانت موجودة ويحتجون بها على المسلمين أم لم تكن موجودة ومطروحة بعد فإن الآية تنفي البرهان عنها وتجردها من مقومات الحقيقة والصدق فإن أستحدثت من جديد جاءت سالبة ليس لها سلطان.

السادس : الآية في مفهومها دفاع عن المسلمين وإحتجاج قرآني نيابة عنهم وبذا تظهر الوجوه الإعجازية في إتخاذ القرآن سلاحاً وحرزاً ومدرسة عقائدية وسياسية وتربوية هادفة.

وإبتدأ ذكر الأنبياء بإبراهيم عليه السلام وفيه مسائل:

الأولى: إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء الذين ذكرتهم الآية.

الثانية: إتفاق الملبين على نبوة إبراهيم وعظيم شأنه بين الأنبياء.

الثالثة: التقدم الزمني الرببي لأيام إبراهيم عليه السلام على التوراة والإنجيل.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة.

وهل دعوتهم للمسلمين بأن يتبعوا ملتهم من الأذى في قوله تعالى ﴿لَنْ

يُضْرَوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ ^(١)، الجواب نعم، ولكن هذه الآيات صرفت الأذى المترشح عن هذا القول وبينت بطلانه فجعلته سالبة بانتفاء الموضوع.

ومن الإعجاز في الآية أعلاه أنهما لم ترد بصيغة الدعوة إلى ملتهم، بل بالقول ﴿قَالُوا كُونُوا﴾^(١)، وهو أدنى مرتبة من الدعوة وقول مجرد سبقه وصاحبه وتعقبه توالي المعجزات على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

بحث منطقي

قد تقدم الكلام عن صناعة الجدل وآداب المناظرة التي لازمت بني الإنسان مع إتساع معارفهم وتباين منازلهم الإجتماعية والفكرية والسياسية وتعدد الآراء التي يلتزمون بها، وظهور التغاير والإختلاف في الملل والنحل مما جعل الإنسان يجتهد في إستعمال عقله لإقامة البرهان والنقض والإبرام، ولكن الحقيقة واحدة أو أنها تحمل جوانب يحمل بعضها أسباب ترجيح لا يراها الآخر أو يصير على رأيه عناداً وجحوداً.

فيتلقى الناس بالقبول الصحيح المستند إلى اليقينيات والذي تكون نتيجته نقضاً للجدل وصناعة السفسطة التي هي توظيف للفكر فيما لا يصح من المقدمات ليقوم بتمويه الحكمة كما يمويه الذهب بالفلزات، و(سوفاً) اسم للعلم (اسطاً) أي الغلط، وعرفت بانها مؤلفة من القضايا المشتبهة بالضروريات وأطلق عليها في العربية إصطلاح المغالطة، ومقدمات القياس إذا أفادت تصديقاً وجزماً فهو البرهان.

أما إذا إعتمدت المشهورات وهي التي إشتهرت بين الناس وصدق بها العقلاء وأصبحت متعارفة فإنها من التبكيك الجدلي لإرادة عموم الإعتراف بالإتيان بما يشبه الحق للبس على المخاطب وتضليله وهي على قسمين:

الأول: تكون غلطاً من القاييس.

الثاني: عبارة عن تعمد تغليط الغير وإيقاعه في الغلط ويقال لصاحبه مغالط.

والمغالطة في الدعوى في المقام من الأمرين معاً، إنه إشتباه مع النفس

وتضليل للمسلمين مبني على الحسد، وتعجيل بالدعوى قبل أن يحترز المسلمون بالعلوم القرآنية والسنة النبوية أي انه هجوم عقائدي غير شرعي وخال من البرهان جيء به على عجل لإستباق الزمان، فجاءت الآية حرزاً وواقية للمسلمين لما فيها من الإحتجاج والبرهان وهي من مصاديق الحكمة في قوله تعالى ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١).

وقد ذكروا في علم المنطق وجوهاً للمغالطة منها ما كان لغاية سليمة ومصلحة عندما يكون القصد الإختبار والإمتحان، وان كان الأولى ان يقيدوه بما ليس فيه إساءة أو إيذاء أو حرج للمؤمن خاصة عندما يكون سعيًا لتعجيزه.

وقد يكون القصد منها الرياء وطلب الشهرة والأمرة أو إخفاء النقص لذا تصدى القرآن لها، وفي هذا التصدي أيضاً تأديب وتعليم للمسلمين ليحذروا المغالطة سبيلاً وطريقاً ويتعلموا كيفية فضحها وعدم التأثر بها.

فالآية إذن تنمية للملكة التمييز عند كل مسلم، ومدد في الإنتباه وهي من موارد التوفيق والتسديد الإلهي لأن المغالطة لا تنفذ إلا مع القصور الذهني وقلة الإحاطة بالموضوع أو المحمول، ونحن لا ننظر لهذه المغالطة على نحو مستقل بل هي نوع ابتلاء وجهاد للمسلمين.

إنها تبين حالة العناء العقائدي التي واجهها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون الأوائل وكيف يخفف الله عز وجل عنهم ويؤيدهم ببيان المناهج الفكرية لمواجهة العناد والسفسطة والشبهات ليكون التخفيف من عمومات قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٢).

ولم تكتف الآية بتأكيد ملة التوحيد لإبراهيم بل ذكرت على نحو التفصيل أسماء الأنبياء من أولاده منعاً لإستحداث دعوة أخرى وإتماماً

(١) سورة آل عمران ١٦٤.

(٢) سورة آل عمران ١١١.

لإبطال وتفنيد المقولة المخالفة .

والآية شهادة سماوية بابتداء اليهودية بموسى عليه السلام والنصرانية بعيسى عليه السلام كما تدل عليه آيات كثيرة ولم يقل أحد بالإستصحاب القهقري في الملل وغيرها، ليظهر إنتفاء مصاديق دعوى إنتمائهم وأنها دعوى كاذبة تدل على حصول التحريف سواء كان مكتوباً أو لفظاً يتداولونه على السنتهم ويجعلونه مادة للإحتجاج على المسلمين، وتظهر الآية اعانة الله تعالى للمسلمين في كشف الحقائق العقائدية وتثبيتها إلى يوم القيامة.

وسواء كان هؤلاء الأنبياء على دين الحنيفية ام كانوا هوداً او نصارى فان الإسلام ناسخ للشرائع السابقة، كما ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء معه بالمعجزات الدالة على صدق، نبوته قال تعالى ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لُتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَكُنَّصْرَهُ﴾ (١).

إذن فلماذا هذا التحدي القرآني، ولم أولى فريق من أهل الكتاب تلك الدعوة عناية خاصة وجعلوها مادة للإحتجاج ، الجواب أن القرآن تبيان لكل شيء ومنها بيان تأريخ النبوة وما يترتب عليه من التقسيم العقائدي والإجتماعي خصوصاً وأن إبراهيم عليه السلام محور النبوة وأن المسلمين يرتكزون في بعض شريعتهم على أصل الحنيفية.

فالإدعاء بأن ابراهيم عليه السلام كان يهودياً يظهر الإسلام وكأنه متفرع عن اليهودية في الوقت الذي يعتبر فيه شريعة مستقلة متممة لما نقص من الشرائع الأخرى وناسخة لها ويمكن ذكر مثال لذلك هو نسخ القبلية، فقد عيروا المسلمين باتباعهم نفس قبلية اليهود قبل نسخها والعودة الى قبلية ابراهيم عليه السلام ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ﴾ (٢).

(١) سورة آل عمران ٨١.

(٢) سورة البقرة ١٤٢.

فمع بقاء دعوى يهوديته او تنصره تحصل بعض المتاعب والمشاق واستمرار الدعوى ، في الوقت الذي يعني نفي تهوده تثبيت الصلات الرسالية بين الإسلام والخيفية، ولتتجلى للناس عودة المذاهب والملل بالإسلام إلى الإستقامة والحق بعيداً عن التحريف، إذ أن الإدعاء على الأنبياء ونسبة ما ليس لهم أمر يستحق البيان والكشف.

وهذه الدعوى لا ينحصر موضوعها بالناس والإلتواء الديني لكل منهم بل تتعلق بالصلة مع الباري وحقائق التنزيل فجاءت الآية لوجوه:
الأول: فضح تلك الدعوة.

الثاني: حث أهل الكتاب والناس على نبذها وما يتحد معها في السخية.
الثالث: تنقية الأقوال التي تتعلق بالصلة مع السماء وتتناول أسرار النبوة.
ولعل هذا الموضوع جاء من باب المثال الأهم وليس الحصر، لتكون هذه الآية رادعاً لمثل هذه الدعوى وتنبهاً للمسلمين بضرورة عدم تصديق يدعون على الأنبياء ، ومنع التجراً بالدعوى على الله كما في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ نَسْتَأْذِنَكَ إِلَّا تَأْمَامًا مَعْدُودَةً﴾^(١).

قوله تعالى ﴿قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمَ اللَّهُ﴾

جاءت الآية بالأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل) ويحتمل أموراً:

الأول: إنحصار التكليف به.

الثاني: إرادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأصالة وعموم المسلمين والمسلمات بالتبعية والإلحاق.

الثالث: نزل القرآن بلغة إياك أعني وإسمعي يا جارة فموضوع الآية أعم من لغة الخطاب أصلاً وتبعاً.

ولا تعارض بين هذه الوجوه بلحاظ المنطوق والمفهوم ، لتكون الآية

سلاحاً بيد المسلمين للإحتجاج والإقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله سلم وهذا القول من عمومات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١).

وفي الآية مسائل :

الأولى : الإستفهام إستكاري يتضمن التوبيخ، ويقف عنده المسلمون للتدبر والإعتبار.

الثانية : هذا اللفظ القرآني لم يرد إلا في هذه الآية الكريمة، وفي مخاطبة أهل الكتاب مما يدل على خطورة التجراً في البت في القضايا العقائدية التأريخية.

الثالثة : علم الله تعالى حضور جميع الأشياء عنده من غير غياب لبعض جزئياتها، وهو علم حضوري وليس إنطباعياً لأن الأخير ممتنع عليه، فواجب الوجود منزّه عنه.

الرابعة : حضورها يعني أنها لم تكن خافية ثم ظهرت له، بل هي منكشفة لله تعالى منذ الأزل وقبل وجودها.

الخامسة : في الآية إعجاز وهو أن القرآن من علم الله تعالى، ويتضمن أسراراً من العلم المكنون تلك التي ينفع الإخبار بها في كشف الزيف ورد الإعتداء.

السادسة : التوراة والإنجيل أنزلا بعد الأنبياء المذكورين في هذه الآية ليس هذا فقط، ولكن بعض الناس قاموا بتحريفها، أي لو تنزلنا وسلمنا بقولهم جدلاً فإن اليهودية والنصرانية الواردة في التوراة والإنجيل ليس التي هم عليها، لأن الأنبياء لا يعملون بما فيه شائبة التحريف فضلاً عما ثبت تحريفه.

السابعة : الآية تبين دفاع الله عز وجل عن المسلمين وعن الإسلام قال

تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١).

الثامنة : الله عز وجل هو الذي إختار للمسلمين ملة إبراهيم، وهو سبحانه الذي يتولى فضح مغالطة أعدائهم وسوء نواياهم، ويحذرهم وينذرهم من العناد واللجاج.

التاسعة : لقد كانت حنيفية إبراهيم عليه السلام رحمة بأهل الكتاب باعتبارها مقدمة وطريقاً لدخول الاسلام.

العاشرة : أراد الله عز وجل نبوة وحيفية إبراهيم تمهيداً وتبشيراً برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وسيلاً للهداية وتيسيراً للصالح، وتوطئة للإيمان بنبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

الحادية عشرة : التحدي في الآية جاء للذم والتقبيح للتسالم بين المليين على أن العلم من صفات الله تعالى الثبوتية الوجودية وأن الأشياء كلها مستندة إليه، وتمت بإختياره، ومنها بعثة الأنبياء وإختصار اليهودية بموسى عليه السلام ومن جاء بعده من أنبياء بني اسرائيل، والنصرانية بعميسى عليه السلام.

الثانية عشرة : لقد أراد الله عز وجل بتعاقب الرسل دليلاً على إمكان النسخ في الملة والشريعة، ومقدمة لبعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالديانة المتكاملة .

الثالثة عشرة : في ورود الآية بهمزة التسوية دلالة على مخالفة قولهم في نسبة الأنبياء للحقيقة، ومجانبة لواقع الأشياء فهو تعالى لا يحتاج في علمه إلى أحد لأن صفاته ذاتية، والحوادث مطابقة لعلمه وليس لها أن تتخلف عنه لأنه يعلم كل معلوم.

الرابعة عشرة : في الآية تحذير وزجر ونهي ومنع من القول في العقائد والوقائع الخاصة بالأنبياء والرسل من غير الرجوع إلى كتاب سماوي لم تصل إليه يد التحريف.

الخامسة عشرة : الآية إبطال لما في أيدي اليهود وإضعاف لأقوالهم مطلقاً لما تدل عليه من المغايرة بين الحق وما يدعون.

السادسة عشرة : نسبت الآية مخالفة الحق وعلم الله تعالى إلى قولهم ولم تنسبها إلى التوراة والإنجيل اما لأن التوراة والإنجيل خاليان من هذا القول او لتزييهما وتأديب المسلمين على إكرامهما خصوصاً وأن دعوة يهودية إبراهيم عليه السلام لا تعدو أن تكون قولاً منهم حتى وإن أدرجت في التوراة والإنجيل لأن الذي يتسرب إليهما بالتحريف والإضافة لا يعتبر منهما موضوعاً وحكماً.

السابعة عشرة : في الآية إظهار لمنزلة القرآن وسمو درجته، وحاجة المليون والناس عامة إليه كشاهد سماوي ، قال تعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(١).

الثامنة عشرة : الإنكار والتوبيخ الوارد في الآية جاء على نحو الإطلاق مما يدل على ان ادعاء نسبة الانبياء اليهم جاء من باب المثال وليس الحصر، لذا فإن الآية تنهاهم عن الكذب والإفتراء على الله مطلقاً.

التاسعة عشرة : في الآية بيان لأحد مصاديق الإفتراء من أبناء الأنبياء، ويظهر الحاجة إلى الإسلام وشرعية محصنة ومصانة من التحريف.

قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾

﴿مَنْ﴾ اسم إستفهام جاء إنذاراً وتحذيراً من كتمان الشهادة ووصفها بأنها أشد وجوه الظلم لذا تعتبر شهادة الزور من الكبائر، وهل كتمان الشهادة في حال التحمل أم الأداء، فيه قولان. ولكن الآية الكريمة ظاهرة في الدلالة على الثاني وإن كانا في باب العقائد متحدتين.

وفرق بين الشاهد والشهيد ، فالأول بمعنى الحدوث وحصول شهادة بالإطلاع على الموافقة أو سماع الحديث ونحوه، اما الثاني فبمعنى الثبوت لإستقرارها والانتقال إلى مرحلة أدائها بعد حصول تحملها، لقيد (عنده) ولتخرج الشهادة على الشهادة بين الناس أو الشهادة الثالثة.

وقيد ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ ليخرج الأخبار والسنن والموايـث بل والحكمة ونحوها من وجوه العلم المكتسبة الأخرى، فالآية تبين أن العلم والشهادة انما هي علوم وفضل منه تعالى.

ولأن الشهادة موثق من الله ولما في كتمانها من المفسدة العظيمة، والتجراً على دين الحق يكون إخفاء الحقائق السماوية والكنوز الرسالية أعلى درجات الظلم، وأكثرها ضرراً على النفس والجماعة والناس.

ومن أسماء الله تعالى (الشهيد) الذي يطلع على الأمور الظاهرة والباطنة قال تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(١)، والشهادة في الإصطلاح قول جازم لخبر تعلمه على نحو قاطع، وظاهر الآية أن الشهادة عندهم أمانة ووديعة لإعلانها للأمم اللاحقة وكأنها بلاغ يؤكد ويصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما جاء به من البراهين والحجج كما أنها تؤكد تحملهم لها، وفيها قاعدة كلية سيالة تستوعب الأحكام الفرعية والبيانات الدالة على صحة نزول القرآن من عند الله تعالى.

وفي الآية دلالة على ان التوراة والإنجيل توطئة ومقدمة لنزول القرآن وسبيل الى تصديق نبوة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم اذ أن الشهادة تتقوم بأربعة:

الأول : الشاهد.

الثاني : حصول واقعة أو أمر أو خبر.

الثالث : تحمل الشاهد بالعلم والمعرفة لموضوعها.

الرابع : أداؤها عند الطلب أو في الحال المناسب.

وقد تفضل الله سبحانه فجعل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم شهوداً من الملمين يشهدون بنبوته عندما يرون البينات من كتمان هذه الشهادة عند أوان الأداء، وحلول زمان بعثته صلى الله عليه وآله وسلم، وكان فريق من أهل الكتاب يرون أماراتها وعلاماتها وتهيئين لها بما عندهم من أوصاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١).

وهل الشهادة بنبوته منحصرة باليهود والنصارى وما في كتبهم الجواب أنها أعم فقد جعل الله عز وجل عند العرب البلاغة والفصاحة فيستطيعون معهما التمييز بين كلام الخالق والمخلوق كما كان أهل الكتاب يخبرون المشركين ويتوعدونهم بخروج نبي آخر الزمان، فكان كتمان الشهادة مصدر خزي لهم وسبب في فضحهم.

بحث تأريفي

لقد أعطت هذه الآية شأنًا خاصاً لأهل الكتاب وموقفهم العقائدي من الإسلام وتقدمت آيات أخرى تعلق باليهود وكيفية تعاملهم مع الإسلام في أيام الدعوة الأولى، وفيه وجوه:

الأولى : إنهم كانوا أقوياء وأصحاب عدة فاستحقوا تلك العناية.

الثانية : لم يكونوا أقوياء، ولكن القرآن أرادهم عبرة وموعظة، وخصهم بالاحتجاج والرد على أقوالهم، وهو من عمومات قوله تعالى في بني إسرائيل ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وفي دراسة لهذه الآيات يبدو شأن وأثر بني إسرائيل في البناء الفكري

(١) سورة البقرة ٨٩.

(٢) سورة .

والواقع الديني في السنين الأولى من البعثة النبوية أيام هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة لما لهم من التأثير كاصحاب كتاب وعندهم رسول وهو موسى عليه السلام فتصدوا للإسلام وهم أقرب إليه من الكفار والمشركين وكان تصديهم وعنادهم باسم الكتاب والدين السماوي لذا كانت أقوالهم وإدعاءاتهم أكثر خطورة فتوجه القرآن لها بحزم وشدة وتفصيل يتضمن التوبيخ لأن تأثيرهم كان أعم وأخطر من قوتهم وإن كانوا أصحاب حصون، فكانت بعض القبائل العربية تتأثر بموقفهم من الإسلام لخبرتهم وسماوية ملتهم.

وواقعة خيبر وحصونها المتعددة وما عاناه المسلمون في فتحها شاهد على ما عندهم من المنعة والسلاح وكانت خيبر بلدة معروفة تقع على بعد أربعة مراحل عن المدينة المنورة، ولم تفتح إلا في السنة السادسة للهجرة النبوية الشريفة أي بعد أن أصبح الإسلام أكثر قوة ومنعة وبعد أن هزم المشركون الذين كانوا على صلة مع اليهود وكل منهما يمد الآخر ويسعى في مؤازرته ضد الإسلام.

الثالثة : الآيات إعجاز قرآني للإخبار عن قوتهم مستقبلاً كما في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ قِيَرًا ﴾^(١) أي نفرة وكثرة وحشوداً عند النداء، وإمكان دعوتهم الآخرين لنصرهم واعانتهم.

الرابعة : أراد تعالى منهم النموذج والمثال.

الخامسة : عدم موضوعية القوة في المقام لأن عندهم عداوة وبغضاء والنسبة إلى الكتاب.

السادسة : تحذير المسلمين في هذا الزمان بظاهر ما يجري من الأحداث وممارستهم التعدي على الإسلام فلو لم تكن هذه الآيات لربما استطاعوا أن يثبتوا ما يدعون ويشككوا في الدين.

(١) سورة الأسراء ٦.

السابعة : تبين الآية ما لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون من أهل الكتاب وجحودهم الإسلام الذي يقر برسالة موسى وعيسى عليهما السلام ويعامل اليهود والنصارى بالرفق والإمهال وهم يجحدون برسائته صلى الله عليه وآله وسلم.

الثامنة : إن الشهادة المكتومة لا تنحصر بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم بل تشمل المعنى الأعم بما في ذلك الدعوى الخاصة بانتساب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام والأسباط إلى ملتهم والغايات الكيدية منها على فرض وجودها نية وقصدًا وعزيمة.

التاسعة : في الآية تأديب وتنبية للمسلمين، وإخبار عن عظيم الذنب بكتمان حقائق وأحكام الإسلام وعلوم القرآن والمسائل الشرعية كل حسب معرفته وكأنها أمانة في أعناقهم، وهي من عمومات قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ

بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

العاشرة : في الآية بيان لفلسفة التبليغ ووظائف النبوات، فحينما يتلقى الإنسان الدعوة ويؤمن بما جاء به النبي يصبح هذا الإيمان أمانة وشهادة يتحملها طوعاً وقهراً، وعليه أن يؤديها لمن بعده، وعند الحاجة واللزوم فهي ليست من الشهادة على حقوق العباد التي تؤدي أمام القاضي والحاكم، بل أنها من حق الله على العباد فلا يتوقف أداؤها على الطلب أو في مكان مخصوص، وهي وسيلة مباركة للتبشير بالرسول الذي يأتي من بعده.

قوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

وعيد وإنذار وتخويف للذين يخفون أسرار التنزيل وما عندهم مما جاء به الأنبياء، والآية قاعدة كلية في الوعيد والإنذار وإقامة الحجة وفيها إخبار عن إحاطة الله تعالى علماً بكل الأمور.

فالعلم إذا أضيف للأمور الباطنة فهو الخبير.
وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد، وإذا كان على نحو الإطلاق فهو العليم.

لذا جاءت الآية إخباراً عن علمه تعالى بكل الأفعال والأقوال، وفيها تذكير وطرء للغفلة وهي مناسبة كريمة للتدارك وإظهار الخشية من الله تعالى والتسليم بالوحي والنبوة ودعوة لإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذه الآية من مصاديق الحق الذي جاء به قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾^(١)، لبيان أن الإحتجاج على فريق من الناس مقدمة لدعوتهم للإسلام.

والظاهر أن موضوع الآية لا ينحصر بأهل الكتاب وحدهم لقاعدة المعنى الأعم ولأصالة الإطلاق إلا أن يدل دليل على التقييد نعم يمكن إعتبار لغة الخطاب في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ إرادتهم بقرينة سياق الآية وإتصال الخطاب فيها كما في ﴿تَقُولُونَ﴾ و﴿قُلْ أَنتُمْ﴾.

ولكن هذه الإرادة على نحو الأولوية وموضوع النزول ولا تنحصر بهم فهي أوسع لعموم موضوعها وإحاطة علم الله تعالى بكل شيء، فالعلم منه تعالى ونفي الجهل عنه تنطبق مصاديقه وأفراده قهراً وإنطباقاً على كل شيء، وأفعال الخلائق الموجود منها والمعدوم.

وهل الآية الكريمة متعلقة بصيغ الإنذار والتوبيخ؟ الجواب: إنها أعم وتشمل وجوه الإنذار والتحذير والدعوة إلى الإسلام والتحريض على إظهار الحقائق وكشف البشارات الخاصة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإمتناع عن إيذاء المؤمنين وشهادة الزور في باب الملل وأحكام التنزيل.

وفيه مدح وثناء على المسلمين وإكرام لهم وتوثيق سماوي لأفعالهم وأقوالهم الإيمانية وحسن إمثالهم وإنصياحهم لأوامر الشريعة وإتباعهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصبرهم على ما يتلقونه من الأذى من الكفار وأهل الضلالة وتنبيه وتحذير القرآن للناس، وطرد الغفلة عنهم، وقيام المسلمين بالتبليغ والإجهار اليومي المتجدد بهذه الآية بتلاوتها في الصلاة وغيرها، شاهد على أن المسلمين ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، إذ أن التكذيب بالآيات يترجل بصورة وحالة أذى على المؤمنين بالرسالة الحق، فيثابون على تحملهم لهذا الأذى وعلى تعاهدتهم للإيمان في صدورهم وأفعالهم إندفاعاً في مرضاة الله تعالى لعلمهم بانه تعالى حاضر معهم قريب منهم. فالآية ذات شعب ومقاصد سامية متعددة، والمسلمون ينتفعون منها، والمكذبون والجاحدون يتضررون منها وتكون حجة عليهم، إذ أن تصديق المسلمين بما انزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم برهان وحجة إضافية على الناس.

قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الآية ١٤١.

الإعراب واللغة

تلك: اسم إشارة في محل رفع مبتدأ، أمة: خبر مرفوع،
 قد: حرف تحقيق، خلت: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على آخره،
 لها: جار ومجرور في محل خبر مقدم، ما: اسم موصول مبتدأ مؤخر.
 كسبت: الجملة الفعلية لا محل لها من الإعراب، لأنها صلة ما،، ولكم:
 الواو: حرف عطف، لكم: جار ومجرور، وما: اسم موصول مبتدأ مؤخر،
 كسبتم: فعل ماض وفاعل، والعائد: محذوف أي كسبتموه، ولا تسألون:
 الواو حرف إستئناف، تسألون: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت
 النون، والواو: نائب فاعل.

عما: جار ومجرور متعلقان بتسألون، كانوا: فعل ماض ناقص، الواو:
 اسم فكان، يعملون: فعل مضارع مرفوع، الواو: فاعل.
 وخلا الشي خلوا: مضى وإنقضى، ويقال القرون الخالية أي الماضية،
 وكسب: أصاب، ويطلق في طلب الرزق مطلقاً.

وأصل الكسب الجمع - وإكتسب: تصرف واجتهد، ومنهم من فرق بين
 الكسب والإكتساب، وأن الكسب يتعلق بالحسنة، والإكتساب بالسيئة لما فيه
 من الإفتعال.

وعلل كما في لسان العرب: بأن فعل السيئة بمثلها من الجزاء فلم تحترق،
 والحسنة تصغر بالإضافة الى جزائها^(١).

ولكنه قول بلحاظ جهة محدودة وليست هي الأهم وإلا فان الحسنة

(١) لسان العرب ٧١٦/١.

تضاعف في ثوابها والسيئة يهجم عليها الإستغفار والتوبة فتكون الحسنة أعظم، بالإضافة إلى عمومات شرف الموجود وتقدمه رتبة على المعدوم.

في سياق الآيات

بعد أن بينت الآيات السابقة موضوع الإحتجاج مع أهل الكتاب جاءت هذه الآية لطرحه من رأس في تحديد المواقف الشرعية، وهو لغة في الإحتجاج وطرد للزائد منه وما يركز على الشبهة والمغالطة.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الشعبة الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وهي على وجوه:

الأول: الصلة بين آية (وقالوا كونوا) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إتحاد موضوع الخطاب في الآيتين، وإرادة فريق من أهل الكتاب.

الثانية: جاءت هذه الآية بالإخبار عن إنقضاء أيام إبراهيم والأنبياء من ولده عليهم السلام والنهي عن إتخاذهم موضوعاً للإحتجاج، بينما جاءت الآية أعلاه بالأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإخبار عن كون المسلمين على ملة إبراهيم عليه السلام فهل من تعارض بين الأمرين ، الجواب لا، للتباين في الموضوع، إذ تنهى هذه الآية عن إدعاء إتسابهم لهم، بينما جاءت الآية أعلاه بتوكيد بقاء ملتهم وتجليها في مبادئ الإسلام.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين الإخبار عن قول اليهود أن الأنبياء السابقين منهم، وأنه يجب على المسلمين أن يتبعوهم، وكل من الأمرين لا دليل عليه ، وجاء القرآن بالبيان والكشف .

الرابعة: ما يحتاجه أهل الكتاب هو الإقتداء بالأنبياء السابقين وليس إدعاء نسبتهم لملة مخصوصة ، وإختيار ملة وحنيفية إبراهيم وإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سبيل الإقتداء بهم، والسلامة من الشرك

والضلالة.

الثاني: الصلة بين آية (قولوا آمنا)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: الجمع بين الآيتين شاهد على اللطف الإلهي بأهل الكتاب إذ يتضمن نهيهم عن الإنشغال بنسبة الأنبياء السابقين لهم، ودعوتهم لقول وفعل ما فيه نجاتهم في النشاطين وهو الإيمان بالله والتزليل.

الثانية: تحذير الناس من الإصغاء لأهل الكتاب فيما يخص الأنبياء السابقين ودعوة الناس لسبل الإيمان، فقوله تعالى (قولوا آمنا)، وإن جاء خاصاً بأهل الكتاب في المقام إلا أنه واجب عيني على الناس جميعاً ويدل عليه ذات الموضوع والحكم، وآيات القرآن الأخرى، وعموم التكليف، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾^(٢).

الثالثة: جاءت هذه الآية بالإخبار عن إنقضاء أيام الأنبياء السابقين، وأن أهل الكتاب لا يسئلون عن أعمال هؤلاء الأنبياء، أما الآية أعلاه فتضمنت وجوب الإيمان بما أنزل عليهم، وفيه نكتة أن نزول الكتاب عليهم ووجوب العمل به شاهد على أنهم لم يكونوا تابعين لليهود والنصارى، فهم متبعون بالنبوة والتزليل الذي فضلهم الله به على الناس جميعاً.

الرابعة: بيان ماهية إحتجاج المسلمين على أهل الكتاب، وأنه قائم على العبودية لله عز وجل والتصديق بأنبيائه وكتبه، والفناء في طاعته والإنقياد لأوامره لذا أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى ﴿وَحَسْبُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

الخامسة: إتخاذ ما أوتي موسى وعيسى من عند الله موضوعاً للإحتجاج على أهل الكتاب، لأن المسلمين يؤمنون بالتوراة والإنجيل، مما يدل على خلوهما من إنتساب إبراهيم والأنبياء السابقين لليهودية أو النصرانية.

(١) الآية ١٣٦.

(٢) سورة النساء ٤٧.

الثالث: الصلة بين آية (فإن آمنوا)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تنبيه المسلمين إلى مسألة وهي لزوم عدم الإنشغال عن دعوة أهل الكتاب للإسلام بإدعائهم إنتساب الأنبياء السابقين.

الثانية: تفقه المسلمين في الدين بالإخبار عن لزوم الإيمان بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن.

الثالثة: بعث السكينة في نفوس المسلمين من دعوى أهل الكتاب إن الأنبياء السابقين منهم، لأنها شاهد على التولي عن دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقال الله تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَمُ اللَّهُ﴾.

الرابعة: لا يستل أهل الكتاب عن إنتماء الأنبياء السابقين، ولكي يستلوا عن الإيمان والتصديق بنبوتهم.

الرابع: الصلة بين آية (صبغة الله)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: لقد كان الأنبياء السابقون على صبغة ودين الله عز وجل.

الثانية: دعوة المسلمين للإقتداء بالأنبياء السابقين.

الثالثة: بيان الوظيفة الشرعية للعباد، وهي عبادة الله عز وجل ، والتصديق بالأنبياء.

الخامس: الصلة بين آية (قل أتحاجوننا)^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تعدد وجوه الإحتجاج ومسائل الجدل التي يأتي بها أهل الكتاب بالإحتجاج في الله وفي الأنبياء.

الثانية: بيان الفصل في الأعمال، فكل مكلف وأهل ملة لهم أعمالهم.

الثالثة: لزوم إجتناّب الجدل في الله عز وجل لأنه رب العالمين، وقد

(١) الآية ١٣٧.

(٢) الآية ١٣٨.

(٣) الآية ١٣٩.

تفضل ببعث الأنبياء لطفاً ورحمة منه بالناس.

الرابعة: الترغيب بإخلاص العبادة لله عز وجل، وإتخاذ المسلمين في عبادتهم أسوة.

السادس: الصلة بين الآية السابقة (أم تقولون) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: التداخل الموضوعي بين الآيتين، فقوله تعالى في بداية هذه الآية (تلك أمة) متعلق بالأنبياء المذكورين في الآية السابقة.

الثانية: إتحاد لغة وجهة الخطاب في الآيتين، وإرادة الذين يقولون أن إبراهيم والأنبياء من أبنائه كانوا على ملة أهل الكتاب.

الثالثة: دفاع الله عز وجل عن الأنبياء السابقين في ذات الوقت الذي يتفضل على أهل الكتاب بدعوتهم للإلتفات إلى أعمالهم.

الرابعة: جاءت خاتمة الآية السابقة بالإخبار عن علم الله عز وجل بعمل أهل الكتاب، وتعلقت خاتمة هذه الآية بعمل وسنن الأنبياء السابقين.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية وآية (سيقول السفهاء) ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: بيان تعدد مسائل الجدل التي يثيرها أهل الكتاب.

الثانية: إعانة المسلمين للإحتراز من أسباب الشك والريب.

الثالثة: إخبار المسلمين بأن أهل الكتاب يجادلون في الله وفي الأنبياء

السابقين، وفي فرائض وسنن المسلمين العبادية، ومن إعجاز القرآن أن كل آية من هذه الآيات تتضمن موضوع الجدل وإبطاله والرد عليه، ولم يكن ذكر القول وموضوع الجدل في آية، والرد عليه وإبطاله في آية أخرى، بل جاء في ذات الآية، وفيه وجوه:

الأول: التخفيف عن المسلمين وإعانتهم في كيفية وطرق الإحتجاج.

(١) الآية ١٤٠.

(٢) الآية ١٤٢.

الثاني: منع التردد في التفسير والتأويل.

الثالث: جاءت هذه الآيات لقطع دابر الشك والجدال، فلا تتعدد مواضع الجدل والرد عليه لمنع حصول سبب آخر للشك والجدال.

الرابع: هذه الآيات من مصاديق تفضيل بني إسرائيل بمجيء الحجة والبرهان الذي يساعدهم على هجران مواقع الشك والريب، وما فيها من الضلالة وأسباب الغواية.

الخامس: دعوة الناس للتنزه من السفاهة التي ذكرتها الآية التالية.
السادس: البيان المنافع للناس جميعاً، والذي هو مدد قرآني لإزالة الغشاوة عن الأبصار.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (أمة وسطاً) ^(١)، وفيها مسائل:
الأولى: إذا كان الأنبياء السابقون أمة إنقضت أيامها، ولا يسئل عنها أهل الكتاب، فإن المسلمين أمة وسط تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدعو الناس للإسلام، قال تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ^(٢).

الثانية: مضامين الآية محل البحث من الشواهد على أن المسلمين شهداء على أهل الكتاب، فهي وإن جاءت خطاباً من عند الله لهم إلا أن المسلمين يتلونها ويؤمنون بها تنزيلاً ودلالة وحجة.

الثالثة: بيان حاجة الناس عامة وأهل الكتاب خاصة للمسلمين كأمة وسط .

الرابعة: الترغيب بإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
الخامسة: القبلة التي توجه إليها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي الكعبة الشريفة هي ذاتها قبله إبراهيم والأنبياء من أبنائه، ولم يكن بيت

(١) الآية ١٤٣.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

المقدس موجوداً أيام إبراهيم، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾^(١).

السادسة: جاءت خاتمة آية (أمة وسطاً) بالإخبار بأن الله عز وجل رؤوف رحيم بالناس جميعاً، وجاءت الآية محل البحث رافة ورحمة بأهل الكتاب لزجرهم عن الجدال في الأنبياء السابقين والإصرار على نسبتهم لأهل الكتاب.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (قد نرى) وفيها مسائل:

الأولى: بيان العناية الإلهية بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وموضوعية قوله وفعله في الحياة الإنسانية وعبادات الناس، فبينما ذكر الأنبياء السابقون بقوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ جاءت آية السياق لتبين اللطف الإلهي بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يرى الله عز وجل تطلعه إلى السماء فينزل جبرئيل بتحويل القبلة وليس من فترة أو مدة بينهما لمقام الفاء في ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ﴾ كما يقال جاء زيد فعمرو.

الثانية: ويحتمل قلب وجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السماء بلحاظ آية البحث وجوهاً:

الأول: إنه من عمومات قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾.

الثاني: إنه ملحق بعمل وكسب الأنبياء السابقين.

الثالث: إنه من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾.

الرابع: إنه أمر مستقل قائم بذاته.

والصحيح هو الثالث والرابع، لتبعية المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إستقبال البيت الحرام فيكون من كسبهم، ومن الإعجاز في

نظم الآيات وجود أفراد إيمانية وتعبدية يلتقي بها المسلمون مع الأنبياء السابقين والمؤمنين من الأمم السالفة، ومنها إستقبال البيت الحرام بدليل قوله تعالى في خاتمة آية السياق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وأداء الصلاة وإتيان الزكاة.

الثالثة : إن قلب وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السماء من جهاده الرسالي يلتقي المسلمون مع الأنبياء السابقين في إستقبال البيت الحرام في الصلاة وتعاهدهم لفريضة الحج، وهو من مصاديق الإطلاق في الوجوب في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١).

الرابعة : أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَمَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ لبيان أن قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يدل على علم الله به وحضوره يوم القيامة في عالم الحساب.

إعجاز الآية

تظهر الآية التباين في التكليف بين أمم سالفة وأخرى لاحقة، وإن ادعت بعضها الإتحاد في الملة والدين، وفيها تنبيه لتبدل موضوع التكليف بتغير الحكم ودعوة للتوجه الى ما هو أهم، الى الإنشغال والتفكير بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مما يدل على صدق الرسالة والدعوة وعدم تركهم ينشغلون في الجزئيات وسالف الأيام وقصص الأمم الماضية أي ان القرآن يصرفهم عن حصر التعلق بقصص الأنبياء السابقين ويدعوهم لرؤية الآيات الباهرات من غير اعراض عن قصص الأنبياء لأنها موجودة في القرآن وعلى نحو متعدد كموعظة وعبرة ومدرسة.

وتدعو الآية أهل الكتاب إلى ترك الدعوى التي لا أصل لها في موضوع نسبة إبراهيم عليه السلام والأنبياء الذين ذكرتهم الآية أعلاه إلى ملتهم،

وتحتمل على التدبر في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها نزول القرآن الذي يتضمن تكذيب تلك الدعوى، وتوكيد أنهم كانوا على ملة التوحيد، وأن اليهودية والنصرانية متأخرة عن زمانهم، وتفصح الآية في مفهومها عن سنخية الحرب على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومحاولة إنكارها بالجدال والمغالطة في الأنبياء السابقين، وكأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يأت بأمر جديد وكل كلمة من القرآن آية وحجة على ذات النهج الذي عليه الأنبياء السابقون، قال تعالى ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾^(١).

ويمكن تسمية هذه الآية بآية (قد خلت).

الآية سلاح

في الآية تأديب للمسلمين بعدم الإتيان لأهل الكتاب بقصص الأنبياء السابقين وإنتسابهم، وكشف بطلان إدعائهم وحثهم على الإتيان للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما دعاهم إليه، ومنه إكرام الأنبياء السابقين وكشف ما كانوا عليه من الحنيفية.

لقد جعل الله عز وجل المسلمين ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، ومن خصائص هذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس من حصر للجهات التي يتوجه لها الأمر والنهي، فهي وظيفة عبادية وجهادية يقوم بها المسلمون لتهذيب الأقوال وإصلاح المجتمعات وجلب المصلحة، ودفع المفسدة ومنه تلاوتهم لهذه الآية التي هي واقية من الشك والريب، وبرزخ دون إغواء عامة الناس وحجبتهم عن التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإصرار أهل الكتاب بأن الأنبياء السابقين منهم، دعوة للصد عن

(١) سورة الأحقاف ٩.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاءت الآية سلاحاً بيد المسلمين لعدم الإصغاء إلى هذه الدعوة، وعدم الإنشغال بغير وظائفهم العبادية.

مفهوم الآية

الآية تؤكد وتكرر لألفاظ آية تقدمت^(١)، ولكن النسبة بين موضوعي الآيتين هي العموم والخصوص من وجه، فمادة الالتقاء عدم إعطاء الأولوية في الإهتمام والاختيار والعمل إلى تأريخ الأنبياء بل ان الأولوية للزوم الإنقياد إلى ما جاء به القرآن من عند الله تعالى.

ومن مادة الالتقاء موضوع الآيتين وتعلقهما بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وكذا الأسباط باعتبار أنهم من ذرية يعقوب، أما مادة الإفتراق فالآية الأولى تتعلق بالإقرار بالحنيفية، وتخبر عن إسلام الأنبياء والآباء وموتهم على الإسلام من غير تحريف ولزوم محاكاتهم وإتباعهم، وتخبر عن عدم الإتكال على أعمالهم وإخلاصهم لله عز وجل وجهادهم في سبيله.

أما هذه الآية فهي تويخ ورد على أقوال أهل الكتاب بنسبة الأنبياء لملتهم، والغايات المذمومة من وراء هذه النسبة وأهمها الإصرار على ما هم عليه والجحود بالآيات التي جاء بها النبي وإضفاء الشرعية على بقائهم على ملتهم والإخبار عن صحة فعلهم لأنه مطابق وموافق لفعل الأنبياء السابقين إذ يشهد القرآن والمسلمون جميعاً بصحة نبوتهم وسلامة نهجهم وجهادهم في سبيل الله.

فجاءت هذه الآية لتحثهم على عدم كتمان الشهادة والبشارات بالنبي محمد وان المدار في الحكم على آيات القرآن التي تدعوهم الى الإسلام. وفي الآية مسائل:

(١) أنظر الآية ١٣٤.

الأولى: تسمية الأنبياء السابقين بأنهم أمة لأنهم جماعة في الخير، وأئمة في الصلاح، وقادة للبشر.

الثانية: ذكر القرآن لأقوال أهل الكتاب وما لا يختص بالمسلمين بالذات، إلا أنها تتعلق بهم بالواسطة، لما في دعوى إنتساب الأنبياء السابقين لليهودية والنصرانية من قصد الشتيك أو إنكار الفرائض والأحكام التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنها ليست من سنن الأنبياء السابقين.

الثالثة: حث الناس على الإيمان وعمل الصالحات، ودعوة أهل الكتاب إلى الإستعداد لليوم الآخر الذي الذي يتفقون مع المسلمين في الإيمان والتصديق به.

الرابعة: إنذار أهل الكتاب بأنهم يقفون بين الله للحساب.

الآية لطف

من اللطف الإلهي في هذه الآية تكرار مضامينها في آية أخرى، ومجيئها قبل سبع آيات وفيه دلالة على أهمية موضوعها، وحث على عدم تركه والإستخفاف به، وتكرار الآية وألفاظها تأكيد لمضامينها ودعوة لإقتباس الدروس منها ، وليكون من وجوه اللطف في القرآن تكرار الآية بذات الألفاظ ، وتعدد معاني كل من الآيتين، والمقاصد السامية من كل واحدة منهما بلحاظ الآيات المجاورة ولغة العطف والنظم بينها من غير أن يتعارض مع إتحاد المعنى فيهما.

إفاضات الآية

لقد جعل الله عز وجل النفس الإنسانية تميل بالفطرة للنقاء والصدق، والنفرة من الإخبار الذي لا أصل له، ولكن قوانين الإبتلاء والإمتحان في الحياة الدنيا تجعل بعض الشرور قريبة منها، لتدفعها سنن التقوى ويثاب العبد على نحو متعدد .

فجاءت هذه الآية لوقاية أهل الكتاب وغيرهم من المقولات الباطلة،

وتبين الآية حاجة أهل الكتاب إلى القرآن لترقى النفس المطمئنة في سلم المبادئ العالية.

لقد جعل الله عز وجل آيات الإحتجاج من مصاديق الرحمة قال تعالى ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(١)، لبيان عظيم قدرة الله، ولأن الرحمة صفة كمال ولطف، وفضل تجلى في جذب أهل الكتاب والناس لكلام الله وهو القرآن.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالإشارة إلى الأنبياء السابقين بلفظ (أمة) من غير ذكر أسمائهم، لأنها جاءت في الآية السابقة، ولأن الإحتجاج موضوعي وعقائدي يتعلق بإبطال القول بنسبتهم للديانة التي جاءت متأخرة في زمانها عن بعثتهم وأيام حياتهم والإخبار عن إنقضاء أيام الأنبياء السابقين دعوة لأهل الكتاب للعناية بالمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأمة هي (القرن من الناس يقال قد مضت أمة أي قرون)^(٢).

وقد جاء القرآن بتسمية المسلمين بأنهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فهل هناك من تعارض بين الأمرين، الجواب : من المسلمات أن الأنبياء هم سادة أهل الأرض، وأئمة الهدى، وهم أشرف الناس جميعاً خصهم الله بالنبوة وتلقي الكتاب من غير واسطة بشر، وهو لا يتعارض مع صيرورة المسلمين ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، من وجوه:

الأول: إرادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الخطاب في الآية أعلاه، وهو سيد المرسلين، فيكون المسلمون خير أمة في المقام لأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قائدهم وتشمله مضامين الآية.

(١) سورة الأنعام ١٢.

(٢) لسان العرب ٢٦/١٢.

الثاني: قيدت الآية التفضيل وأن المسلمين (خير أمة) بخروجهم وجهادهم في سبيل الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثالث: إذا إنقضت أيام الأنبياء السابقين، فإن الإسلام باق إلى يوم القيامة، قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(١).

الرابع: الأنبياء السابقون من المسلمين والمنقادين لأمر الله عز وجل وجاء على لسان أبناء يعقوب ﴿وَحُشِّنْ لَهُمْ سُلُوكُكُمْ﴾^(٢).

الخامس: جاء القرآن بتسمية إبراهيم وحده بالأمة، قال تعالى ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتَلْنَا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾^(٣).

لقد جاءت الآية من شطرين:

الأول: يتعلق بالأنبياء السابقين، وإنقضاء أيامهم وأنه لهم ما كسبوا من الصالحات والجهاد في سبيل الله.

الثاني: الخطاب للناس بأن الحساب يتعلق بما كسبوا، وما عملوا وأنهم لا يسئلون يوم القيامة عن عمل الأنبياء السابقين.

التفسير الذاتي

تعتبر كل آية من الآيات التي جاءت خطاباً لأهل الكتاب مدرسة عقائدية وكلامية، ومنها هذه الآية التي هي من (آيات الإحتجاج) الخاص بأهل الكتاب، فلا يقول بنسبة الأنبياء لملة مخصوصة إلا فريق أهل الكتب، وقد جاء القرآن بتوكيد الإتحاد في الحنيفية وأحكامها بين بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإبراهيم عليه السلام، فحصل نوع تعارض بين الأمرين، فجاءت هذه الآية لإبطال القول المعارض للنص القرآني، وجاء في

(١) سورة آل عمران ١٣٩.

(٢) سورة البقرة ١٣٣.

(٣) سورة النحل ١٢٠.

دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾^(١)، وفيه دعوة لأهل الكتاب للإقتداء بإبراهيم وإسماعيل في إسلامهما والإنقياد لأوامر الله عز وجل.

وجاءت هذه الآية بالإخبار عن إنقضاء أيام الأنبياء السابقين، وقال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(٢)، وكذا في مريم عليها السلام^(٣)، وجاءت خاتمة الآية ببيان علم الله عز وجل بأفعال العباد وأنها حاضرة عنده، وجاء قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(٤)، في القرآن بمعنى البشارة والإنذار بحسب القرينة ومناسبة الموضوع والحكم والإنذار هو الأغلب، وورد لفظ (غافل) تسع مرات بصيغة الجر، وكلها في نفي الغفلة عن الله عز وجل الذي ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾^(٥)، وجاء بصيغة النصب مرة واحدة، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، إن قيام الفرد والجماعة بالإستحضار الذهني لعلم الله عز وجل بما يفعلون يجعلهم في خشية منه، لذا جاءت هذه الآية إرشاداً وزجراً عن الدعوى الباطلة، وهو من مصاديق قوله تعالى في بني إسرائيل ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٦)، بذكرهم في القرآن، وتحذيرهم من الإقامة على المقالة الباطلة ليكون التخلص منها مقدمة للتدبر في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله

(١) سورة البقرة ١٢٨.

(٢) سورة آل عمران ١٤٤.

(٣) أنظر سورة المائدة ٧٥.

(٤) سورة الأنعام ١٣٢.

(٥) سورة البقرة ٢٥٥.

(٦) سورة البقرة ٤٧.

وسلم وعوناً لهم للدخول في الإسلام وإتباع إبراهيم في ملته.

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : تأديب المسلمين في أبواب الاحتجاج.

الثانية : التأكيد على الزمن الحاضر والفعل الشخصي الذي يكون مدار الحساب عليه بدليل خاتمة الآية التي ذكرت يوم القيامة ، وما فيه من السؤال عن الأعمال.

الثالثة : تسمية الأنبياء المتعددين مع تعاقبهم بالأمة يدل على إتحاد فعلهم وإتصافه بالتقوى ، وأن الله عز وجل لا يترك الأرض من غير أمة وقوم يقيمون على عبادته ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

الرابعة : ترغيب المسلمين والناس بالعمل الصالح فلم تقل الآية (وعليكم ما اكتسبتم) وما في حرف (على) من الإستعلاء وإحتمال تحمل الوزر، بل جاءت بحرف الجر اللام وما فيه من العائدية ، وذكر له نحو أربعين معنى ومن أظهرها الإختصاص ، والإستحقاق ، والملك ، وشبه الملك ، وعلى القول الذي نذهب إليه بأن الخطاب في الآية عام يشمل المسلمين وغيرهم ، ولا يختص بفريق من أهل الكتاب .

وتتضمن الآية البشارة والإنذار ولكن البشارة هي الغالبة بلحاظ معاني اللام أعلاه ، ويمكن تأسيس قانون كلي في لغة وخطابات وقصص القرآن وهو إذا اجتمعت البشارة والإنذار فإن البشارة هي المقدمة والظاهرة ، مثلما تظهر الغلبة للمذكر في اللغة عند إجتماعه مع المؤنث فنقول القمران والعمران ، وإن كان قياساً مع الفارق.

الخامسة : ترغيب الناس جميعاً بالعمل الصالح، فكما أن أمة الأنبياء السابقين قد خلت ومضت وإنقضت أيامهم، فإن الآية تحبر الناس بأن الأيام السابقة من حياتكم قد إنقضت وكتب لكم وعليكم ما عملتم فيها فاستقبلوا الأيام التالية بالتوبة والكسب والتحصيل.

السادسة : تدل خاتمة الآية في مفهومها على سؤال الناس عن حسابهم والخطاب متجدد في كل زمان ، ويتضمن تبليغ الناس بأن الحساب حق قال تعالى ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا ﴾^(١).

التفسير

قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾

قد تقدمت آية مشابهة لهذه الآية وهي الرابعة والثلاثون بعد المائة من السورة ولا يعني هذا التشابه في ألفاظ الآيتين اتحاد المعنى والمضمون والغايات السامية فقد وردت هناك للبيان واطهار سنن التوحيد التي كان عليها الأنبياء السابقون. وفي الآية مسائل:

الأولى: جاءت الآية لمنع الإحتجاج بإنتماء الأنبياء على نحو مخالف للواقع.

الثانية : هذه الآية أشد وطأة على أهل الخصومة والجدال فانها تنذر ببدء حال جديدة من الجهاد مع أهل العناد، بالإضافة إلى ما في التكرار من معاني، ودلالته على عدم التعارض والتباين في آياته.

الثالثة : التكرار تنبيه وتوكيد على حالة مستديمة ذات شأن خاص، وهو دعوة للإلتفات إليها، وفيه نوع إخبار عن مواصلة فريق من أهل الكتاب التفاخر بالإنتساب للأنبياء، ونسبة الأنبياء الى دينهم، فتتكرر الآية مع إتحاد الموضوع وإختلاف الجهة والمناسبة، وتتفرع عنها جملة من المسائل.

الرابعة : أنها مسألة إبتلائية متجددة، وأبواب جدلية يدعو القرآن لغلقتها للتوجه إلى إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونبذ التقليد الذي ليس له موضوع هنا.

الخامسة : المدار على الإيمان برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والسؤال يكون عن عملكم وإيمانكم بالإسلام، أو جحودكم بالرسالة.

السادسة : قد يمنع الإشتغال باعجاد الآباء الإنسان من نفاذ البصيرة فيما يجب عليه ويركن إلى التغني بآثرهم، فجاءت الآية لتحث على العمل والسعي في مرضاة الله.

السابعة : التكليف في العبادات عيني يتوجه الى كل مكلف وهو تعيني وليس تخييرياً.

الثامنة : تدل الآية على التوسعة والتعدد في الأحكام الشرعية فلو كان هؤلاء الأنبياء حاضرين أيام الإسلام لأصبحوا مسلمين ولاتبعوا سيد المرسلين وصاحب الكمالات الإنسانية محمد صلى الله عليه وآله وسلم لاسيما وانهم كانوا يمشون به ويأمرون أتباعهم بالإتقياد له عند ظهوره.

التاسعة : الآية حجة على أهل الكتاب فكما كان الأنبياء السابقون كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق أمة قد مضت وإنقضت أيامها وما فيها من السنن، كذلك فإن أيام حكم الكتب الأخرى قد إنقضت بنزول القرآن.

العاشرة : تظهر الآية عظيم منزلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومقامه السامي في تأريخ الملل والأديان، فاذا كان الأنبياء السابقون قد ذهب أيامهم، فإن شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي الباقية في هذه الأيام وإلى يوم القيامة لأنها ومعجزاتها حاضرة متجددة بلحاظ الرتبة والأحوال الزمانية مع أن الأفضلية متشعبة الوجود ومتعددة الجوانب، كما أن الإسلام هو شريعة الأنبياء السابقين.

الحادية عشرة : في الآية تنزيه للأنبياء السابقين، وأمر ضمني بإكرامهم وأنهم أدوا ما عليهم.

الثانية عشرة : فيها تحذير ونهي عن إعلان الملازمة بين الأنبياء السابقين وبين الذين وقفوا من الإسلام موقفاً سلبياً مبنياً على الجحود.

الثالثة عشرة : كما تمنع الآية السابقة من نسبة إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط إلى اليهودية أو النصرانية فإن هذه الآية تنهى عن الإعتذار عن دخول الإسلام بمحاكاة الأنبياء السابقين وإيجاد صيغ الإتحاد والتشابه في الإنتماء.

الرابعة عشرة : تدل الآية بالدلالة الإلتزامية على لزوم الإقتداء بالأنبياء في إيمانهم وسيرتهم وسنتهم لأن هذا الإقتداء يؤدي إلى الهداية والرشاد.

الخامسة عشرة : تبين الآية المسؤولية الكبيرة التي يتحملها المشمولون بهذا الخطاب وما يجب عليهم بالسعي والإكتساب في دروب الهداية ونيل السعادة باتباع الحق واجتناب الغواية.

قوله تعالى ﴿وَكُنتُمْ مَّا كُنتُمْ﴾

ومن الإعجاز في إقتران ذكر سنن الأنبياء، مع الفعل وسيرة المسلمين تحريض وبعث المسلمين للإقتداء بالأنبياء والتأسي بهم وتعاهد صيغ وراثتهم في العبادة والصلاح ومنها أداء الصلاة وإتيان الزكاة والنفر إلى حج بيت الله الحرام الذي حجه الأنبياء من قبل.

وجاءت الآيات لبيان أن ما كسبه الأنبياء السابقون هو الإخلاص في عبادة الله، والفناء في طاعته ورجاء مرضاته، وجاءت آية البحث للحث على التدبر في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن يتفكر كل إنسان في عمله وسنخيته وصبغته وفق موازين مرضاة الله.

وتحمل الجهة المخاطبة - بالفتح - وجوهاً:

الأول : أختتمت الآية السابقة بأمر من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ...﴾ لإرادة الإحتجاج على فريق من أهل الكتاب فهل آية البحث خاصة بهم وأن تقدير آية البحث (قل يا محمد

لهم تلك أمة قد خلت). الجواب لا .

الثاني : جاءت الآية مستقلة وقانون كلي وهي ليست جزءاً من الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل) الوارد في خاتمة الآية السابقة.

الثالث : الآية تعضيد للنبي في قوله ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ ليكون من إعجاز القرآن أن آياته مدد للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قوله وفعله .
فحينما أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﴿قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمَ اللَّهُ .﴾ جاءت آية البحث لنصرته وتأييده لتكون هذه الآية وصيغة التعضيد هذه من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(١).

فتكون للآية القرآنية وظائف متعددة ويصدق عليها أنها من جند الله، إذ تبين حكماً وتنصر النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وتجذب الأسماع لقوله، وتمنع من المغالطة والجدال فيه، وتبعث الناس على التدبر في أمورهم وأعمالهم.

الرابع : الآية أعم في لغة الخطاب وتشمل المسلمين أيضاً بلحاظ الآية التي بعدها.

وباستثناء الوجه الأول فإن الوجوه الأخرى من مصاديق الآية الكريمة .
لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا مزرعة للآخرة ، ورزق الإنسان العقل للفصل والتمييز بين الأشياء وسنخيتها وأثرها وتفضل بالنبوة والتنزيل لهداية الناس، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، وكل نبوة هي رحمة بالناس إلا أن مصاديق ووجوه الرحمة بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من اللامتناهي لذا وصفها الله بأنها رحمة للعالمين أي متجددة في كل

(١) سورة المدثر ٣١.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

يوم وليلة وإلى يوم القيامة، وكل آية من القرآن هي كنز متجدد من هذه الرحمة ومنه أن الله عز وجل يخاطب الناس بأن لكم ما كسبتم من الأعمال وبها تجزون يوم القيامة، قال تعالى ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(١).
سُدًى^(١).

وبالإسناد عن جرير بن عبد الله قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم الصوف فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة فأبطؤا عنه حتى روي ذلك في وجهه قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بصرة من ورق ثم جاء آخر ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء^(٢).

قوله تعالى ﴿وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

الأول: الآية قاعدة كلية في باب الحساب والسؤال، وإخبار عن عدم تحمل أوزار الغير أو الإنتفاع من سعيهم إذا لم تكن اسباب لهذا التحمل أو الإنتفاع فقد ينتفع الإنسان من عمل غيره كما لو كان سبباً في المعروف والحث عليه، ويأتي الثواب للأبوين من عمل الولد الصالح، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)^(٣).

الثاني: في الآية تخفيف عن الناس ودعوة لهم للتفكير في الخلق ومدار المسؤولية وفلسفة الحساب.

(١) سورة القيامة ٣٦.

(٢) صحيح مسلم ٢٠٥٨/٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٤٤٢/١.

الثالث: الأنبياء معصومون من الذنوب، وإن اختلف علماء المسلمين في درجة العصمة، وهل هي التنزه من الكبائر ام مطلقة، وتنحصر بفترة ما بعد النبوة أم أنها تشمل أيام حياة النبي كلها.

والآية لا تتعارض مع شرف وعظيم منزلة الأنبياء ولكنها جاءت للإحتجاج ودعوة لأهل الكتاب لإنشغالهم بأنفسهم وما يجب عليهم من الكسب العقائدي.

الرابع: إن موضوعية وإعتبار الأنبياء السابقين في الملل وتأريخ الشرائع حجة عليهم في لزوم الإقرار والإيمان بالأنبياء على نحو العموم المجموعي والإستغراقي.

الخامس: قد ثبت عند الملمين جميعاً حتمية الحساب وحصول الجزاء ثواباً او عقاباً، وتبطل هذه الآية دعوى الموجودين من الملل السابقة أيام التنزيل عن إنتماء الأنبياء وأحكام شرائعهم.

السادس: الآية إنذار ووعيد وإبطال لمحاولات اللجوء إلى دين الآباء وإتخاذها سبباً وذريعة للإعراض عن الإسلام لأنها تخبر على نحو القطع والنص بان حساب كل شخص سيكون على عمله وكسبه لعمومات قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾^(١).

السابع: تحت الآية الناس على دخول الإسلام بعد إسقاط ما في أيدي كفر قریش من الذرائع ، وإلحصار الثواب والعقاب بالسعي والعمل والإقتداء بالنبوة والتنزيل.

الثامن: الآية تذكير بيوم الحساب والموازين العامة لكيفيته وأسس مواضيع السؤال وقواعده التي تركز على العمل الشخصي وتحذير وإنذار للظالمين، قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ

الرَّسُولَ سَيِّلاً ﴿١﴾.

وَالْآيَةُ بَيَانٌ لِّقَانُونٍ كُلِّي وَهُوَ عَدَمُ سُؤَالِ الْلاحِقِ عَنْ أَعْمَالِ السَّابِقِ مِنَ النَّاسِ، وَالْأَبْنَاءُ عَنْ أَفْعَالِ الْآبَاءِ، وَهَلْ يُسْتَلُّ الْآبَاءُ عَنْ فَعْلِ الْأَبْنَاءِ ، الْجَوَابُ لَا، وَلَكِنْ يُسْتَلُّونَ مَاذَا تَرَكُوا لَهُمْ وَبِمَاذَا أَوْصَوْهُمْ وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ لِبَيَانِ الْوَصِيَّةِ بِتَعَاهِدِ التَّوْحِيدِ، وَالْعَهْدِ بِالثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالِدَعَاءِ لَهُمْ بِالْهَدَايَةِ وَالصَّلَاحِ، كَمَا وَرَدَ فِي وَصِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ لَبْنِيهِ^(٢)، وَوَصِيَّةِ يَعْقُوبَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَتَتَجَلَّى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿إِذْ قَالَ لِبْنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾^(٣)، وَأَخَذَهُ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ لَا يَشْرَكُوا بِاللَّهِ، لِیَأْتِيَ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ لِلْآبَاءِ بِصَلَاحِ الْأَبْنَاءِ .

وَجَاءَ ذِكْرُ هَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ لَوُجُوهٍ:

الأول : بَيَانُ جِهَادِ الْأَنْبِيَاءِ فِي تَوْرِثِ مَبَادِئِ التَّوْحِيدِ وَإِصْلَاحِ أَوْلَادِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ وَهُوَ مِنْ عَمُومَاتِ أَمْرِهِمْ لِأَبْنَائِهِمْ بِالصَّلَاةِ وَتَقْوَى اللَّهِ، وَفِي إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾^(٤).

الثاني : تَوْكِيدُ قَانُونٍ وَهُوَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَغَادِرُونَ الدُّنْيَا إِلَّا بِتَرْكِ أَمَانَةِ التَّوْحِيدِ وَضُرُوبِ عِبَادَةِ اللَّهِ عِنْدَ أَبْنَائِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ.

الثالث : تَأْدِيبُ الْمُسْلِمِينَ، وَهَدَايَتُهُمْ إِلَى الْوَصِيَّةِ لِأَبْنَائِهِمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى التَّصَدِيقِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَنَزُولِ الْقُرْآنِ.

الرابع : الْإِشَارَةُ إِلَى حَقِيقَةِ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ بَيَانَهَا وَهِيَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ كَانُوا عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ وَدِيَانَةِ الْإِسْلَامِ.

(١) سورة الفرقان ٢٧.

(٢) انظر الآية ١٣٢.

(٣) سورة البقرة ١٣٣.

(٤) سورة مريم ٥٥.

قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الآية ١٤٢.

الإعراب واللغة

سيقول: السين حرف إستقبال ويفيد القرب في الزمان القادم، وهو بلحاظ مدته أقصر من سوف، السفهاء: فاعل مرفوع.
من الناس: جار ومجرور، ما: اسم إستفهام مبتدأ .
ولاهم: فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف والضمير هم في محل نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو.
عن قبلتهم: جار ومجرور متعلق بولاهم، والضمير(هم) في محل مضاف إليه.

التي: اسم موصول في محل جر صفة لقبلتهم.
كانوا: فعل ماض ناقص، الواو اسم كان، ولاهم: فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، والضمير: مفعول به، عن قبلتهم: جار ومجرور التي كانوا.

قل: فعل أمر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، لله: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، المشرق: مبتدأ مؤخر، المغرب: عطف على المشرق، يهدي: فعل مضارع مرفوع والفاعل: ضمير مستتر يعود لله عز وجل، من: اسم موصول مفعول يهدي والجملة الإسمية في محل نصب مقول القول .

يشاء: فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، والجملة لا محل

لها لأنها صلة الموصول.

إلى صراط: جار ومجرور متعلقان بيهدي، مستقيم: صفة الصراط.
والسفه خفة الحلم وضعف الرأي، (وقال مجاهد: السفه الجاهل
والضعيف الأحمق)^(١)، والظاهر أن الجهل مترشح عن السفه وأعم منه.
وقد ولى الشيء وتولّى إذا ذهب هارباً ومدبراً، وتولى عنه إذا أعرض)^(٢)
سميت القبلة قبلة لأن المصلي يقابلها، والقبل من كل شيء خلاف الدبر.

في سياق الآيات

تظهر الآية شبهة أوردها فريق من الناس على المسلمين في عباداتهم اذ
إختاروا مسألة تتعلق بعبادات المسلمين ، ولعل فيه محاولة للتشكيك واحداث
موضوع للإفتتان.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الشعبة الأولى: الصلة بين الآيات السابقة وبين هذه الآية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (وقالوا كونوا)^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: بيان الأذى الذي لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
وأصحابه معه، فمرة يقال لهم إتركوا ملتكم وإتبعونا، وأخرى يقول بعض
الناس لماذا النسخ في القبلة.

الثانية: لما جاءت الآية أعلاه بالأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
وسلم بأن يرد عليهم بأنه على ملة إبراهيم ويدعوهم إليها، جاءت هذه الآية
للإخبار بالدلالة التضمنية على أن تحويل القبلة إلى الكعبة من ملة إبراهيم
عليه السلام.

الثالثة: لما جاءت الآية أعلاه بإدعاء أهل الكتاب الملازمة بين ملتهم

(١) لسان العرب ٤٩٩/١٣.

(٢) لسان العرب ٤١٥/١٥.

(٣) الآية ١٣٥.

والهداية، جاءت الآية محل البحث بنسبة الهداية إلى الله عز وجل، وأن التوجه إلى الكعبة من أصدق معاني الهداية.

الثاني: الصلة بين آية (قولوا آمنا)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: لما جاءت الآية أعلاه للإحتجاج على أهل الكتاب بتوكيد إيمان المسلمين بالله والقرآن جاءت هذه الآية لتخبر أن تحويل القبلة أمر وعزيمة من عند الله.

الثانية: لقد قام إبراهيم عليه السلام ببناء قواعد البيت الحرام، واجتهد في الدعاء لأهل الحرم، وسأل الله بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في التنزيل في دعائه هو وإسماعيل ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾^(٢)، وقد جاء الرسول بتحويل القبلة إلى ذات البيت الذي رفع قواعد إبراهيم ونادى في الناس لحجه والطواف به مما يلزم إتباعه وتصديقه.

الثالثة: عدم تعارض التوجه للقبلة مع ما أنزل على الأنبياء لأن المسلمين يؤمنون بالتنزيل ﴿وَمَا أَوْتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾، مما يدل على أن إنكار تحويل القبلة ليس من ملة موسى أو عيسى.

الرابعة: تحويل القبلة من الهداية إلى صراط مستقيم.

الثالث: الصلة بين آية (فإن آمنوا)^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: دعوة أهل الكتاب للتوجه للبيت الحرام قبله.

الثانية: نسخ القبلة فضل من الله، وسبيل هداية، وقد تقدم في الآية أعلاه ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾.

الثالثة: دعوة المسلمين للتمسك بإستقبال البيت الحرام، وعدم الإلتفات

(١) الآية ١٣٦.

(٢) سورة البقرة ١٢٩.

(٣) الآية ١٣٧.

إلى لغة التشكيك وأسباب الريب، وهذا التمسك من عمومات قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١)، بلحاظ أن المراد من حبل الله الإسلام والقرآن وسنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء النسخ بالقرآن والسنة النبوية.

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين كفاية الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من الذين يسعون في بث الشك والريب في أحكام الشريعة الإسلامية.

الرابع: الصلة بين آية (صبغة الله)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: نسخ القبلة، وتوجه المسلمين إلى الكعبة من صبغة الله.

الثانية: تحويل القبلة نعمة عظيمة، وآية في باب الأحكام والشرائع، وليس في التولي من بيت المقدس إعراضاً عنه، وورد ذكره في القرآن في موضوع الإسراء، قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾^(٣).

ووردت نصوص كثيرة من السنة النبوية بإكرامه وبيان شأنه.

الثالثة: توجه المسلمين إلى البيت الحرام من عمومات خاتمة الآية أعلاه (ونحن له عابدون) لما فيه من الطاعة والإنقياد لأوامر الله عز وجل، خصوصاً وأن إستقبال القبلة في الصلاة من العبادات ويؤتى به بشرط الإمتثال والقربة.

الرابعة: من صبغة الله الهداية إلى صراط مستقيم.

الخامس: الصلة بين آية (قل أتحاجوننا)^(٤)، وبين هذه الآية، وفيها

(١) سورة آل عمران ١٠٣، وجاء جزء كامل في تفسيرها.

(٢) سورة الآية ١٣٨.

(٣) سورة الأسراء ١.

(٤) الآية ١٣٩.

مسائل:

الأولى: تسليم المسلمين بأن تحويل القبلة بأمر من عند الله عز وجل.
الثانية: دعوة أهل الكتاب إلى إجتنب الإنكار على المسلمين في عباداتهم.

الثالثة: أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى (ونحن له مخلصون) حكاية عن لسان المسلمين في إحتجاجهم.

الرابعة: من أعمال المسلمين التي يأتيهم الثواب بسببها إستقبال البيت الحرام وإهتمامهم للإمثال لأوامر الله العبادية.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:
الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (أمة وسطاً)، وفيها مسائل:

الأولى: نسخ القبلة، وإستقبال البيت الحرام من خصائص ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الثانية: من شهادة المسلمين على الناس إنكار السفهاء لإمثالهم لأمر الله عز وجل في القبلة ، ولزوم الإمثال لقوله تعالى ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(٢).

الثالثة: تحويل القبلة إمتحان وإختبار عقائدي وكشف لأهل النفاق، أما السفهاء فقد إنشغلوا بمسألة ترك المسلمين لإستقبال بيت المقدس.

الرابعة: ثبات المسلمين وحسن سمعتهم وإيمانهم بإتباعهم الرسول في الجهة التي يتوجه إليها في الصلاة لقوله تعالى ﴿إِلَّا لَتَعْلَمَنَّ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾.

الخامسة: هداية الله عز وجل المسلمين إلى صراط مستقيم من رأفته ورحمته بالناس.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) الآية ١٤٤.

السادسة: لقد جاءت الآية أعلاه بخصوص نسخ القبلة، أما الآية محل البحث فأخبرت عن تغيير المسلمين لقبلتهم، وإمتثالهم لأمر الله، فلماذا لم يأت قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾، بعد الآية أعلاه في ترتيب القرآن، والجواب إن آية ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ جاءت في سياق آيات الإحتجاج، وبيان أن المسلمين على نهج الأنبياء السابقين في موضوع القبلة، وفي طاعة الأوامر الإلهية.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (قد نرى) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: بيان حقيقة وهي مجيء نسخ القبلة من عند الله.

الثانية: جاء الأمر الإلهي بتبديل القبلة إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، وللمسلمين والمسلمات بالتبعية والإلحاق، بينما جاء إنكار وذم السفهاء لفعل عموم المسلمين، وفيه آية في نيل المسلمين الأجر والثواب لما يلاقونه من الكفار وأهل الشك والريب.

الثالثة: لم يبق من كلام وإنكار السفهاء بخصوص تحويل القبلة أثر، أما توجه المسلمين والمسلمات إلى الكعبة فهو باق وثابت إلى يوم القيامة.

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين لزوم تنزه الناس عن الإشكال وإثارة الريب بخصوص إتخاذ المسلمين الكعبة قبلة، وهذا التنزه مناسبة للتدبر في معاني ودلالات هذا الإستقبال.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (ولئن أتيت) ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: إصرار فريق من الناس عن الإعراض عن الكعبة كقبلة في العبادات.

الثانية: بيان الأذى الذي لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عدم إصغاء شطر من الناس له مع مجيئه بالآيات وعنه قال: ما أؤذي نبي

(١) الآية ١٤٤.

(٢) الآية ١٤٥.

مثل ما أوديت^(١).

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين عدم تولي المسلمين عن الكعبة كقبلة لهم.
الرابعة: نسخ القبلة من العلم الذي رزقه الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامسة: جاءت الآية محل البحث بلفظ (قبلتهم) لإرادة المسلمين، وإستقبالهم لبيت المقدس قبل نسخه وجاءت الآية أعلاه بلفظ (قبلتك) لأن الإلتباع يكون للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه تشريف وإكرام إضافي له.

إعجاز الآية

حصرت الآية القول واثارة الشبهة بشرط من ادنى الناس وهم السفهاء وفي هذا تضعيف ذاتي لها وذم لقائلها كما انها تضمنت الرد عليهم على نحو الإطلاق، فمن الإعجاز ان الأيام تحمل الذم لهم وإيجاد صيغ الحل، ولغة الإستقبال نوع اعجاز آخر لما فيها من الإخبار عن الغيب والتحذير، وظهرت الآية تحويل القبلة وانه من عند الله تعالى وليس من النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن إعجاز الآية مجيء رشحات تصاحب الأمر الإلهي تساعد في تثبيته وإمضائه وهي:

الأول: تحذير المسلمين من أهل الشك والريب.

الثاني: زجر الناس عن لوم المسلمين في عباداتهم ومناسكهم.

الثالث: إخبار الآية عما سيقوله أهل السفاهة وخفة العقل، إذ أن ورود السين في (سيقول) وما تدل عليه من معاني الإستقبال شاهد على أن الآية من علم الغيب، وهل بإمكان أهل العناد أن يمتنعوا عن هذا القول كيلا يكون موضوعاً للآية والتحدي، ويتخذوا من إنتفاء المصداق العملي لهذه الآية

مادة للتشكيك بنزول القرآن، الجواب لا يقدرّون على هذا الإمتناع، ومن الإعجاز في المقام تعدد الأقوال في أفراد الذين قالوا ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ﴾، وأنهم من أهل الكتاب ومن مشركي العرب والمنافقين ليكون هذا التعدد دليلاً على صدق نزول القرآن من عند الله، وأنه يتضمن الإخبار الذي يفيد التحدي.

ومن إعجازها مجيء الرد على ما سيقول السفهاء والأصل في الرد المتقدم زماناً على القول والجدال أن يحول دون إظهاره وقوله، لأنه يولد ميتاً، ويصاحبه البطالات، ومع هذا فانهم أظهروا الإنكار لإستقبال المسلمين البيت الحرام، ومن إعجازها مجيء قول السفهاء بخصوص ترك القبلة السابقة وليس إختيار القبلة الجديدة والتوجه إلى الكعبة، وفيه آية إعجازية وهي عصمة الأوامر الإلهية الواجبة من ذم السفهاء .

ومن إعجازها التباين في صبغة الفعل، وقول السفهاء جاء على اللسان أيام نزول آيات تحويل القبلة (ما ولاهم) أما فعل المسلمين وموضوع إستقبالهم فهو الماضي والحاضر والمستقبل لبيان أن موضوع الآية أعم من أن ينحصر بهذا القول بل هو تثبيت لسنن الشريعة.

لقد جاء قبل آيات جدال أهل الكتاب بقوله تعالى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾^(١)، وجاءت هذه الآية لبيان قانون ثابت وهو أن الهداية بيد الله عز وجل، وتتجلى بإتباع النبي والتنزيل ومنه تحويل القبلة وإستقبال البيت الحرام، لتوكيد أن النسخ في القبلة من عند الله، وأن ترك المنسوخ وإتباع الناسخ نوع هداية ورشاد.

ومن إعجازها رمي مصدر القول بالسفه وليس ذات القول .
وفيه نكتة وهي ترشح السفه بهذا القول وما يصدر منهم من صيغ الجدال

والريب التي لا أصل لها من الشواهد على إحاطة القرآن باللامحدود من الوقائع والأحداث لأن الآية واقية من السفهاء أنفسهم ومما يقولون بغير علم، ومع صدور القول من السفهاء فإن الآية لم تتركه بلا رد وإبطال.

وجاء إنكار السفهاء بخصوص القبلة التي تحول عنها المسلمون وهي بيت المقدس، وليس التي إنتقلوا إلى إستقبالها وهي البيت الحرام، مما يدل على معرفة الناس بقدسية ومنزلة البيت الحرام وأهليته لأن يستقبله المسلمون في الصلاة، ولو كان نسخ القبلة على نحو الموجبة الجوئية كما لو خير المسلمون بين إستقبال بيت المقدس والكعبة المشرفة، فيحتمل الأمر وجوهاً:

الأول : إعلان السفهاء ذات القول وصيغة الإنكار.

الثاني : التخفيف من لغة الإنكار لأنها لا تختص بتحويل القبلة في آثارها لو تركت من غير فضح .

الثالث : سكوت السفهاء وعدم الإنكار والجدال في إستقبال القبلة.

والصحيح هو الأول والثاني ، لتعلق الجدال والإنكار بالتولي والتحول

عن بين المقدس ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(١).

وفي الآية إصلاح للناس، إذ يتجنبون النعت بالسفه وخفة العقل بالفطرة وينحصر طريق الإجتناب في المقام بالإمتناع عن إنكار توجه المسلمين إلى إستقبال البيت الحرام وتركهم إستقبال بيت المقدس.

وتضمنت الآية وجوهاً:

الأول : الإخبار عن إحتجاج طائفة من الناس على تحول المسلمين في

قبلتهم.

الثاني : إتصاف هذا الإخبار بأنه من علم الغيب وتعلقه بالمستقبل بحيث

يتعذر على أهل الجحود والإمتناع عن إنكار تحول المسلمين عن إستقبال بيت المقدس، ويحتمل هذا التعذر وجوهاً:

الأول : إنه من السفه وخفة العقل.

الثاني : عجز السفهاء عن الإمتناع عن هذا القول حتى وإن أرادوا مخالفة نص الآية الكريمة.

الثالث : إن الله عز وجل هو الذي يجعل هذا الإمتناع متعذراً عليهم، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

الرابع : حينما نزلت هذه الآيات ، وأخبرت عن كونهم سينكرون هذا التحول فانهم أشرفوا على إعلان هذا القول وهو من أسرار مجيئ السين وإرادة المستقبل القريب في سيقولون ، فليس ثمة وقت لهم للتدراك والله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٢).

وتحتمل إرادة المستقبل القريب في (سيقول السفهاء) وجوهاً:

الأول : إثبات شئ لشيئ لا يدل على نفيه عن غيره، فقصده معنى المستقبل القريب لا يدل على عدم إرادة المستقبل البعيد وأن هذا القول سوف يستمر في أجيال التابعين من المسلمين.

الثاني : قطع قول السفهاء في أيام أو سنين معدودة بعد تحول المسلمين في قبلتهم.

الثالث : إستمرار ذات القول على نحو السالبة الجزئية مع إنعدام الأثر والتأثير لوجوه:

الأول : آية البحث وما فيها من الفضح والذم للقائلين به.

الثاني : ثبات المسلمين على الإيمان ومبادرتهم للعمل بالتنزيل.

الثالث : بيان الثواب العظيم في إستقبال البيت الحرام لذا ورد في الآية التالية وهي أيضاً خاصة في موضوع القبلة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ﴾^(٣).

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة غافر ١٩.

(٣) سورة البقرة ١٤٣.

الرابع : ضعف ووهن المنافقين، وإمتناع الناس عن الإصغاء إليهم.
ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (سيقول السفهاء) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة.

الآية سلاح

في الآية دعوة لإعراض المسلمين عن مثل هذه الشبهات والشكوك وعن أصحابها تنزهاً، ولغة الإستقبال فيها تحبر عن تجدد مثل هذا القول، والإخبار عنه كشف وفضح له وإبطال لتأثيره.

كل آية من آيات القرآن سلاح بيد المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة، وجاءت هذه الآية بمخصوص قبله المسلمين، فقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يستقبل بيت المقدس، ثم نزل أمر الله عز وجل بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، وهو أمر عظيم في باب التشريع، إستقبله المسلمون بالإمثال والرضا ليكون مناسبة لبيان حسن إنصياهم للأوامر الإلهية، ومن الآيات أن كل فعل من أفعال الصلاة إعلان للتضحية في سبيل الله كتكبيرة الإحرام التي هي إنقطاع عن الدنيا وتسليم لأمر الله، وتلاوة الآيات في حال القيام، والركوع الذي يتضمن مد العنق في طاعة الله، والسجود الذي هو تطامن وخضوع مطلق لله عز وجل، والتشهد الذي هو تجديد يومي متكرر للإتلاء للإسلام، وأداء المسلمين الصلاة جماعة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَنْ كُفِرَ مِنْكُمْ﴾^(١).

ومن وجوه تسمية الذين ينكرون ترك المسلمين للقبلة السابقة وهي بيت المقدس (بالسفهاء) ، إن المسلمين يؤدون بالتوجه إلى البيت الحرام فعلاً عبادياً وواجباً تعينياً لا يقبل التأخير أو الترديد، ومن يحتج على فعل واجب يستحق نعت السفه أو أن إحتجاجة يصدر من منازل السفاهة وخفة العقل،

لأن الأصل هو الثناء على الذي يمثل للأمر الإلهي الذي لا يجوز تركه.
إذ تدل الآية التالية على أن إستقبال بيت المقدس على نحو مؤقت بقوله
تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ
عَقْبَيْهِ﴾^(١).

مفهوم الآية

وفي الآية مسائل:

الأولى: عدم إنحصار العداء للإسلام بميادين القتال، بل يشمل الجدل والإحتجاج.

الثانية: بيان أن المسلمين أصبحوا أمة ذات شأن عظيم بحيث يتابع الناس أخبار التنزيل والتشريع الخاصة بهم.

الثالثة: تحذير المسلمين من الإستحفاف بالقول والإنكار وإن كان صادراً من السفهاء، فقد يستخف أهل المنزلة الرفيعة بما يقوله الأدنون ولا يلتفتون إلى قولهم إستصغاراً لهم، فجاءت الآية بدعوة المسلمين لأخذ الحائطة في الدين، والقيام بالرد على الشبهات ، إذ جاء الرد في موضوع تحويل القبلة من عند الله، وفيه دعوة للمسلمين للتصدي للمقالات الباطلة مطلقاً سواء في باب العبادات أو المعاملات أو الكلام وغيرها، لتكون الدنيا دار جهاد للمسلمين في حال السلم والحرب، والحضر والسفر، وهل هذا الرد واجب عيني يجب على كل مكلف، أم أنه واجب كفائي يجزي قيام أي مسلم به عن باقي المسلمين .

الجواب هو الثاني ، إلا أنه لا ينحصر بفرد واحد مخصوص فهو متجدد مع الحاجة له ، قال تعالى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ

وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ ﴿١﴾.

الرابعة: مجيء الآية بصيغة الجمع في السفهاء، مما يعني الكثرة والتعدد في أهل هذا القول، وفيه تحذير إضافي للمسلمين.

الخامسة: تأكيد ملكية الله للسموات والأرض، وجاء هذا التأكيد بخصوص تعيين القبلة، للدلالة على إظهار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمعاني الخشوع والخضوع لله عز وجل.

السادسة: تدل خاتمة الآية على أن الهداية نعمة عظيمة يتفضل بها الله عز وجل على من يشاء من عباده، وتفيد في مفهومها دعوة الناس لسؤال الهداية، وقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يسأل الله عز وجل الهداية للناس، وفي حصار ثقيف وبعد أن وصلت سهام ثقيف إلى المسلمين ونالت منهم، قالوا لولا دعوت عليهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: اللهم إهد ثقيفاً^(٢)، فما لبثوا أن دخلوا الإسلام طوعاً.

الآية لطف

لقد جاءت شريعة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ناسخة للشرائع الأخرى من غير تناف أو تعارض مع أحكامها ولكنها تتصف بالكمال في الأحكام، وتلبية حاجات الناس في العبادات والمعاملات إلى يوم القيامة، وجاءت هذه الآية لبيان النسخ في ذات الحكم التكليفي على نحو جهتي وليس تاماً، فذات الصلاة التي صلاها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في بداية الدعوة هي التي صلاها في المدينة المنورة ويصليها المسلمون والمسلمات إلى يوم القيامة بنفس الكيفية لعمومات قوله: صلوا كما رأيتموني أصلي^(٣).

(١) سورة التوبة ١٢٢.

(٢) مسند أحمد ٢٩/٢٢٤.

(٣) مفاتيح الغيب ١/١٧٠.

وتتضمن الآية لطفاً إضافياً بالمسلمين لما فيها من الإحتراز والتوقي من أهل الشك والريب في أحكام الإسلام، فصحيح أن الآية جاءت بخصوص قول السفهاء في موضوع القبلة إلا أنها أعم، وتتضمن جعل المسلمين في أمن سلامة من الجدل والخصومة في العبادات، ومن اللطف بالمسلمين في الآية هدايتهم إلى لغة الإحتجاج المقترنة بالتقيد التام بالأوامر الإلهية، وبذات الإحتجاج الذي جاء على لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما هو أعم من موضوع القبلة ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

وإذ جاء جواب النبي لكفار قريش بالبينونة والفصل، ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ♦ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾^(١)، فإن هذه الآية لم تقل لأهل الكتاب لنا قبلتنا ولكم قبلتكم للتباين في الموضوع والحكم وأن القبلة عند المسلمين وأهل الكتاب مرآة لعبادة الله، فجاءت الآية بأن كل جهة من الجهات هي لله عز وجل، قال تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٢)، إلا أن التوجه للكعبة على نحو التعيين هداية ونعمة إدخرها الله عز وجل للمؤمنين لأنهم ورثة الأنبياء في العبادة والصلاح.

أسباب النزول

لما نزل جبرئيل بتغيير القبلة وتحول المسلمين الى استقبال الكعبة الشريفة، انكر الكفار سرعة امتثال المسلمين وعابوا عليهم هذا التحول السريع وإعراضهم عن استقبال المسجد الأقصى وهي قبة اليهود، والضمير في ﴿وَلَا هُمْ﴾ و﴿قَبْلَتَهُمْ﴾ يعود للمسلمين.

(١) سورة الكافرون ٢-٣.

(٢) سورة البقرة ١١٥.

مفهوم الآية

الآية توثيق سماوي لما لاقاه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من الأذى والمكر، فالإمّثال لأمر الله تعالى أشرف الأعمال وأسناها ولكن أهل الجحود والعناد قابلوه بالإستخفاف فجاءت هذه الآية لتمنع تأثير هذا الإستخفاف لما تمنحه للمسلمين من المنعة والقدرة على التحمل والصبر في جنب الله والإعتزاز بالإمّثال، وينقطع المؤمن إلى الحمد والثناء على الله تعالى لتوفيقه للطاعة والعمل بمرضاته فينشغل عما يحاك حوله من الدسائس.

فمن العناية الإلهية ان يصرف الله عنه البلاء، والآية القرآنية ذم لأهل النفاق والحسد، ومن مفاهيم الآية توكيد قيام المسلمين بتغيير قبلتهم والتوجه إلى الكعبة والبيت الحرام في صلاتهم ، وان الجدال فيه لن يضرهم لأمر:
الأولى : أصحاب الإشكال هم سفهاء وقليلوا الفهم والتدبير.

الثانية : انه مجرد قول ولم يتعد الى مصاديق الفعل مما يعني ان تغيير القبلة نزل من السماء عندما أصبح المسلمون في قوة ومنعة وإن تأخر زمان النسخ في موضوع القبلة كان في بعض جوانبه وأسبابه معلقاً على بلوغ المسلمين درجة من القوة والعدة والعدد يستطيعون معها الإمّثال الدائم مع الحصانة والسلامة، وبهذا نستقرأ قاعدة جديدة في علم الناسخ والمنسوخ وهي أن الحكم الواقعي الدائم والثابت يحتاج إلى مستلزمات ومقدمات، فالتوجه الدفعي والإبتدائي إلى البيت الحرام وإتخاذه قبلة في بداية الإسلام قد يؤدي الى إنقضاض فريق من الناس على المسلمين وإستغلال شيوع الكفر عند قريش وحول مكة إستغلالاً خبيثاً يضر بالمسلمين في عددهم وإيمانهم، ويبعث الريب والشك في قلوب بعضهم.

الثالثة : عندما إستبان أمر الإسلام وتجلت الآيات وأدرك الناس صدق نبوته صلى الله عليه وآله وسلم وأصبحت شوكة الإسلام قوية جاء الأمر

الإلهي بنسخ القبلة فلم يكن هناك من رد إلا قولاً لأناس نعتهم القرآن بالسفهاء، وهذه الحال ومناسبة النسخ باب لشكر الله تعالى على إتمام الفرائض والأحكام كل بأوانه ومن غير خسائر وأضرار. كما أن قولهم يدل على الإعتراف بتوجه المسلمين إلى القبلة وعبادة الله تعالى وأن القبلة لها موضوعية في الإسلام، ومن مفاهيم قوله (قل) إن رد القول يكون بالقول أيضاً من غير فعل وتعد ولكن مع الفارق في ماهية القولين، فقولهم من أفراد الحسد وقلة العقل ومن عند أنفسهم، أما الرد فهو من عند الله ودفاع عن الحق ومقرون بالحجة والبرهان والدعوة إلى الله عز وجل.

لقد جاء الجواب لبيان حقيقة في الإرادة التكوينية وإخبار عن تفرع الإرادة التشريعية عنها من غير تعارض بينهما ليكون حجة ورداً على قولهم. وأما الدعوة إلى الله فتجلت بنعت التوجه إلى القبلة الجديدة بأنه من مصاديق الصراط المستقيم.

وتشمل الآية في تأويلها المعاني المذكورة للصراط المستقيم أي أن الجواب أعم وأن الله تعالى يهدي عباده إلى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإلى القرآن والعمل بأحكامه وإلى سبل الصلاح، وفي التنزيل ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، ومن الهداية أيضاً بحسب سياق ومضمون الآية قبول النسخ والإمثال للأمر الإلهي والحكم المولوي الناسخ لغيره.

إفادات الآية

لقد أراد الله عز وجل للعبد في الصلاة العتق من سجن الدنيا، وإزاحة الكلدورات الظلمانية عن نفسه، وجعلها تتنعم في ربوع الجنة، وتسيح في السماوات بالإنقطاع إلى الله فيها، والصلاة خير محض وهي سعي في مرضاة الله سبحانه.

(١) سورة الفاتحة ٦.

فجاء تحويل القبلة ليكون الإمثال العام له مصداقاً لإخلاص المسلمين في عبادتهم، وطاعتهم لله عز وجل وإقرارهم بأن الناسخ والمنسوخ من عند الله، وأنه لا يعلم ملاكات الأحكام إلا الله عز وجل، وتفضل على المسلمين بالأوامر والنواهي القرآنية، وموضوع الإستقبال في الصلاة سر من أسرار عالم التكوين، وخلافة الإنسان في الأرض.

ولما احتجت الملائكة على جعل آدم خليفة في الأرض بأن الإنسان ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١)، رد الله عز وجل على الملائكة بأنه هو العالم بحال الإنسان وعمارته الأرض بالعبادة بقوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وجاء توجه الناس في صفوف الصلاة شاهداً على جهاد المؤمنين ضد النفس الشهوية، وحربهم على الفساد، وإنكارهم لسفك الدماء بغير حق، وجاءت هذه الآية لبيان طاعة المسلمين لأوامر الله في القبلة المنسوخة والقبلة الناسخة.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بذكر قول لشطر من الناس يتصفون بخفة العقل، ويتعلق القول بخصوص تحول المسلمين إلى إستقبال البيت الحرام، ليرشح السفه على ذات القول ويكون سبباً لتضعيفه، وإخباراً عن تجافيه عن الحكمة والصواب.

ولم تقل الآية (من أهل الكتاب) أو (من المشركين) وفيه مسائل:
الأولى: إرادة المعنى الأعم، وأن الكلام يصدر من أكثر من جهة.
الثانية: الإشارة إلى أن أصل هذا القول هو السفه وخفة العقل.
الثالثة: تنزيه الكتاب السماوي مطلقاً من هذا القول.

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

الرابعة: لقد جاء تحويل القبلة من عند الله قال تعالى ﴿فَلَنُكَفِّرَنَّ قِبْلَةَ تَرْضَاهَا﴾^(١)، ولكن السفهاء أظهروا الإنكار وقالوا ﴿مَا وَلَانَهُمْ﴾ لإرادة الإجمال في السبب، وكأنهم لم يعلموا أن المسلمين يتلقون الأوامر من عند الله وإن تحويل القبلة من عمومات تصديقهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحسن إتيانهم لما يأتي به من عند الله.

وجاءت الآية بصيغة الجمع في صدور القول، وفي فعل المتولي عن القبلة مما يدل على إنتفاء التردد عند المسلمين في التحول إلى القبلة الجديدة، وعدم وجود من بقي على القبلة السابقة وهي بيت المقدس، مما أثار الحسد عند هؤلاء، وقول السفهاء هذا من عمومات قوله تعالى ﴿قَدْ بَدَأَ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾^(٢)، وجاء نعتهم بالسفهاء لبعث السكينة في نفوس المسلمين والبشارة بالأمن والسلامة من أذاهم.

وجاءت الآية وقاية وإحترازاً من القول والشبهة قبل صدورها من السفهاء ليزداد المسلمون إيماناً، فمن إعجاز أحكام القرآن إقتران الأمر الإلهي بما يعضده من الحجج والبراهين، ومنه هذه الآية التي تجعل المسلمين يدركون أن الله عز وجل معهم يأمرهم ويدفع عنهم، وفيه تخفيف عنهم في أداء الوظائف العبادية.

وذكرت الآية أموراً ثلاثة:

الأول: قول بعضهم بصيغة الإنكار عن السبب في ترك المسلمين لقبلتهم السابقة التي كانوا يتوجهون لها في الصلاة وهي بيت المقدس.

الثاني: الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل).

(١) سورة البقرة ١٤٤.

(٢) سورة آل عمران ١١٨.

ومن الإعجاز في الآية أن لفظ (قل) جاء مطلقاً من حيث الجهة التي يتوجه إليها، فلم تقل الآية (قل لهم) لإرادة السفهاء الذين أشكلوا على تبديل القبلة دون غيرهم من الناس، وفيه مسائل:

الأولى: مضامين القول قوانين كلية ثابتة في كل زمان.

الثانية: إرادة الخطاب للناس جميعاً، وعدم حصر القول بالسفهاء وان جاء رداً على إنكارهم.

الثالثة: الإطلاق والعموم في أحكام الآية القرآنية، وعدم إنحصارها بقوم دون غيرهم وهو من إعجاز القرآن والمنافع العظيمة لها.

الرابعة: بقاء أحكام هذه الآية غضة طرية إلى يوم القيامة.

الخامسة: تنمية ملكة الاحتجاج عند المسلمين وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)، برهان صالح للاحتجاج في مواضع ومسائل عديدة.

السادسة: تفقه المسلمين في الدين، وإصلاحهم للجدال في المواضع والأحكام المشابهة.

الثالث: قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالرد على السفهاء وغيرهم.

ومن الإعجاز مجئ الآية بمضامين الرد، ولم تكتف بالأمر بالرد عليهم ولزوم إبطال قولهم، بل جاءت بالبرهان الذي هو أعم في موضوعه من مسألة القبلة، فأخبرت عن ملك الله المطلق، وان الإستقبال ليس مطلوباً بذاته، بل هو شاهد على عبادة الله والمثل بين يديه، والتقيد بأوامره تعالى التي جاءت في القرآن وأن الناسخ والمنسوخ في القبلة كلاهما في ملك الله وان النسخ إمتحان وإختبار، وهو هداية من الله للمسلمين.

ولم تبدأ الآية بذكر موضوع القبلة والأمر بتبديلها، بل بقول يجهر به الذين لا يفقهون الأحكام الشرعية وإن الأمور كلها بيد الله، قال تعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١).

وذكرت الآية المشرق والمغرب في مقام تعيين القبلة بالبيت الحرام للإخبار عن حقيقة وهي أن إستقبال المسلمين للبيت لا يتعارض مع إقرارهم بأن السماوات والأرض كلها لله عز وجل وأنه سبحانه منزّه عن المحل والمكان والجهة، والكل ملك له تعالى.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: الإخبار السماوي عما يقوله أهل الحسد والعداوة.

الثانية: سبق الإخبار السماوي على صدور الشبهة من العدو والغير مطلقاً مناسبة لدرئها، ودفع ضررها.

الثانية: من الناس من يريد للمسلمين البقاء على قبلتهم السابقة. فجاءت الآية بالإخبار بأن تعيين القبلة هو من ملك وتصرف وتدير الله للسماوات والأرض، وأمر من عنده تعالى ليس للملك أو النبي تعيينها، قال تعالى ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾^(٢).

الرابعة: في الآية تأديب للمسلمين لتلقي الأوامر الإلهية من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن.

الخامسة: تبين الآية جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل الله.

السادسة: دعوة المسلمين لرد المقالات الباطلة وعدم الإصغاء إليها.

(١) سورة الأنبياء ٢٣.

(٢) سورة آل عمران ٤٠.

السابعة: تبديل القبلة من مصاديق الهداية إلى صراط مستقيم.
الثامنة: تبعث خاتمة الآية الغبطة والرضا في نفوس المسلمين لتبديل القبلة نحو البيت الحرام، وتجعلهم شاكرين لله على هذه النعمة.
 وإبتدأت الآية بجملة خبرية، وأختتمت بجملة إنشائية وصدور الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطته إلى المسلمين.
 وهل تلاوة هذه الآية في الصلاة وغيرها من الرد على السفهاء، الجواب نعم لتكرار ذات القول الذي أمر الله عز وجل به نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

التفسير الذاتي

ورد لفظ (يقول) في القرآن ثماناً وستين مرة، وليس فيها (سيقول) بإضافة سين الإستقبال إلا أربع مرات، وهذه الأربعة مدرسة كلامية مستقلة، إذ أنها جاءت بالجمع في الفاعل.
 جاءت إثنان منها في سورة الفتح، وكلاهما في الأعراب، قال تعالى ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا﴾^(١)، فحينما أراد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسير إلى مكة في السنة السادسة لأداء مناسك العمرة إستنفر القبائل حول المدينة وأهل البوادي للخروج معه للتوقي من بطش ومكر قريش.
 فتناقل كثير من الأعراب وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عُقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه ، فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم^(٢).

(١) سورة الفتح ١١.

(٢) الكشاف ٥٤٣/٣.

وتضمنت الآية أعلاه فضحهم بقوله تعالى ﴿يَقُولُونَ بِالسِّنِّهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(١)، فمن إعجاز القرآن أن تتضمن الآية الكشف والرد بلغة البرهان. وورد لفظ السفهاء خمس مرات في القرآن كلها بلغة الذم والتحذير أربعة منها تخص أيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما بعده من الأيام وفي مواضعها شاهد على الأذى الذي يلاقيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من المقالات الباطلة. وتدل هذه الآيات على أن المراد من السفه في ضعف الرأي وقلة المعرفة، وسوء المقالة والعناد، ومخالفة الوظيفة الشرعية.

التفسير

قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قُلُوبِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾

جاءت هذه الآية بصيغة المستقبل لتنبأ عن هجوم عقائدي على نحو الشبهة، نعم قد تستعمل صيغة المستقبل في الماضي، ولكن الكلام يحمل على ظاهره إلا أن تدل قرينة على الخلاف.

ومع ذم القائلين بالجهالة وما يعنيه بالدلالة التضمنية من تقييح لأعمالهم وأقوالهم والدلالة الإلزامية من الدعوة إلى عدم الالتفات إلى أقوالهم مطلقاً فإن ذكرهم بصيغة الجمع يدل على كثرتهم ولزوم التصدي لمقاتلتهم الباطلة.

ولكن من القائل؟ فيه أقوال:

الأول: هم اليهود، عن ابن عباس ومجاهد.

الثاني: مشركوا العرب، عن ابن عباس والبراء بن عازب والحسن والأصم.

الثالث: المنافقون، قاله السدي.

والسفهاء لفظ عموم، والألف واللام تفيد الجنس، ولكن ليس على نحو

الإطلاق والعموم الإستغراقي إذ أن الأمر محصور بأيام التنزيل في المدينة ومكة، ولا يمنع من تجدده في أزمان لاحقة ، ولكنه أخف وأقل أثراً ببركة هذه الآية وإمثال المسلمين لأمر النسخ .

والتقييد والتمييز والبيان بالتبعض بانهم من الناس وهو عنوان جامع للمسلمين وغيرهم ونوع إكرام لأهل الكتاب بما هم أهل كتاب لأن هذا القول لا يصدر الا عن سفه وإبتعاد عن الكتب المنزلة وفيه مخالفة لقواعد الإنتماء الى النبوة نسباً وإتباعاً وولاء لأن تحويل القبلة من مفردات النبوة.

أما بالنسبة للقول الأول كان يسر بعض أهل الكتاب إتفاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم في القبلة ويفزعهم تغيير قبلة المسلمين، أما الثاني فان المشركين كانوا يتأذون من إستقباله نحو بيت المقدس حينما كان في مكة، ولما جاء إلى المدينة وتحول إلى الكعبة قال اليهود بأن المسلمين لا بد أن يرجعوا إلينا، ولكن ظاهر الآية بخلافه ففي كلامهم نوع إستغراب ولوم للمسلمين على تغيير القبلة.

وتدل الآية على موضوعية القبلة وأهميتها في حياة المسلمين وعند المسلمين عامة، وأن هذه الآية لا تنحصر بأسباب النزول وأوانه بل أن الشبهة في خصوصها من اليهود وغيرهم أعم ولكنها تتبدد وينعدم تأثيرها في الأزمان اللاحقة بهذا المدد القرآني، وذكر أنهم قالوا إن تحويلها عبث ما دامت الجهات متساوية، لذا جاءت هذه الآية بياناً وتوكيداً لموضوعيتها ورداً سماوياً على أهل الشك والريب، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(١).

وأعتبر تحويل القبلة من النسخ ، ويمكن أن يناقش إذ أن مقتضى الأصل تضمن القرآن للحكم الناسخ والحكم قبله بالمنسوخ، وليس في القرآن توجه إلى بيت المقدس، إلا أن يقال بكفاية التغيير للدلالة على إستقبال بيت

القدس كحكم منسوخ وتحقق النسخ الإصطلاحي في موضوع القبلة لظاهر الآية والإخبار عن إستقبال بيت المقدس فهو إخبار ضمن بيان التبدل والتغيير.

فتدل هذه الآية بمفهومها عليه وتوثقه إلى الأبد فلا تجد أحداً من المسلمين ينكر إستقبال بيت المقدس تنزهاً عن مشابهة اليهود مثلاً، نعم الآية تدل على النسخ الحكمي.

لقد حفظت هذه الآية منزلة بيت المقدس في حياة المسلمين وانه ثالث الحرمين، واكدت بان تحويل القبلة ليس من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل من عند الله تعالى، ومنعت من الظن بالرجوع إلى بيت المقدس والتعميم فيها.

والسين في ﴿سَيَقُولُ﴾ للإستقبال القريب، ويبين عدم تأخرهم في الإستخفاف والتجاهر به، والإلتفات الى الإعتراض على المسلمين بتحويل القبلة لا يدل على الجهل وخفة العقل بل يدل على الرصد والإهتمام بأفعال المسلمين والقدرة على رصدهم في عباداتهم.

وتظهر صيغة الجمع ﴿السُّفَهَاءُ﴾ أن السفه لم يتعلق بهم كأشخاص فحسب بل كجماعة ومذهب، وأنهم إختاروا الجهل والرأي الضعيف الذي يتمثل بالإعراض عن الإسلام ومحاربته بهذه الأقوال وأمثالها، فالآية تقسم الناس إلى أقسام:

الأولى : حلیم إختار الإسلام والإنصياع للأحكام السماوية والذي يعتبر تبديل القبلة جزء منه.

الثانية : سفیه يحارب المسلمين بالأقوال والأفعال ويحاول الإستهزاء منهم.

الثالثة : برزخ بينهما ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ التي تفيد التبعيض لعموم الناس ، ويدل على ان القائلين ليسوا من المسلمين، لأن المسلمين توجهوا إلى القبلة على نحو العموم المجموعي والإستغراقي، ولوم

الناس توجه إليهم ، والملام غير اللائم ، ولأن خطابات القرآن جاءت بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١) و﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾^(٢)، والأول يتعلق بالمسلمين، والثاني بالناس مطلقاً.

وفي الآية ذب ودفاع عن المسلمين وإعانة لهم على قبول أمر القبلة من غير شك، وتخفيف عنهم بنعت الذي يستخف بهم بالسفه وقلة الحلم. وجاء قول السفهاء وأهل الجهالة بصيغة الإستفهام، ومتعلقاً في موضوعه بإعراض المسلمين عن إستقبال بيت المقدس، ولم يذكروا إستقبالهم للبيت الحرام، مما يدل على أنهم كانوا يريدون بقاء المسلمين على ذات القبلة وأنهم لا يقولون بالنسخ.

وتدل لغة العموم وجهة الصدور من أهل الحسد والجحود في إنكار إعراض المسلمين عن بيت المقدس ومجيئه من السفهاء على أن المسلمين كافة توجهوا إلى البيت الحرام لقولهم ولأصالة العموم في (ما ولاهم) وعدم وجود جماعة إمتنعوا عن التحول إلى القبلة الجديدة ومن الشواهد عليه (مسجد القبلتين).

ومن إعجاز الآية أنها لم تذكر أهل ملة أو أمة أو قوم على نحو التعيين بل ذكرت أموراً ثلاثة:

الأول : إرادة الفعل المضارع وحال الإستقبال الذي تدل عليه السين في سيقول، والذي يفيد المستقبل القريب.

الثاني : نعت الذين يسألون سؤالاً إنكارياً عن تحويل القبلة بخفة العقل.

الثالث : عدم تعيين نسبتهم وإنتمائهم إلى أمة أو أهل ملة مخصوصة بل أنهم من الناس، وفيه وجوه:

الأول : تعدد إنتماء القائلين.

(١) أنظر سورة البقرة ١٠٤.

(٢) أنظر سورة البقرة ١٦٨.

الثاني : المدار على ماهية القول ودلالته على السفاهة.

الثالث : دعوة الذين يسألون عن تحويل القبلة إلى الكف عن تساؤلهم وإشكالهم.

الرابع : إكرام أهل الكتاب بعدم تعيينهم وإن كان عدداً من القائلين منهم، لأن هذا القول لم يصدر عن الإلتناء إلى الكتاب فهو صادر عن خفة العقل، وعدم التدبر في حقائق التنزيل وأسرار الوحي وعالم النبوة، وكانت قریش تتصل مع أهل الكتاب بخصوص نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ إعجاز جلي من جهات:

الأولى : إنه إخبار عن الغيب لما فيه من إعلان سماوي عن حدوث فعل في المستقبل.

الثانية : التحدي للناس فلا يستطيعون الإمتناع عن هذا القول، فحينما يقولون يكون مصداقاً للآية القرآنية، ودعوة لهم وللناس لدخول الإسلام لثبوت تحقق الفعل، وهو من أسرار مجي الآية بلفظ الناس وعدم تعيين فريق من أهل ملة مخصوصة، لتكون الآية عامة يوليها الجميع عناية خاصة لأن الذي سينكر توجه المسلمين إلى القبلة منهم ، وليس من فريق مخصوص منهم.

الثالثة : دعوة الناس للتدبر في سيرة وفعل وقول الذي يحتج وينكر تحويل القبلة، وظهور مصاديق السفة وخفة العقل عليهم في أمور حياتهم، وهو ظاهر الآية الكريمة لأنها لم تقل أنهم يصيرون سفهاء بانكار تحويل القبلة بل أن إنكارهم صادر من منازل وصبغة السفاهة التي يتصفون بها وفي الآية مسائل :

الأولى : الآية مدد للمسلمين بالدفاع عنهم ، وذم الذي ينكر ما يفعلون طاعة لله ورسوله.

الثانية : التحذير في المعاملة والمواثيق مع الذين ينكرون تحويل القبلة لأن هذا الإنكار أماره وشاهد على السفاهة وخفة العقل التي هي حال التلبس بها قبل هذا الإنكار الذي ترشح عنها ومن معاني الألف واللام في المقام هو إستحقاق النعت بالسفاهة ، وقال الله في ذم الذي أعابوا على المسلمين إيمانهم ﴿الْأَيْهَمُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١).

الثالثة : دعوة الناس للتدبر والتفكر في أسرار ومنافع تحويل القبلة، وهو من الإعجاز في ذكر الناس في الآية وأن المنكرين للتحويل جماعة منهم تتصف بحقة العقل.

الرابعة : إكرام المسلمين بأن إختيارهم الإيمان، وإمثالهم لأمر الله بالتحويل في القبلة هو عنوان رجحان العقل وقال المتنبّي:

وَنَذِيْمُهُمْ^(٢) وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ
وَبِضْدِهَا تَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ^(٣)

وعن مطرف أن النبي صلى الله عليه وسلم اثترز ببردة سوداء فجعل سوادها يشب يياضه وجعل يياضه يشب سوادها قال شمر يشب أي يزهاه ويحسنه ويوقده ، وفي رواية أنه لبس مدرعة سوداء فقالت عائشة ما أحسنها عليك يشب سوادها بياضك وبياضك سوادها أي تحسنه^(٤).

لتأتي آية البحث لإشعارهم بسوء قولهم، وهل السفاهة في المقام حالة مستديمة أم عرض متزلزل قابل للزوال، الجواب هو الثاني لذا فان الآية حث لهم للتوبة والصلاح، ودعوة للتدبر في آية تحويل القبلة.

لقد أثنى الله عز وجل على المسلمين بقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(١) سورة البقرة ١٢.

(٢) تذييمهم : يقال يذمه ذماً : عابه وإنتقص منه .

(٣) جمع دواوين الشعر العربي على مر العصور ٣٢٦/٤٦.

(٤) لسان العرب ٤٨٠/١.

لِلنَّاسِ^(١)، ليكون من معاني التفضيل بلحاظ هذه الآية وجوه:

الأول : معرفة المسلمين للسفهاء بتعيين موضوع السفه وصبغته العقائدية.

الثاني : صبر المسلمين على أقوال المنافقين الذين ينكرون على المسلمين

امثالهم للأوامر الإلهية ، قال تعالى ﴿وَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَذَاهُمْ﴾^(٢).

الثالث : عدم إصغاء المسلمين لأهل الشك والريب.

الرابع : يفيد الجمع بين الآيتين سلامة المسلمين من السفه وخفة العقل.

الخامس : المسلمون على ملة إبراهيم والدين الحنيف، والسفه في الخروج

والعزوف عنها ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(٣).

وبخصوص القبلة تقيد المسلمون بأمور:

الأول : الإيمان بأن الإستقبال شرط وجزء من الصلاة الواجبة والمندوبة.

الثاني : التوجه إلى بيت المقدس في المدينة قبل نسخ القبلة قرآناً وسنة.

الثالث : إتخاذ البيت الحرام قبلة والتحول عن بيت المقدس عند نزول

نسخها وتحويلها.

الرابع : الفورية في التحول وإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

في إستقبال الكعبة الشريفة.

وهل من موضوعية لهذه الفورية في قول السفهاء ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ﴾

أم أنه غير ناظر إلى صبغة التحول هل هو فوري ودفعي أو تدريجي ، الأصح هو الأول، فقد هالتهم سرعة إستجابة المسلمين لتحول القبلة، وعدم الجدل

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة الأحزاب ٤٨ .

(٣) سورة البقرة ١٣٠.

فيه والإمتناع عن السؤال الإنكاري بالأسباب والغايات .
ولم يلتفت المسلمون إلى الحرج الذي يترشح عن تركهم قبلة أهل الكتاب، مما يدل على حسن توكلهم على الله وتفويض الأمور إليه.
ومتعلق الإنكار يشمل توجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكعبة ويشمل المسلمين وهو ظاهر لغة الجمع في الآية (وما ولاهم) ولكن الرد جاء خاصاً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾^(١)، وفيه وجوه :

الأول : يقتدي المسلمون بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القبلة.
الثاني : النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الإمام ، ومن وظائفه الجهادية الرد على أهل الجدل والعناد.
الثالث : تبين الآية دفاع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن المسلمين.

الرابع : إن أمر الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل) يشمل المسلمين، وكل واحد منهم يرد بذات المضامين القدسية للآية، بالإضافة إلى تلاوتهم لها التي تفيد الرد، ومن الآيات أن إنكار بعضهم إبدال القبلة إنقضى في زمانه، ولكن القرآن يتضمن الإخبار عنه والرد عليه، ولو شاء الله عز وجل لترك قولهم هذا ، ولم يوثق في التنزيل خصوصاً وأن نعتهم بالسفهاء يدل بالدلالة التضمنية على عدم ترتب الأثر على قولهم وإحتجاجهم خصوصاً وأن قولهم لم يتوجه إلى المسلمين فلم تقل الآية (ما ولاكم عن قبلتكم) كي تكون نوع جدال وإحتجاج، إنما ورد قولهم في غياب المسلمين.

وبما أن الآية أخبرت عن حدوث القول في المستقبل القريب (سيقول السفهاء) مما يدل على أنهم سيتحدثون به في متدياتهم ومجالسهم الخاصة إنما

كان كلامهم بحضرة المسلمين هو إدعاء الإيمان، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾^(١).

ومن وجوه نعت أهل الإنكار بالسفه وخفة العقل دلالة ترك المسلمين لأولى القبليتين والتوجه حال نزول آيات القبلة إلى البيت الحرام على تأهب المسلمين للجهاد والدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام، ليكون من مصاديق السفه في المقام تخلفهم عن إدراك أن تحويل القبلة مثلما هو مطلوب لذاته فانه مقدمة لفتح مكة وللتوجه لفتح البلدان والأمصار وهو من معاني قوله تعالى في هذه الآية ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

ومن دلالات نعت الذين ينكرون تحويل القبلة بالسفه وخفة العقل أن الكتب السماوية السابقة ليس فيها التعيين والثبات على إستقبال بيت المقدس وأن يد التحريف لم تصل إلى موضوع القبلة.

بحث اصولي

من أسماء الله تعالى (الحاكم) و(الحكيم) فهو الذي أتقن الأشياء وأنزل القرآن كتاباً جامعاً وجعل الإسلام شريعة كاملة لها أحكامها وسننها، وللحكم عدة تقسيمات بحسب اللحاظ والجهة ويقسم بحسب مراتبه الى:
الحكم الإقتضائي: أي ان المقتضي للحكم في هذه المرحلة موجود كما انه يتصف بالحسن وفيه مصلحة ونفع، ولكن بعض شروطه مفقود او ان المانع موجود، اذ ان العلة التامة لا تنحصر بالمقتضي بل تستلزم أمرين وجود المقتضي وفقد المانع.

مرحلة الإنشاء: وهي إجتماع شرائط إنشاء الحكم وتشريعه بتحقيق المقتضي وفقد المانع ولكن إرادة العمل به لم تتم بعد، وكأنه لا زال معلقاً بالنسبة لعمل المكلف به أو أن مرتبته تتخلف عن الحكم النهائي لها كما في

(١) سورة البقرة ٧٦.

جواز الكلام في الصلاة، ثم شرع تحريمه، او عدم الإقتراب من الصلاة في حال السكر، ثم حرم شرب الخمر مطلقاً، والصيام كان مستحباً في بداية الإسلام ثم أصبح في السنة الثانية للهجرة واجباً، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾^(١)، وهكذا ففي هذه المرحلة الخاصة بهذا الحكم لا يلزم ولا يجب إتيان الفعل، وكذا بالنسبة للأحكام الواقعية التي قامت الأمانة على خلافها كما لو كان الهلال موجوداً ولكن وجود السحب الكثيفة والغيوم جعل شهادة البينة متعذرة فأدى الى إتمام العدة.

مرحلة فعلية الحكم: وتعني إجتماع مقومات الحكم وأسبابه وشرائطه وتحقيق قصد الإلزام من الأمر وتقييد المكلف بإتيانه عندما يحصل تبليغه بالحكم أي أن المكلف في هذه المرتبة لم يتم علمه وإطلاعه وتبليغه.

مرحلة التنجز: وهي علم المكلف بالحكم الفعلي وترتب الثواب على إتيانه والعقاب على تركه، والأكثر من الأصوليين يكتفي بمرتبتين الإنشائي والفعلي، وتحويل القبلة كان ومنذ بداية الإسلام حكماً إقتضائياً ينتظر تحقق اسبابه وشروطه وزوال المانع فهو حتمي، وتشريعه يدل على حالة من الإرتقاء والعز والمنعة عند المسلمين.

وذكر عن ابن عباس: اول ما نسخ من القرآن القبلة^(٢).

انه نسخ في الشريعة وجاء القرآن بالناسخ، وهل يمكن ان يكون نسخ القبلة برزخاً ومثلاً في الإصطلاح الأصولي لتضمن القرآن للناسخ فقط، او انه من النسخ لأنه يشير بالدلالة التضمنية الى القبلة السابقة، لا مانع من هذا التقسيم وهو جعل النسخ على مراتب وان وجود الناسخ وحده ادنى رتبة من وجود الناسخ والمنسوخ معاً في القرآن.

(١) سورة البقرة ١٨٣.

(٢) الدر المنثور ١/٢٧٩.

ولقد وردت نصوص في شرف الكعبة والبيت الحرام ، وفي أوان تحويل القبلة، وذكر ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى الى بيت المقدس ثلاث عشرة سنة بمكة وتسعة عشر شهراً بالمدينة..." الحديث.

وفي مدة صلاة النبي إلى بيت المقدس وهو في المدينة، أقوال:

الأول: عن ابن عباس: سبعة عشر شهراً.

الثاني: عن البراء بن عازب: ستة عشر شهراً او سبعة عشر شهراً ذكره مسلم في صحيحه.

الثالث: عن معاذ بن جبل: ثلاثة عشر شهراً.

الرابع: عن أنس بن مالك: انما كان ذلك تسعة اشهر او عشرة اشهر.

اخرج عن تويلة بنت اسلم^(١) قالت: "صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيليا فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد إستقبل البيت الحرام، فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلوا البيت الحرام، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك فقال: اولئك قوم آمنوا بالغيب"^(٢).

وفي الحديث إكرام للذين بادروا إلى الإستجابة لتحويل القبلة، ولم يشددوا على أنفسهم، ولم يطلبوا البينة.

والكعبة قبله إبراهيم ومولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسرة الأرض ومحورها، ومنها إبتدأ دحوها.

وفي تغيير القبلة تعظيم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإرجاع الحكم إلى أصله ليكون له الدوام فهو نسخ في الحكم ، وإحلال للدائم محل المؤقت، وتوكيد على حاجة الناس لبعثته كي تؤتى العبادات على الوجه الأتم

(١) تويلة بالتصغير روى حديثها الطبراني بالاسناد عن ابراهيم بن جعفر وهي من المبايعات.

(٢) الدر المنثور ١/٦٥.

والأكمل، وفيها ايضاً مدح للمسلمين لأنهم مادة النسخ والتصحيح وتنجز التشريع، ويدل على أهليتهم لحفظ الحكم الدائم والناسخ من غير تبديل او تحريف.

ومن الشبهات على تغيير الكعبة أن الجهات كلها متساوية في جميع الصفات، وتحويل القبلة من جهة إلى جهة مجرد عبث لا يصدر من الحكيم ولكن الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد، وإن الأشرية لا ينحصر ادراكها باوهام البشر بل هو في علم الله والغايات من نسخ القبلة أعم من موضوعها، فهو تأديب وإرشاد للمسلمين وتنمية للملكة الإستجابة لأمر الله ورسوله، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١)، ومن الآيات أن تحويل القبلة طاعة لله ورسوله في آن واحد ومحاجة ونصرة لفعل النبي . ومصداق للنسخ في الشرائع وتأديب الناس عليه .

إن نعت أهل الجدل بالسفهاء بيان للخلل في مقدمات احتجاجهم وإضعاف له ويدل بالدلالة التضمنية على وهنه وعدم ترتب الأثر عليه، وهو من البديع وفيه رمي للقولهم بالوهن لأنه صادر عن ضعف العقل بالإضافة إلى تقوية عزائم المؤمنين وتثبيتهم على الأمر الجديد في موضوع القبلة. لقد أرادوا قذف الشك والريب في قلوب المسلمين فجاءت هذه الآية سلاحاً لتثبيت القبلة الجديدة وترسيخ أحكامها في نفوس المسلمين وإلى يوم القيامة، وجعلتهم لا يلتفتون إلى تلك الأقاويل ويتجاوزونها بفخر وعز وحال من اليسر لما في آيات القبلة من التخفيف والإعانة.

بحث اصولي آخر

للمفهوم ثلاثة معانٍ أخصها: ما يقابل المنطوق فيتعلق بالدلالة الإلتزامية للجملة خبراً كانت أو إنشاءً فمثلاً: صم شهر رمضان وأنت حاضر ومقيم، هذا هو المنطوق، أما مفهوم هذا القول فهو إن كنت مسافراً غير مقيم فليس

(١) سورة آل عمران ١٣٢.

عليك وجوب صيام ذلك اليوم بالذات.

لذا يمكن تعريف المفهوم بأنه: حكم لم يرد في اللفظ بالخصوص ولكنه مستقراً من اللفظ ومعناه بسبب خصوصية فيه، بينما المنطوق عبارة عن حكم يدل عليه اللفظ ومادته وهيئته وهو من الدلالة المطابقة والتضمنية، وأما المفهوم فانه من الدلالة الإلزامية وينقسم المفهوم إلى قسمين:

مفهوم الموافقة: ويسمى أيضاً المفهوم الموافق وهو الموافق في نسخيته وموضوعه للحكم في المنطوق إلا أنه يختلف عنه بالرتبة بحيث ينتزع الحكم للتساوي والشبه بينهما، أو للأولوية ولعمومات وحدة الموضوع في تنقيح المناط كما في قوله تعالى ﴿فَلَا تَقْلُ لَهَا أَفْ﴾^(١)، فمن باب أولى عدم زجرهما أو التعدي عليها، ويسمى هذا المفهوم بفحوى الخطاب أيضاً لأن الحكم في الأقرب أو الأدنى يستلزم الحكم بالأبعد أو الأعلى إلا مع الدليل على الخلاف.

مفهوم المخالفة: وهو الذي يكون فيه الحكم مخالفاً لسنخ وماهية الحكم الموجود في المنطوق وله أبواب عديدة وهي:

الأول: مفهوم الشرط.

الثاني: مفهوم الوصف.

الثالث: مفهوم الغاية.

الرابع: مفهوم الحصر.

الخامس: مفهوم العدد.

السادس: مفهوم اللقب.

وبالنسبة للآية الكريمة فان منطوقها والحكم المذكور فيها نعت للذين أشكلوا وأظهروا إستغرابهم من تحويل المسلمين قبلتهم بأنهم سفهاء، أما المفهوم بقسميه، فبخصوص مفهوم الموافقة فمن السفه ما يثيره هؤلاء

(١) سورة الإسراء ٢٣.

وأمثالهم على المسلمين في عقيدتهم والتزامهم بأحكام شريعتهم وإقدامهم على الإمتثال من غير تردد أو شك، وكذا بالأولوية بالنسبة لمن يعاديهم ويضمر لهم الشر.

أما مفهوم المخالفة فإن الآية تدل على سلامة أفعال المسلمين وحسن إختيارهم فإن حصر الذم بخصوصية ونعت (السفه) إستحققه الذي أخذهم على حسن إنصياعهم والتزامهم بالتكاليف.

قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

إطلاق الملك لله يصح لأن يكون دليلاً على إمكان حدوث التحويل وأنه جزء من الإرادة التكوينية وتحويل القبلة فيه من الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية معاً وهذا التقسيم إستقرائي، بغض النظر عن المذاهب الكلامية، والنقاش في الإرادة على وجوه :

الأول : إنها من الصفات الذاتية.

الثاني : من أم الصفات الفعلية.

الثالث : هي صفة زائدة على الذات.

الرابع : انها عين الذات .

الخامس : أنها ترجع الى العلم بالأصلح.

السادس : انها من عوارض الذات كما تظهر في الإنسان.

السابع : منهم من إعتبر الإرادة التشريعية فرع التكوينية.

وتغيير القبلة إنعطاف في أحكام العبادة في الأرض، وبعض المتربصين بالإسلام يشككون ويشيرون الشبهات حتى فيما هو حق وصدق كما هو ظاهر الآيات السابقة، فكيف وأن تبديل القبلة تغيير وتبديل ويضر بهم وبمصالحهم لأنه فراق معهم وتخل عن فعل عبادي مشترك إلى ما هو أسمى وما يعتبر جزء من ملة إبراهيم.

وبتحويل القبلة أكد المسلمون بالفعل على أنهم على ملة إبراهيم وليس

بالإدعاء والقول فحسب، ويمكن إعتبار الإعتراض على تحويل القبلة جدالاً مع للنبوة وهل يلحق الإثم أولئك الذين أثاروا إستغرابهم عند تحويل القبلة الجواب المدار على القصد والنية وكيفية الجدل.

لقد واجههم القرآن بالحجة التي إتخذها الكفار ذريعة، وعلة لإنكارهم وفيها إعتبار زائد فمع أن المشرق والمغرب لله عز وجل فإنه تعالى إختار الكعبة قبلة للمسلمين.

ففي الآية تشريف وتعظيم للكعبة وأنها تستحق ان تكون موضوعاً للإستقبال، كما أن الآية في دلالتها التضمنية تمنع من الشرك والتشكيك لأن ملك الله تعالى للأرض والسماء وما بينهما مطلق.

وفي تحويل القبلة بيان لإستيلاء وقدرة الله تعالى ونفاذ أمره وتعلق قدرته بجميع المقدورات لتجردها عن المكان والزمان والجهة، إن توجه المسلمين إلى قبلة خاصة بأمر سماوي ونص قرآني إكرام مركب بتخلصهم من التبعية للملل الأخرى، ولأنها عنوان الإستقلال في الأحكام الشرعية بأهم مصاديقه، وفي إستقبال البيت الحرام عز للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن مكة مولده وفيها تلقى النبوة وبدأت السور القرآنية بالنزول عليه، تلك السور التي تسمى بالمشكية وتتصف بالقصر ولغة الإنذار والوعيد ، مثل قوله تعالى ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾^(١).

وإبتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ وفيه بلحاظ لغة الخطاب

وجوه:

الأول : إفادة الجملة الخبرية والتوثيق .

الثاني : لغة الخطاب للمسلمين بلحاظ الآية السابقة.

الثالث : الخطاب للناس جميعاً موعظة لهم .

وهل تنحصر معاني قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ بإبطال مغالطة أهل الجدل، والرد على إحتجاجهم على تحويل القبلة . الجواب لا، وتلك آية في تعدد الغايات والمقاصد السامية من لغة الجدل والإحتجاج في القرآن، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، فمن وجوه الأحسن في الجدل مجيؤه عاماً وتوليدياً تترشح عنه مسائل كثيرة كل واحدة منها حجة بذاتها وبانضمامها إلى غيرها، وتدعو إلى التوحيد ونبد أسباب الشرك ومفاهيم الضلالة ، ليكون من معاني رد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ على الذين ينكرون التحول في القبلة وجوه:

الأول : الرد بالمعنى الأعم والدعوة إلى الله.

الثاني : تذكير الناس بأن الأرض والسموات ملك لله عز وجل.

الثالث : الإشارة إلى أن تحويل القبلة بأمر من الله عز وجل وأن القبلة الأولى والثانية من ملكه تعالى ، والإشارة بأن هذا التحول نهائي.

الرابع : من وجوه السفاهة في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ أنهم تركوا الأهم وهو التدبر بيدع صنع الله عز وجل، ومشيئته في خلقه.

الخامس : التحول في القبلة من مشيئة الله عز وجل والإستجابة له من الهداية والتوفيق والرشاد.

السادس : إبتدأت الآية بذكر إحتجاج فريق من الناس على تحويل القبلة، ونعتهم بالسفهاء دليل على بطلان قولهم وفقد المقتضي له.

السابع : تأكيد رحمة الله بالناس جميعاً، بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن الآية تدعو الناس إلى عبادة الله ورجاء رفته، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، فلم تترك الآية السفهاء

(١) سورة النحل ١٢٥.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

وغيرهم ينشغلون بالقبلة وتحويلها بل أمرت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بجذبهم إلى منازل الهداية ببيان الملك المطلق لله عز وجل وأن الإنصات لآيات القرآن من أسباب الهداية وأن تحويل القبلة إلى البيت الحرام من الصراط المستقيم الذي أختتمت الآية به ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

وليفيد نعت السفه وخفة العقل في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ هو العزوف عن ملة إبراهيم وإستقباله البيت الحرام لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(٢)، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

ولعل في الآية إشارة إلى توجه كل أمصار وجهات الأرض إلى البيت الحرام وهو من معاني الهداية إلى الصراط المستقيم بلحاظ أن القبلة من مصاديقه وأن موضوع إستقبال البيت الحرام لا ينحصر بأهل المدينة ولا أيام التنزيل بل هو ناظر إلى إتساع وظهور دولة الإسلام وأن في هذا عموم هذا الإستقبال رحمة لذا ورد نعت أهل الإنكار بأنهم (سفهاء) ونسبتهم إلى الناس، أي لا يعلمون النفع والمصلحة العامة للناس في إستقبال المسلمين للبيت الحرام، وأن هذا النفع شامل لكل الناس لما فيه من التذكير بوجوب طاعة الله، وبعث السكينة في النفوس.

قوله تعالى ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

من أسماء الله تعالى (الهادي) وتفرد سبحانه بالقدرة المطلقة على الهدى والتوفيق والإيصال إلى دروب النجاة في الدارين، والصراط هو الطريق، والإستقامة عنوان الطاعة والسلامة وقد تقدم مفصلاً في تفسير قوله تعالى ﴿

(١) سورة البقرة ١٤٢.

(٢) سورة البقرة ١٣٠.

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ^(١) والصراط المستقيم فيه أقوال منها الإسلام، وكتاب الله، والأنبياء والإيمان، و(ورد عن ابن عباس أنهم أصحاب موسى قبل ان يغيروا واصحاب عيسى قبل ان تطال يد التحريف الإنجيل وقبل النسخ).
وظاهر الآية الكريمة ان الهداية من الكليات التي تنحل الى مصاديق عديدة وتتمثل بجزئيات كثيرة، الجامع فيها التوفيق الإلهي، وحسن الطاعة والإمثال وعرف المعتزلة الهداية بانها الدلالة الموصلة.

والهداية هنا الإرشاد والدلالة تتعلق أيضاً بالعقيدة والمذهب.
وكان إستقبال الكعبة هداية مدخرة للمسلمين وهم الذين إستحقوها كما أظهر الواقع تعاهدتهم لها، وان إتحاد جهة التوجه في العبادة له موضوعية في دوام الفريضة ومنع الفرقة، فقد تفضل الله سبحانه بعدم جعل جهة القبلة تخيرية او مرددة بل إقترن قبول الصلاة بشرط إستقبال البيت لإنتفاء المشروط بانتفاء شرطه.

إن إستقبال البيت الحرام تفضيل مستحدث للمسلمين ومدخر لهم، ولا يعني هذا منع الآخرين عنه ولكنهم منعوا أنفسهم بالإعراض عن الإسلام وهو امر يؤاخذون عليه لعمومات التكليف بالفروع كتكليفهم بالأصول، ولقاعدة الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار.

وتبين الآية ان إستقبال البيت الحرام نعمة لم ينلها إلا الذين أراد الله هدايتهم وصلاتهم، والظاهر ان هناك ملازمة بين هذه الآية وبين الصلاة وقراءة سورة الفاتحة والدعاء فيها بالهداية الى الصراط المستقيم.

وجاء قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(٢)،
ليبان الإتحاد في الإعراض عن ملة إبراهيم وذم إستقبال البيت.

(١) سورة الفاتحة ٥.

(٢) سورة البقرة ١٣٠.

وجاء في سورة الفاتحة بصيغة الدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، ومن الإعجاز في تلاوة آيات القرآن أن المسلمين والمسلمات يكررون هذه الآية على نحو الوجوب عدة مرات في كل يوم، وجاءت هذه الآية لتؤكد أن تحويل القبلة نحو البيت الحرام من الصراط المستقيم الذي تفضل الله عز وجل به على المسلمين وفيه تفضيل للمسلمين لأنهم على نهج الأنبياء السابقين.

بحث فقهي

لقد جعل الله الكعبة المعظمة صانها الله قبلة للناس وعرفت بانها المكان الذي فيه الكعبة من تخوم الأرض الى عنان السماء ففي وثيقة عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سأله رجل قال: صليت فوق ابي قيس العصر فهل يجزي ذلك والكعبة تحتي، قال: نعم، إنها قبلة من موضعها الى السماء^(٢).

وهناك نصوص تدل على أن موضع القبلة لم يتعين بهذا التحويل والتبديل لقبلة المسلمين بل هو معروف ومحدد منذ أيام آدم عليه السلام، فلا غرابة أن يتطلع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء بانتظار أمر تحويل القبلة، ففي خبر ابن كثير ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (ان الله بعث جبرئيل الى آدم عليه السلام فنزل غمام من السماء فآظل مكان البيت، فقال جبرئيل عليه السلام: يا آدم خط برجلك حيث أظل الغمام فانه قبلة لك ولآخر عقبك من ولدك)^(٣).

وأهم موارد الإستقبال والأفعال والأمر التي يجب فيها التوجه الى القبلة هو الصلاة مطلقاً سواء كانت صلاة يومية واجبة، أو صلاة آيات، أو طواف،

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) الوسائل ١٥/١٠٨.

(٣) الوسائل ١٧/١٠٦.

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٢٠	الصلة بين أول وآخر الآية
٦	قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾	٢١	التفسير الذاتي
٦	الإعراب واللغة	٢٢	من غايات الآية
٧	في سياق الآيات	٢٣	تفسير قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ
١٤	إعجاز الآية	٢٩	تفسير قوله تعالى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾
١٥	الآية سلاح	٣٠	تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
١٧	مفهوم الآية	٣٢	بحث إعجازي
١٨	إفاضات الآية	٣٤	قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾
١٩	الآية لطف	٣٤	الإعراب واللغة

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٥	في سياق الآيات	٥٨	الصلة بين أول وآخر الآية
٤٥	إعجاز الآية	٦٠	تفسير قوله تعالى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾
٤٦	الآية سلاح	٦٥	بحث بلاغي اللف والنشر
٤٧	بحث أصولي	٦٦	تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ بَلْ مَلَكٌ بَرَّاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
٤٨	مفهوم الآية	٦٨	بحث منطقي
٥١	الآية لطف	٦٩	بحث بلاغي
٥٣	إفاضات الآية	٦٩	بحث منطقي
٥٥	التفسير الذاتي	٧٣	قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾
٥٦	من غايات الآية	٧٣	الإعراب واللغة

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٧٤	في سياق الآيات	٩٤	تفسير قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾
٨٣	إعجاز الآية	١٠١	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿
٨٥	الآية سلاح	١٠٢	بحث منطقي
٨٦	مفهوم الآية	١٠٦	تفسير قوله تعالى ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾
٨٩	الآية لطف	١٠٧	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَخْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾
٨٩	إفاضات الآية	١٠٨	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾
٩٠	الصلة بين أول وآخر الآية	١١٠	بحث بلاغي
٩٢	التفسير الذاتي	١١٢	قوله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
٩٣	من غايات الآية	١١٢	الإعراب واللغة

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٤	في موضوع النزول	١٣٧	بحث بلاغي
١١٥	في سياق الآيات	١٣٨	بحث أصولي
١٢١	إعجاز الآية	١٤٠	تفسير قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا
١٢٢	الآية سلاح	١٤٢	فَأِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ قوله تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾
١٢٣	مفهوم الآية	١٤٤	تفسير قوله تعالى ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾
١٢٨	الآية لطف	١٤٥	تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ
١٢٩	إفاضات الآية	١٤٦	الْعَلِيمُ﴾ بحث بلاغي
١٣٠	الصلة بين أول وآخر الآية	١٤٧	قوله تعالى ﴿صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ
١٣١	التفسير الذاتي	١٤٧	أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
١٣٢	من غايات الآية	١٤٨	عَابِدُونَ﴾
١٣٤	التفسير	١٥٣	الإعراب واللغة
١٣٤	تفسير قوله تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا	١٥٤	في سياق الآيات
	بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾		إعجاز الآية
			الآية سلاح

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٥	مفهوم الآية	١٧٤	في سياق الآيات
١٥٧	الآية لطف	١٧٩	إعجاز الآية
١٥٧	إفاضات الآية	١٧٩	الآية سلاح
١٥٨	الصلة بين أول وآخر الآية	١٨٠	مفهوم الآية
١٦٠	التفسير الذاتي	١٨٢	الآية لطف
١٦١	من غايات الآية	١٨٤	إفاضات الآية
١٦٢	تفسير قوله تعالى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾	١٨٤	الصلة بين أول وآخر الآية
١٦٥	المجاز في القرآن	١٨٦	التفسير الذاتي
١٦٨	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾	١٨٨	من غايات الآية
١٦٩	قوله تعالى ﴿وَتَخِزُّ لَهُ عَابِدُونَ﴾	١٨٩	التفسير ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾
١٧٣	قوله تعالى ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَعْمَلُكُمْ وَتَخِزُّ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾	١٩٠	تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾
١٧٣	الإعراب واللغة	١٩١	تفسير قوله تعالى ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٩٢	تفسير قوله تعالى ﴿وَتَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾	٢١٠	إفاضات الآية
١٩٣	قوله تعالى ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كُنْتُمْ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾	٢١١	الصلة بين أول وآخر الآية
١٩٣	القراءة والإعراب واللغة	٢١٣	من غايات الآية
١٩٥	في سياق الآيات	٢١٤	التفسير الذاتي
٢٠٣	إعجاز الآية	٢١٦	تفسير ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾
٢٠٤	الآية سلاح	٢١٨	بحث منطقي
٢٠٥	مفهوم الآية	٢٢١	تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾
٢١٠	الآية لطف	٢٢٤	تفسير ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كُنْتُمْ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٢٦	بحث تأريخي	٢٤١	إفاضات الآية
٢٢٨	تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾	٢٤٢	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٣١	قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾	٢٤٣	التفسير الذاتي
٢٣١	الإعراب واللغة	٢٤٥	من غايات الآية
٢٣٢	في سياق الآيات	٢٤٦	تفسير قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾
٢٣٨	إعجاز الآية	٢٤٨	تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾
٢٣٩	الآية سلاح	٢٥٠	تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
٢٤٠	مفهوم الآية	٢٥٣	قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
٢٤١	الآية لطف	٢٥٣	الإعراب واللغة

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٥٤	في سياق الآيات	٢٧٢	من غايات الآية
٢٥٩	إعجاز الآية	٢٧٣	التفسير الذاتي
٢٦٣	الآية سلاح	٢٧٤	تفسير قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾
٢٦٤	مفهوم الآية	٢٨٢	بحث أصولي
٢٦٥	الآية لطف	٢٨٥	بحث أصولي آخر
٢٦٦	أسباب النزول	٢٨٧	تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾
٢٦٧	مفهوم الآية	٢٩١	تفسير قوله تعالى ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
٢٦٨	إفاضات الآية	٢٩٢	بحث فقهي
٢٦٩	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٩٤	الفهرس